

جورج فريدمان

# الإمبراطورية والجمهورية في عالم متغير

ترجمة : أحمد محمود

الدار المصرية اللبنانية

2928

لماذا هناك كثيرون يرغبون في عقد أواصر الصداقة مع الولايات المتحدة الأمريكية؟.. ولماذا هناك الأكثر منهم يناصرون الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها العداة؟

هل لأن أمريكا تؤثر البعض، أم لأنها لا ترغب في التعامل مع البعض دون الجميع؟!

يكن بيت القصيد في هذه الازدواجية في الثنائية الفريدة، التي تعيشها أمريكا في العصر الراهن، جمهورية في ثياب إمبراطورية، وإمبراطورية تتذكر أحياناً أنها جمهورية. تؤمن أمريكا بأنه ليس هناك من يداوم على معاداتها أو صداقته وارتباطه بها..

يعرض الكتاب تلك البانوراما الممتدة الأطراف من دروس سياسة ومناهج في التعامل الواقعي لدولة هي إمبراطورية بلا منازع، تتحكم في توزيع موازين الثقل الدولية في كل أرجاء العالم.. تستميل أطرافاً بالجزرة لذينة الطعم والمغرية المشهد.. وتلوح لأطراف أخرى بعصا غليظة، ثقيلة الوطأة، وغير قابلة للاحتمال أو المواجهة.. كيف تنجح أمريكا في ذلك؟!

الإمبراطورية  
والجمهورية  
في عالم متغير

THE NEXT DECADE  
BY GEORGE FRIEDMAN  
Copyright©2011, 2012 by George Friedman.  
This translation is published by arrangement  
with Doubleday, an imprint of The Knopf  
Doubleday Publishing Group, a division of  
Random House, Inc.

المركز القومي للترجمة  
تأسس في أكتوبر 2006 تحت إشراف: جابر عصفور  
مدير المركز: أنور منيع  
حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة  
شارع الجيلاية - بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة  
ت : 27354524 فاكس : 27354554  
Email: nctegypt@nctegypt.org

2928

فريدمان ، جورج.

الإمبراطورية والجمهورية في عالم متغير / تأليف جورج فريدمان؛ ترجمة أحمد  
محمود. - ط 1. - القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2016.

328 ص؛ 21 سم.

تدمك: 3 - 034 - 795 - 977 - 978

1- العالم - الأحوال السياسية

أ- محمود، أحمد (مترجم)

ب- العنوان. 320.909

رقم الإيداع: 2015 / 27209

©

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: 202 23910250 +

فاكس: 202 23909618 + ص.ب 2022

E-mail: info@almasriah.com

www.almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: ربيع أول 1437 هـ - يناير 2016م

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،  
بأي صورة من الصور، التصوير، التوصل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي  
مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاتباس  
منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحتها عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن  
كتابي مسبق من الدار.

جورج فريدمان

الإمبراطورية  
والجمهورية  
في عالم متغير

ترجمة : أحمد محمود

الدار المصرية اللبنانية





---

«أتمنى أن يكون الرب بجانبني. غير أنه لا بد لي من الحصول على كنتاكي».

أبراهام لنكولن

«القواعد ليست مقدسة بالضرورة. لكن المبادئ مقدسة بالضرورة».

فرانكلين روزفلت

«لا يمكن أن نتظاهر بالبراءة خارج البلاد في عالم ليس بريئاً».

رونالد ريجان

«من الضروري للأمير الذي يأمل في الحفاظ على موقعه أن يتعلم كيف

لا يكون طيباً. وأن يستخدم هذه المعرفة أو لا يستخدمها تبعاً للضرورة».

نيكولا ميكيافيللي

---





## المحتويات

9	قائمة بالصور التوضيحية
11	تصدير المؤلف
15	تقديم لطبعة أنكور
21	مقدمة: إعادة توازن أمريكا
35	الفصل الأول: الإمبراطورية غير المتعمدة
57	الفصل الثاني: الجمهورية والإمبراطورية والرئيس الميكيا فيلي
71	الفصل الثالث: الأزمة المالية والدولة الناهضة
87	الفصل الرابع: البحث عن توازن القوى
105	الفصل الخامس: فح الإرهاب
121	الفصل السادس: إعادة تحديد السياسة: حالة إسرائيل
	الفصل السابع: انقلاب استراتيجي: الولايات المتحدة
147	وإيران والشرق الأوسط
165	الفصل الثامن: عودة روسيا
191	الفصل التاسع: عودة أوروبا إلى التاريخ
219	الفصل العاشر: مواجهة غرب الباسيفيكي

- 251.....الفصل الحادي عشر: نصف الكرة الأمن
- 275.....الفصل الثاني عشر: إفريقيا: مكان يجب تركه في حاله
- 285.....الفصل الثالث عشر: الاختلال التكنولوجي والديموغرافي
- 303.....الفصل الرابع عشر: الإمبراطورية والجمهورية والعقد
- 313.....عرفان وتقدير
- 315.....قائمة ببعض المصطلحات والمفردات الواردة في الكتاب
- 325.....المؤلف في سطور
- 327.....المترجم في سطور

## قائمة الصور التوضيحية

- العلاقات التجارية الأمريكية الرئيسية ..... 39
- بلدان بها تواجد عسكري أمريكي ..... 44
- الولايات المتحدة: أسعار المنازل ..... 73
- ثلاثة توازات إقليمية ..... 148
- شبه الجزيرة العربية، والخليج الفارسي ..... 154
- فجوة أوكرانيا-كازاخستان ..... 169
- كثافة السكان الروس ..... 176
- السهل الأوروبي الشمالي ..... 183
- أوروبا في عام 1815م ..... 192
- الإمبراطوريات - 1900 ..... 197
- غرب الباسيفيكي ..... 222
- سقوط الأمطار والكثافة السكانية في الصين ..... 224
- تضاريس الصين ..... 225
- شمال شرقي آسيا ..... 235
- جنوب شرق آسيا ..... 242
- الطرق البحرية الإندونيسية ..... 245

- 247.....تضاريس الهند
- 252.....الحواجز التضاريسية في أمريكا الجنوبية
- 254.....كوبا والكاربيبي
- 258.....علاقات البرازيل التجارية
- 276.....الإسلام في إفريقيا
- 277.....الجماعات الإثنولغوية في إفريقيا
- 278.....الكثافة السكانية في إفريقيا

## تصدير المؤلف

يتناول هذا الكتاب العلاقة بين الإمبراطورية والجمهورية وممارسة السلطة في العشر سنوات المقبلة، وهو كتاب ذو طابع شخصي أكثر من كتابي «المائة عام التالية»؛ لأنني أتناول همي الأكبر، وهو أن قوة الولايات المتحدة في العالم سوف تقضي على الجمهورية. ولست الشخص الذي يتحاشى القوة؛ فأنا أفهم أنه بلا قوة لا يمكن أن تكون هناك جمهورية، ولكن المسألة التي أثيرها هي كيف ينبغي للولايات المتحدة أن تتصرف في العالم، وهي تمارس قوتها، وتحافظ على الجمهورية في الوقت ذاته؟

إنني أدعو القراء إلى إمعان النظر في موضوعين: الأول، هو مفهوم الإمبراطورية غير المتعمدة؛ فأنا أقول إن الولايات المتحدة أصبحت إمبراطورية ليس لأنها تعمدت ذلك، بل لأن التاريخ سار على هذا النحو. ولا معنى لمسألة ما إذا كان ينبغي للولايات المتحدة أن تكون إمبراطورية أم لا؛ فهي إمبراطورية.

ولهذا السبب، يتعلق الموضوع الثاني بإدارة الإمبراطورية. وأنا أرى أن أهم سؤال وراء ذلك هو ما إذا كان يمكن للجمهورية أن تبقى أم لا؛ فقد أسست الولايات المتحدة على خلفية الإمبريالية البريطانية. والأمر الذي يتسم بالمفارقة، والمخيف من نواح كثيرة، هو أن المؤسسين قدموا لنا، في زماننا هذا، أوجه هذه المعضلة. ربما كانت هناك مخارج من هذا المصير، ولكن تلك المخارج لم تكن مرجحة.

وأصبحت الدول على ما هي عليه خلال قيود التاريخ، وللتاريخ قدر قليل جدًا من الحساسية، حين يتعلق الأمر بالأيديولوجيا أو الأفضليات؛ فنحن ما نحن عليه.

ليس واضحًا لي ما إذا كان يمكن للجمهورية تحمل ضغط الإمبراطورية أم لا، أو ما إذا كان يمكن لأمريكا أن تبقى سالمة بعد الإمبراطورية سيئة الإدارة أم لا. بعبارة أخرى، هل يمكن جعل إدارة الإمبراطورية متوافقة مع متطلبات الجمهورية؟ هذا غير واضح بالفعل بالنسبة لي؛ فأنا أعلم أن الولايات المتحدة ستكون قوة ذات بأس في العالم، أثناء هذا العقد المقبل، وكذلك بالنسبة للقرن التالي.. ولكني لا أعلم ما نوع النظام الحاكم الذي سيكون لديها؟

أنا أؤيد الجمهورية بشدة، وربما لا يكون العدل هو ما يهتم به التاريخ، ولكنه ما أهتم به أنا؛ فقد أمضيت قدرًا كبيرًا من الوقت أفكر في العلاقة بين الإمبراطورية والجمهورية، والنتيجة الوحيدة التي توصلت إليها، هي أنه إذا كان للجمهورية أن تبقى فالمؤسسة الوحيدة التي يمكن أن تنقذها هي الرئاسة. هذا شيء من الغريب أن يُقال في ظل كون الرئاسة من نواح عديدة أكثر مؤسساتنا إمبريالية (فهي المؤسسة الوحيدة التي يجسدها شخص واحد). غير أنها في الوقت ذاته الأكثر ديمقراطية؛ حيث إن الرئاسة هي المنصب الوحيد، الذي يختار له الناس جميعًا قائدًا قويًا واحدًا.

ولكي أفهم هذا المنصب، فإنني ألقى نظرة على ثلاثة رؤساء، عرّفوا العظمة الأمريكية: الأول هو أبراهام لنكولن Abraham Lincoln الذي أنقذ الجمهورية، وثانيهما هو فرانكلين روزفلت Franklin Roosevelt، الذي أعطى الولايات المتحدة محيطات العالم، أما ثالثهما فهو رونالد ريجان Ronald Reagan، الذي قوّض الاتحاد السوفيتي، وأعد المسرح للإمبراطورية. وكان كل منهم رجلًا أخلاقيًا إلى أقصى حد... على استعداد - رغم ذلك - لأن يكذب ويتهك القانون، ويخون المبدأ لتحقيق تلك الغايات.. لقد جسّدوا مفارقة ما أسميه الرئاسة الميكيفيلية، وهي المؤسسة التي توفق كأحسن ما يكون بين الخداع والصالح؛ من أجل استعادة الوعد الأمريكي.

لا أظن أن كون المرء عادلاً أمرًا يسيرًا، ولا أرى أن القوة مجرد تجسيد للنوايا الطيبة؛ ففكرة هذا الكتاب، المطبقة على مناطق العالم، هي أن العدل ينتج عن القوة، والقوة ممكنة فقط نتيجة لدرجة من شدة القسوة التي لا يطيقها معظمنا. ومأساة الحياة السياسية هي الصراع بين حد النوايا الطيبة والقوة الضرورية، وفي بعض الأحيان ينتج ذلك الخير. وقد حدث ذلك في حالة لنكولن وروزفلت وريجان، ولكن ليس هناك ما يضمن حدوث ذلك في المستقبل؛ فهو يتطلب العظمة.

وتصف الجيوبوليتيكا ما يحدث للدول، ولكنها لا تقول الكثير عن أنواع النظم الحاكمة التي ستكون فيها، وأنا مقتنع بأنه ما لم نفهم طبيعة القوة ونتقن فن الحكم، فإننا قد لا نتمكن من اختيار اتجاه نظامنا الحاكم. ولهذا السبب ليس هناك شيء متناقض في قلبي بأن الولايات المتحدة سوف تسود في القرن المقبل، غير أنها ربما تفقد روح جمهوريتها. وأمل ألا يحدث ذلك؛ حيث إن لي أولادًا، أو أن لدي الآن أحفادًا. ولست مقتنعًا بأن الإمبراطورية تستحق ثمن الجمهورية، وأنا متأكد من أن التاريخ لا يعير اهتمامًا لما أراه أنا أو يراه الآخرون.

لهذا السبب سوف يهتم هذا الكتاب بقضايا السنوات العشر المقبلة وفرصها وتحدياتها المتأصلة، وسوف تشكل تحالفات مفاجئة، وسوف تنشأ التوترات غير المتوقعة، وسوف يرتفع المد الاقتصادي وينحسر. وليس مفاجئًا أن كيفية مقاربة الولايات المتحدة (وخاصة الرئيس الأمريكي) لهذه الأحداث سوف تقود إلى صحة الجمهورية أو تدهورها. إن عقدًا مثيرًا للاهتمام ينتظرنا.





## تقديم لطبعة أنكور

يجمع كتاب «الإمبراطورية والجمهورية في عالم متغير» بين ثلاثة موضوعات، الأول: هو التوتر بين الجمهورية الأمريكية والإمبراطورية الأمريكية، والثاني: هو شخصية الرئيس اللازمة لإدارة الإمبراطورية غير المتعمدة وغير المرغوبة مع الحفاظ على الجمهورية، أما الثالث: فهو تنبؤ بالعالم الذي سنعيش فيه خلال هذا العقد.

وبينما أكتب تقديم الطبعة ذات الغلاف الورقي، بعد حوالي ثمانية أشهر من نشر الطبعة ذات الغلاف المقوى، تفاجئني السرعة التي وقعت بها بعض الأحداث، والطريقة التي بدأت بها بالفعل بعض الأحداث، التي كانت تخيم بشكل كبير على الإعلام والعقل العام، في التلاشي.

من المؤكد أن الشيء الأهم الذي حدث هو تسارع أزمة الاتحاد الأوروبي. وفي كل من «المائة عام التالية» و«الإمبراطورية والجمهورية في عالم متغير»، قدمت الحجة على أن الاتحاد الأوروبي، باعتباره مؤسسة وأوروبا باعتبارها نموذجا مثاليا موحدا لا يمكن الدفاع عنهما، وليست المسألة مجرد اختلاف ثقافات، وإن لم يكن هذا بالأمر الهين؛ فالمشكلة هي أن منطقة تجارة حرة في وسطها ثاني أكبر مُصدِّر في العالم - ألمانيا - يستغل منطقة التجارة الحرة لتحقيق استقرار اقتصاده هو، بينما يدمر قدرة شركائه على النمو اقتصاديًا. وهذه المشكلة، مقرونة بالبيروقراطية في بروكسل، والعملة المقصود بها أن تعزز مصالح شمال أوروبا، جعلت من الصعب

تخيل نجاة أوروبا، وواقع الأمر أنها ليست ناجية الآن. ومن المؤكد أنها ستستغرق وقتًا طويلاً كي تموت كمؤسسة، ولكن واقع أوروبا الذي جرى تخيله حتى قبل سنوات قليلة قد ولى، وكل ما بقي هو آلات أوروبا والمرارة.

تحدثت عن الصين باعتبارها دولة تواجه أزمة - وهي تعيش تلك الأزمة - ولكي تحول دون إفلاس الأعمال التجارية وتضخم صفوف العاطلين، تفرض البنوك الصينية المشروعات المتعثرة المال لسداد ديونها. ونتيجة ذلك هي زيادة كبيرة في التضخم، جعل العمالة الصينية أغلى من المكسيكية، وذلك يعني أن الصادرات التي تعتمد عليها الصين في إدارة اقتصادها إما أن تصبح غير قادرة على المنافسة، أو أن تنخفض الأرباح إلى نقطة الاختفاء؛ فالاقتصاد ينمو ولكن الربح يتدنّى، وهذا هو ما حدث في اليابان في عام 1990 وهو ما يحدث للصين. وكما كان الحال مع اليابان، فمزال الإعلام الغربي يحتفي بنجاح الصين.

ما زالت روسيا تزداد قوة باعتبارها الدولة الوحيدة، التي لا تعاني من أزمة مالية<sup>(\*)</sup>، بينما لا تزال تركيا تزيد وجودها ونفوذها في المنطقة. وكوّن الأوروبيون الغربيون جماعة معركة فيسيجراد، التي تضم بولندا وجمهورية التشيك وسلوفاكيا والمجر، وهو تحالف على الورق في هذه النقطة، بعيداً عن كونه قوة محاربة فعالة، غير أن هذه البلدان تتطلع إلى ما وراء الناتو من أجل أمنها.

ما لم تتنبأ به في هذا الكتاب هو الربيع العربي، وما كنت سأقوله هو أن الربيع العربي لم يحدث قط إلا في خيالات الغربيين، ولم يُسقط أي نظام سوى النظام (\*) يعاني الاقتصاد الروسي من الكساد منذ أوائل 2014، ويرجع ذلك بشكل رئيسي إلى أزمة القرم وإلى هروب رأس المال لاحقاً. ويشكّل انخفاض أسعار النفط، وفرض عقوبات اقتصادية بسبب الأزمة الأوكرانية العامل الرئيسي في الاقتصاد الروسي، ويعود التراجع الحاد في سعر الروبل - في الآونة الأخيرة، بالإضافة إلى ما سبق - إلى نزوح الأموال إلى خارج روسيا (المترجم).

الليبي، وكان ذلك فقط بسبب تدخل الناتو. ولم يكن سقوط مبارك سقوط نظام بل سقوط شخص؛ فقد حلت محله طغمة عسكرية تواصل الحكم العسكري، الذي أوجده جمال عبد الناصر في الخمسينيات. وفي هذه النقطة، لم يسقط أسد سوريا ولا أي من الأنظمة الأخرى. وما زالت حكومة البحرين في السلطة، حيث أبقى عليها القوات السعودية. إن الربيع العربي لم يحدث، فقد بدا فحسب أنه سيحدث، دون أن يتخذ شكلاً متماسكاً قط.

لا بد أن نتذكر دائماً أنه ليس بالضرورة أن تتسبب كل الاضطرابات في تشكيل الثورات، وليست كل الثورات ناجحة، وليست كل الثورات الناجحة تخلق ديمقراطيات دستورية. ومن المؤكد أنه كان هناك ديمقراطيون دستوريون وسط الحشود، ولكن بغض النظر عن عدد المرات التي أجرت فيها السي إن إن، أو البي بي سي لقاءات معهم، فهم لم يمثلوا الحشود كلها، التي كان الكثير ممن فيها ديمقراطيين، ولكنهم كانوا يريدون إقامة أنظمة إسلامية، وليس أنظمة ليبرالية، وفي النهاية اجتاحت الاضطرابات المنطقة. ولكن الأمر الأكثر لفتاً للانتباه هو قلة ما طرأ عليها من تغير؛ فالعالم العربي هو العالم العربي، وهو لا يتوق إلى إعادة تشكيله على هيئة أوروبا وأمريكا، كما أنه لم يكن كذلك.

كما قلت من قبل، فإن الولايات المتحدة في أفضل حالة لأي من القوى العظمى؛ إذ إنها على خلاف أوروبا، لا تؤدي مشكلاتها الاقتصادية إلى تحطيمها. وعلى عكس الصين، يمكن معالجة مشكلاتها الاقتصادية. ولا يعني هذا أن مشكلات الولايات المتحدة الاقتصادية ليست مؤلمة.

لا ينبغي كذلك القول بأن هذه الأزمات لم تخلق أزمة مؤسسية، أو بشكل أدق، إن الأزمة المؤسسية التي اجتاحت العالم لم تطل الولايات المتحدة. وكانت النتيجة الوحيدة الأهم للأزمة المالية العالمية، هي نقض مشروعية سلطة النخبة المالية، التي كان يُنظر إليها على أنها فاسدة وفتقر إلى الكفاءة في الوقت ذاته.

فقد تدخلت النخب السياسية لإحداث استقرار الموقف، وبعد أن فشلت في حل المشكلة نُقِضَتْ مشروعاتها هي نفسها.

الأزمة السياسية هي أن جماهير البلدان الكبرى لا تثق في النخب السياسية أو المالية. ونرى هذا في أوروبا والصين، ويمكن أن نرى هذا كذلك في الولايات المتحدة، عندما لا تتحدى الحركات في كل من اليمين واليسار مبادئ النظام بقدر تحديها للقيادة؛ فقد أثار حفل الشاي على اليمين واليسار الديمقراطي - بطرق مختلفة وبخطاب مختلف - مسألة ما إذا كانت النخبة تعرف ما تفعله أو ما تعمله من أجل المصلحة العامة.

عمَّق هذا أزمة الجمهورية في وقت حرج. وقد قلت في هذا الكتاب بأن الإمبراطورية تهدد الجمهورية، وأن أية أزمة ثقة في النخبة السياسية في هذه اللحظة مزعجة إلى حد كبير. والتوفيق بين الجمهورية والإمبراطورية في هذا العقد أمر مهم، وهو لن ينتظر؛ فالإمبراطورية في سبيلها لأن تكون عبئا على الجمهورية لا يمكن إدارته. ومع عدم الثقة المتزايد في النخبة السياسية، تقترب قدرتها على إدارة هذه المهمة الصعبة من المستحيل، على نحو غير عادي؛ فهي دون ثقة الجماهير مستحيلة.

هذه هي الأزمة التي تواجهها الولايات المتحدة؛ فهي تتعامل مع تناقض جوهري في النظام الحاكم والواقع، في وقت، يُنظر فيه نظرة سيئة إلى القادة. وهذه ظاهرة دولية واسعة الانتشار، ولكن الأزمة في الولايات المتحدة لها آثارها على العالم بسبب مركزية الولايات المتحدة بالنسبة للنظام العالمي، وأن ما يحدث في الولايات المتحدة لا يبقى تأثيره في الولايات المتحدة.

لقد أصبحت أكثر يأسًا في الشهور الماضية بشأن حل الأزمة؛ فنوعية الرئيس الذي نحتاجه ليست لها علاقة كبيرة بالأيديولوجيا، بل إن علاقتها أكبر بالاستعداد

لاستخدام القوة لتحقيق غايات أخلاقية. ومن الصعب أن تكون رئيسًا في ظل الظروف الحالية، ولكن الرؤساء يتغيرون أو يمكن إحلالهم. وفي أي من الحالتين، سوف يقع عبء إدارة الجمهورية الأساسي على عاتق الرئيس، ولن يتغير هذا كله في ذهني؛ فمن المؤكد أن هناك وقتًا، ولكن هناك القليل الثمين منه. فما العقد في عين التاريخ إلا كلمح البصر.



## مقدمة

### إعادة توازن أمريكا

القرن يتعلق بالأحداث، والعقد يتعلق بالناس

كتبت «المائة عام التالية» لاستكشاف القوى الموضوعية، التي تشكل التاريخ على المدى الطويل، ولكن البشر لا يعيشون على المدى الطويل. نحن نعيش فترة قصيرة من الزمن لا تشكل حياتنا فيها الاتجاهات التاريخية الشاسعة، وإنما تشكلها القرارات المحددة التي يتخذها أشخاص بعينهم.

ويتعلق هذا الكتاب بالمدى القصير للعشر سنوات المقبلة: الواقع المحدد الذي يجب مواجهته، والقرارات المحددة الواجب اتخاذها، والنتائج المحتملة لتلك القرارات. ويظن معظم الناس أنه كلما طال الإطار الزمني، ازدادت عدم القدرة على التنبؤ بالمستقبل. وأنا أرى عكس ذلك؛ فالأفعال الفردية هي أصعب ما يمكن التنبؤ به. وخلال قرن من الزمان تتخذ قرارات فردية كثيرة على نحو، لا يكون معه أي منها مهمًا في حد ذاته؛ فكل قرار يضع في دوامة الأحكام التي تشكل القرن. غير أنه في الإطار الأقصر مدى للعقد، يمكن للقرارات الفردية التي يتخذها أشخاص فرادى، خاصة هؤلاء ذوي السلطة السياسية، أن تكون على قدر هائل من الأهمية. وما كتبت في «الإمبراطورية والجمهورية في عالم متغير»، هو في إطار فهم هذا العقد، ولكنه الإطار فحسب.

التنبؤ بقرن من الزمان هو فن الاعتراف بالمستحيل، ثم حذف كل الأحداث التي لن تقع، من الناحية المنطقية على الأقل، من البحث. والسبب هو، كما يقول شيرلوك هولمز Sherlock Holmes، «عندما تحذف المستحيل، فلا بد أن ما يتبقى هو الحقيقة، مهما كانت غير محتملة».

من الممكن باستمرار أن يفعل القائد شيئاً غيبياً أو رائعاً على نحو غير متوقع، ولهذا فمن الأفضل ترك التنبؤ للمدى الطويل، وهو تلك الفترة من الزمن، التي لا تكون فيها للقرارات الفردية أهمية كبيرة. لكن بعد أن تتنبأ على المدى الطويل، يمكنك لف السيناريو الخاص بك ورؤية ما سيسفر عنه خلال عقد من الزمان على سبيل المثال. وما يجعل هذا الإطار الزمني مثيراً للانتباه، هو أنه من الطول بما يكفي لجعل القوى الأكبر المحايدة ساخنة، لكنه قصير بما يكفي لأن تغير القرارات الفردية للقادة الأفراد النتائج، التي يمكن أن تبدو حتمية لولا ذلك. والعقد هو النقطة التي يلتقى عندها التاريخ وفن إدارة الدولة، وهو فترة من الزمن تظل فيها السياسات مهمة.

لست في العادة الشخص الذي يتورط في الجدل السياسي؛ فاهتمامي بما سوف يحدث أكثر من اهتمامي بما أريد أن أراه يحدث. لكن خلال فترة العقد، تظل الأحداث التي لا تكون لها أهمية على المدى الطويل تؤثر علينا على نحو شخصي وعميق، كما أن لها معنى حقيقياً في تحديد أي السبل نسلك نحو المستقبل؛ ولذلك فإن هذا الكتاب تنبؤ بالسياسات التي يمكن اتباعها ومناقشة لها.

نبدأ بالولايات المتحدة للسبب نفسه الذي كان سيجعل أية دراسة في عام 1910 تبدأ ببريطانيا. وبغض النظر عما قد يدخره المستقبل، يدور النظام العالمي الآن حول الولايات المتحدة، تماماً كما كانت بريطانيا النقطة المحورية في السنوات السابقة للحرب العالمية الأولى. وفي «السنوات المائة التالية» كتبت عن قوة الولايات المتحدة طويلة المدى. وفي هذا الكتاب لا بد لي من الكتابة عن نقاط الضعف الأمريكية، التي أظن أنها ليست مشكلات على المدى الطويل؛ فسوف يتولى الزمن



أمر معظمها. ولكن لأننا - أنا وأنت - لا نعيش على المدى الطويل، فهذه المشكلات حقيقية جدًا بالنسبة لنا، فبعضها متجذر في الاختلافات البنيوية التي تتطلب حلولاً، وبعضها مشكلات قيادة، لأن القرن كما قلت من قبل يتعلق بالناس.

هذه المناقشة للمشكلات والناس ملحة إلى حد كبير في هذه اللحظة، ففي العقد الأول بعد أن أصبحت الولايات المتحدة القوة العالمية الوحيدة كان العالم ساكنًا نسبيًا مقارنةً بحقب أخرى. وفيما يتعلق بالقضايا الأمنية الحقيقية في رأي الولايات المتحدة، كانت بغداد ودول البلقان مصدر إزعاج وليس تهديدات، ولم تكن الولايات المتحدة بحاجة إلى استراتيجية في عام، بدا أنه قَبِل القيادة الأمريكية دون شكوى. وبعد عشر سنوات، قضى الحادي عشر من سبتمبر على هذا الوهم، فقد كان العالم أخطر مما تخيلنا، لكن الخيارات بدت أقل كذلك. ولم تُصغ الولايات المتحدة استراتيجية عالمية ردًا على ذلك. بل وضعت استراتيجية سياسية عسكرية، ذات مركز اهتمام ضيق، المقصود بها هزيمة الإرهاب، مستعدة كل ما عدا ذلك تقريبًا.

والآن ينتهي هذا العقد كذلك، ويجري البحث عن مخرج من العراق، ومن أفغانستان، بل ومن العالم، الذي بدأ عندما اصطدمت الطائرات المخطوفة بمبانٍ في نيويورك وواشنطن. ودافع الولايات المتحدة باستمرار هو الانسحاب من العالم، مستمتعة بمباهج الوطن الآمن الذي تحميه منطقة عازلة من المحيطات الواسعة على الجانبين. لكن الوطن ليس آمنًا، من الإرهابيين أو من الدول القومية الطموحة، التي ترى الولايات المتحدة على أنها خطيرة ولا يمكن التوقع بما تقوم به.

في عهدي الرئيس بوش Bush والرئيس أوباما Obama، فقدت الولايات المتحدة رؤية الاستراتيجية طويلة المدى التي خدمتها بشكل جيد معظم القرن الماضي. وبدلاً من ذلك انطلق الرؤساء الأخيرون في مغامرات عشوائية؛ إذ وضعوا أهدافًا لا يمكن تحقيقها، لأنهم تصوروا القضايا على نحو غير صحيح، وكانهم صدقوا خطابهم. ونتيجة لذلك، بالغت الولايات المتحدة في قدرتها على

مد نفوذها في أنحاء العالم، الأمر الذي سمح حتى للاعبين الصغار أن يكونوا الذليل الذي يحرك الكلب.

الضرورة الأكثر أهمية لسياسة أمريكية، في العقد المقبل، هي العودة إلى الاستراتيجية العالمية المتوازنة التي تعلمتها الولايات المتحدة من نموذج روما القديمة، ومن بريطانيا قبل مائة عام؛ فهؤلاء الإمبرياليون الممتنون إلى المدرسة القديمة لم يحكموا بالقوة الرئيسية. بل حافظوا على هيمنتهم بوضع لاعبين محليين، في مقابل بعض وإبقاء هؤلاء اللاعبين معارضين لآخرين يمكن أن يحرضوا على المقاومة. وقد حافظوا على توازن القوة باستخدام القوى المتعارضة؛ للقضاء على بعضهم البعض، بينما يضمنون مصالح الإمبراطورية الأوسع. كما أبقوا على ربط دولهم العميلة ببعضها بواسطة المصالح الاقتصادية والدبلوماسية، التي لا تعني المعاملات الروتينية بين الدول، بل التلاعب المتقن الذي يجعل الجيران والعملاء الزملاء لا يثقون في بعضهم على نحو يزيد على عدم ثقتهم في القوى الإمبريالية. وكان التدخل المباشر اعتمادًا على قوات الإمبراطورية هو الملاذ البعيد الأخير.

التزامًا بهذه الاستراتيجية، تدخلت الولايات المتحدة في الحرب العالمية الأولى فقط، عندما كان التوازن بين القوى الأوروبية ينهار، و فقط عندما بدا أن الألمان قد يكتسحون بالفعل الإنجليز والفرنسيين في الغرب، مع انهيار روسيا في الشرق. وعندما توقف القتال، ساعدت الولايات المتحدة في صياغة معاهدة سلام، منعت فرنسا من الهيمنة على أوروبا ما بعد الحرب.

أثناء الأيام الأولى من الحرب العالمية الثانية، نأت الولايات المتحدة بنفسها عن الاشتراك المباشر قدر الإمكان، حيث أيدت البريطانيين في جهودهم لصد الألمان في الغرب، بينما شجعت السوفيت على استنزاف الألمان في الشرق. وبعد ذلك وضعت الولايات المتحدة استراتيجية توازن قوى؛ لمنع الاتحاد السوفيتي من الهيمنة على شرق أوروبا والشرق الأوسط، والصين في نهاية الأمر. وطوال

تلك الفترة الزمنية الطويلة من الظهور الأول لـ«الستار الحديدي» حتى نهاية الحرب الباردة، كانت استراتيجية صرف الانتباه والمناورة الأمريكية هذه عقلانية ومتناسكة، وتتمسك بالمهارة على نحو فعال.

ومع ذلك، تحولت الولايات المتحدة عقب انهيار الاتحاد السوفيتي من الاستراتيجية التي تركز على محاولة احتواء القوى الكبرى، إلى محاولة بلا هدف محدد لاحتواء القوى الإقليمية المهيمنة المحتملة، عندما أضر سلوكها الحساسيات الأمريكية. وفي الفترة من 1991 إلى 2001، تدخلت الولايات المتحدة في خمسة بلدان، هي: الكويت والصومال وهايتي والبوسنة ويوغوسلافيا، وهو ما كان إيقاعا غير عادي للعمليات العسكرية. وفي بعض الأحيان بدأ أن الهموم الإنسانية تحرك الاستراتيجية الأمريكية، رغم أن الهدف كان واضحا باستمرار، فبأي معنى كان غزو هايتي في عام 1994، على سبيل المثال، في المصلحة القومية؟

لكن الولايات المتحدة كان لديها مخزون هائل من القوة في التسعينيات، وهو ما منحها مساحة فسيحة للمناورة، وكذلك مساحة للتمتع بنزواتها الأيديولوجية؛ فعندما تكون مهيمنًا بشكل ساحق، فإنك لا تضطر إلى العمل بدقة الجراح. ولم تكن الولايات المتحدة مضطرة للفوز، عندما كانت تتعامل مع الجهات الإقليمية المهيمنة المحتملة، بمعنى هزيمة جيش معاد واحتلال وطنه. ومن وجهة النظر العسكرية، كانت الغارات الأمريكية أثناء التسعينيات هجمات إجهادية، هدفها المباشر هو إغراق قوة إقليمية واعدة في الفوضى؛ لإجبارها على التعامل مع التهديدات الإقليمية والداخلية في الزمان والمكان الذي يختاره الأمريكيون، بدلاً من السماح لها بالتطور ومواجهة الولايات المتحدة حسب الجدول الزمني للدولة الصغرى.

بعد الحادي عشر من سبتمبر، أصبحت الولايات المتحدة، التي استبدت بها فكرة الإرهاب حديثاً، أكثر تشوشاً، حيث غابت عنها رؤية مبادئها الاستراتيجية طويلة المدى بالمرّة. وكبديل لذلك، خلقت هدفاً استراتيجياً جديداً، لكنه بعيد

المنال، وهو القضاء على تهديد الإرهاب. وكان المصدر الرئيسي لهذا التهديد - وهو القاعدة - قد جعل لنفسه هدفاً غير مرجح، ولكنه قابل للتصور، وهو إعادة الخلافة الإسلامية، تلك الدولة الدينية التي أقامها محمد (ﷺ) في القرن السابع الميلادي، وظلت قائمة - بشكل أو بآخر - حتى سقوط الدولة العثمانية مع انتهاء الحرب العالمية الأولى. وكانت استراتيجية القاعدة هي الإطاحة بالحكومات المسلمة، التي تعتبرها غير إسلامية على النحو الكافي، وهو ما سعت لتحقيقه بإثارة الانتفاضات الشعبية في تلك البلدان. ومن وجهة نظر القاعدة، فإن سبب استمرار خضوع الجماهير الإسلامية هو الخوف من حكوماتها، وهو ما كان يقوم بدوره على الإحساس بأن الولايات المتحدة، راعية حكوماتها، لا يمكن تحديها. ولتحرير الجماهير من ترهيبها، شعرت القاعدة بأنه يتعين عليها توضيح أن الولايات المتحدة ليست قوية كما تبدو؛ وأنها في واقع الأمر معرضة للخطر من جماعة صغيرة من المسلمين، شريطة أن يكون هؤلاء المسلمون مستعدين للموت.

عند الرد على هجمات القاعدة، اصطدمت الولايات المتحدة بالعالم العربي، خاصة في أفغانستان والعراق. وكان الهدف هو بيان القدرة الأمريكية على الوصول، ولكن هذه الجهود كانت كذلك هجمات إجهاضية. فلم يكن الهدف منها هزيمة الجيش واحتلال الأرض، بل مجرد تعطيل القاعدة وخلق فوضى في العالم الإسلامي. لكن خلق الفوضى تكتيك قصير المدى، وليس استراتيجية طويلة المدى؛ فقد أوضحت الولايات المتحدة أن بالإمكان تدمير التنظيمات الإرهابية وتخفيف حدة الإرهاب، ولكنها لم تحقق الهدف الذي أبرزته، وهو القضاء المبرم على التهديد؛ لأن ذلك كان يتطلب مراقبة الأنشطة الخاصة لأكثر من مليار شخص يتشرون في أنحاء الأرض، وحتى محاولة السعي لذلك كانت ستتطلب موارد هائلة. وبما أن النجاح في هذا المسعى مستحيل، فمن الواضح أن الولايات المتحدة كانت ستستنزف نفسها وتنفد

مواردها أثناء ذلك، كما حدث، لمجرد أن كون أمر مثل القضاء على الإرهاب مرغوبًا لا يعني أنه عملي، أو أن الثمن الذي يجب دفعه معقول.

سوف يستحوذ التعافي من إنهاك هذا المسعى وتشويشه على الولايات المتحدة على مدى العشر سنوات المقبلة، ولا بد أن تبدأ الخطوة الأولى: العودة إلى سياسة الحفاظ على توازن القوى الإقليمي، في المنطقة الرئيسية للاشتباك العسكري الأمريكي، وهي مسرح عمليات يمتد من البحر المتوسط إلى جبال هندكوش. وبالنسبة لمعظم نصف القرن المنصرم، كانت هناك ثلاثة توازنات قوى محلية، هي: العربي الإسرائيلي، والهندي الباكستاني، والإيراني العراقي. وبسبب السياسة الأمريكية إلى حد كبير، لم تعد هذه التوازنات مستقرة أو موجودة؛ فالإسرائيليون لم يعد جيرانهم يقيدونهم، وهم يحاولون الآن خلق واقع جديد على الأرض. والباكستانيون أضعفتهم الحرب في أفغانستان، ولم يعودوا ثقلاً مقابلًا فعالاً للهند. والأمر الأكثر أهمية، هو أن الدولة العراقية انهارت، تاركةً الإيرانيين كأشد القوى العسكرية بأسًا في منطقة الخليج الفارسي.

سوف تتطلب إعادة التوازن للمنطقة - ثم للسياسة الأمريكية بشكل أعم - خطوات خلال العقد المقبل، يُنظر إليها على أنها مثيرة للجدل، على أقل تقدير. وكما أقول في فصول الكتاب التالية، لا بد للولايات المتحدة من أن تتأى بنفسها في هدوء عن إسرائيل، ولا بد أن تقوي باكستان (أو على الأقل تضع حدًا لضعفها). وبروح وفاق روزفلت مع الاتحاد السوفيتي أثناء الحرب العالمية الثانية، وكذلك وفاق نيكسون مع الصين في السبعينيات، سوف يكون مطلوبًا من الولايات المتحدة عمل تسوية مقبولة مع إيران، بغض النظر عن مهاجمتها لمنشآت إيران النووية أو عدمها. وسوف تقتضي هذه الخطوات ممارسة للقوة أكثر إتقانًا مما رأيناه من جانب بعض الرؤساء الأخيرين. وطبيعة هذا الإنقاص هي ثاني أهم موضوع في العقد المقبل، وهو الموضوع الذي سأتناوله فيما بعد.

مع أن الشرق الأوسط هو نقطة البداية لعودة أمريكا إلى التوازن، فسوف تتطلب أوراسيا كلها كذلك إعادة ترتيب للعلاقات. فعلى مدى أجيال، كان إبقاء تقدم أوروبا التكنولوجي مفصولاً عن موارد روسيا الطبيعية وقوتها العاملة أحد أهداف السياسة الخارجية الأمريكية. وفي أوائل التسعينيات، عندما كانت الولايات المتحدة هي الأعظم وفقدت موسكو سيطرتها، ليست فقط على الاتحاد السوفيتي السابق، وإنما على الدولة الروسية كذلك، كان ذلك الهدف مهملاً. وعقب الحادي عشر من سبتمبر عام 2001 مباشرة تقريباً، خلق التزام القوى الأمريكية غير المتوازن بمسرح العمليات، الذي يمتد من المتوسط إلى جبال الهيمالايا، فرصة سانحة لجهاز الأمن الروسي كي يستعيد نفوذه. ففي عهد بوتين Putin، بدأ الروس فرض أنفسهم من جديد حتى قبل الحرب مع جورجيا، وسرعوا عملية إعادة ظهورهم منذ ذلك الحين. أما الولايات المتحدة، التي انصرف انتباهها بما تقيدت به في العراق وأفغانستان، فكانت عاجزة عن كبح جماح استعادة موسكو لنفوذها، أو حتى توجيه تهديدات معقولة لإعاقة الطموحات الروسية. ونتيجة لذلك تواجه الولايات المتحدة الآن قوة إقليمية كبيرة، لها أجنحتها المختلفة، التي من بينها السعي لأن يكون لها نفوذ في أوروبا.

سوف يصبح خطر ظهور روسيا من جديد وتركيز الاهتمام غرباً أكثر وضوحاً، ونحن نختبر اللاعب الآخر في منطقة الاهتمام الثانية هذه، وهو الاتحاد الأوروبي. وقد بدأ الاتحاد الأوروبي، الذي جرى تخيله ذات مرة على أنه دولة فائقة على غرار الولايات المتحدة الأمريكية، يكشف نقاط ضعفه البنيوية أثناء أزمة 2008 المالية، التي أدت إلى أزمة اقتصادات جنوب أوروبا الناجمة عنها (إيطاليا وإسبانيا والبرتغال واليونان). وما إن واجهت ألمانيا، محرك الاتحاد الأوروبي الاقتصادي الأكبر، توفُّع تولي مسئولية أخطاء شركائها في الاتحاد الأوروبي وتجاوزاتهم، حتى بدأت إعادة بحث أولوياتها. والنتيجة التي ظهرت هي أنه من المحتمل أن

تشارك ألمانيا في مصالح مع روسيا، أكثر مما عليه الحال مع جاراتها الأوروبية. ومع ذلك فمهما كان قدر ما يمكن أن تستفيده ألمانيا من التحالفات الاقتصادية في أوروبا، فإنها مازالت تعتمد على روسيا فيما يتعلق بكميات الغاز الطبيعي الكبيرة لديها. وبالمثل، نحتاج ألمانيا إلى إدخال قوة عاملة لا تخلق ضغوطاً اجتماعية بالهجرة إلى ألمانيا، وأحد الحلول الواضحة هو إقامة مصانع ألمانية في روسيا. وفي الوقت نفسه، خلق الطلب الأمريكي بزيادة المساعدات الألمانية في أفغانستان وأماكن أخرى احتكاكاً مع الولايات المتحدة، وأدى إلى انحياز المصالح الألمانية على نحو أوثق ما يكون إلى روسيا.

هذا كله يساعد على تفسير السبب في أن عودة الولايات المتحدة إلى التوازن سوف تتطلب جهداً كبيراً على مدى السنوات العشر المقبلة لصياغة تسوية بين ألمانيا وروسيا. وكما سنرى، سوف تشمل المقاربة الأمريكية تنمية علاقة جديدة مع بولندا العائق الجغرافي، الذي يمكن أن يحبط أي وفاق ألماني روسي.

وبالطبع تقتضي الصين أيضاً الاهتمام. ومع ذلك، فإن الانشغال الحالي بالتوسع الصيني سوف يتضاءل، عندما يكتمل نمو المعجزة الاقتصادية لهذا البلد؛ إذ إنه سوف يبطئ أداء الصين الاقتصادي إلى حد أداء الاقتصاد الأكثر نضجاً. ويمكن أن نضيف الاقتصاد الأكثر نضجاً بما فيه من أكثر مليار شخص في فقر شديد، وسوف ينتقل تركيز الجهود الأمريكية إلى القوة الحقيقية في شمال شرق آسيا؛ أي اليابان التي هي ثالث أكبر اقتصاد في العالم والدولة صاحبة أهم أسطول بحري في المنطقة.

كما يشير هذا العرض الموجز، العشر سنوات التالية إلى أن سوف تكون معقدة بشكل هائل، مع وجود أجزاء كثيرة متحركة وعناصر كثيرة، لا يمكن التهنك بها، وسوف يتعين على الرؤساء في العقد المقبل التوفيق بين التقاليد والمبادئ الأخلاقية الأمريكية. والواقع الذي يرى معظم الأمريكيين أن تحاشيه أمر أكثر راحة؛ مما يتطلب تنفيذ مناورات ملحة تشمل التحالف مع الأعداء، مع الإبقاء على

وحدة الجمهور الذي يعتقد - ويريد أن يعتقد - أن السياسة الخارجية والقيم تتوافق ببساطة بعضها بعضاً، كما سيتعين على الرئيس أن يسعى لتحقيق الفضيلة، كما فعل كل رؤسائنا العظام: بالخداع المناسب.

لكن كل المهارة التي في العالم لا يمكنها تعويض الضعف الشديد؛ فالولايات المتحدة تملك ما أسميه «القوة العميقة»، ولا بد لهذه القوة أن تكون أولاً وقبل كل شيء قوة متوازنة. ويعني هذا القوة الاقتصادية والعسكرية والسياسية بكميات مناسبة وداعمة لبعضها، وهي عميقة من ناحية أخرى؛ حيث تقوم على أساس من المعايير الثقافية والأخلاقية، التي تحدد كيفية استخدام القوة وتوفير إطاراً للعمل الفردي. فأوروبا، على سبيل المثال، لديها قوة اقتصادية، ولكنها ضعيفة من الناحية العسكرية، وتقوم على أساس شديد الضحالة. وهناك إجماع ضعيف في أوروبا من الناحية السياسية؛ خاصةً فيما يتعلق بإطار الالتزامات المفروضة على أعضائها.

القوة الراسخة بشدة وجيدة التوازن نادرة، وسوف أحاول بيان أنه في العقد المقبل ستكون الولايات المتحدة في وضع فريد يمكنها من ترسيخ كليهما وممارستهما، والأهم أنه لن يكون أمامها اختيار كبير في هذا الأمر. وهناك فكرة، عند اليمين واليسار، مفادها أن الولايات المتحدة لديها خيار الانسحاب من تعقيدات إدارة القوة العالمية. وهناك اعتقاد بأنه إذا توقفت الولايات المتحدة عن التوسط في شؤون العالم، فلن يعود العالم يكرهها أو يخافها، ويمكن للأمريكيين التمتع بمباهجهم دون خوف من الهجوم، وهذا الاعتقاد يشكل حنيناً إلى الماضي، عندما كانت الولايات المتحدة تسعى إلى تحقيق مصالحها في الداخل، وترك العالم يسير سيرته.

كان هناك - في واقع الأمر - وقت استطاع فيه توماس جيفرسون Thomas Jefferson التحذير من التحالفات الخائفة، ولكن هذا لم يكن الوقت الذي تنتج فيه الولايات المتحدة 25 بالمائة من ثروة العالم. وهذا الناتج وحده يوقعها في شرك شؤون العالم، ويشكل ما تنتجه الولايات المتحدة وتستهلكه حياة الناس



في أنحاء العالم. وتشكل السياسات الاقتصادية التي تسعى الولايات المتحدة إلى تحقيقها واقع العالم الاقتصادي. وتضمن سيطرة البحرية الأمريكية على البحار قدرة الولايات المتحدة الاقتصادية على الوصول إلى العالم، ويمنحها القدرة على حرمان البلدان الأخرى من هذه القدرة على الوصول. وحتى إذا أرادت الولايات المتحدة تقليص اقتصادها إلى حجم أقل إزعاجًا، فليس واضحًا كيفية إحداث ذلك، ناهيك عن أن الأمريكيين سوف يدفعون الثمن عند تقديم الفاتورة.

ولكن هذا لا يعني أن الولايات المتحدة مرتاحة بقوتها، فقد تحركت الأمور بسرعة أكبر من اللازم، وهذا هو السبب في أن إعادة السياسة الأمريكية إلى التوازن سوف يتطلب كذلك إجبار الولايات المتحدة على قبول موقعها الفعلي في العالم. ولقد أشرنا من قبل إلى أن سقوط الاتحاد السوفيتي ترك الولايات المتحدة دون منافس على الهيمنة العالمية، وما لا بد من مواجهته على نحو صريح، هو أنه سواء أردنا أم لم نرد، وسواء أكان ذلك متعمدًا أم لا، فقد خرجت الولايات المتحدة من الحرب الباردة، ليس باعتبارها المهيمن العالمي فحسب، بل باعتبارها كذلك الإمبراطورية العالمية.

الواقع هو أن الأمريكيين ليست لديهم رغبة في الإمبراطورية. ولا يعني هذا القول بأنهم لا يريدون المنافع، الاقتصادية والاستراتيجية؛ بل يعني ببساطة أنهم لا يريدون دفع الثمن. فمن الناحية الاقتصادية، يريد الأمريكيون من النمو المتوقع أن يفتح الأسواق وليس الآلام.. ومن الناحية السياسية، يريدون أن يكون لهم نفوذ هائل وليس استياء العالم.. ومن الناحية العسكرية، يريدون أن يكونوا محميين من الأخطار، وليس تحمل أعباء الاستراتيجية طويلة المدى.

نادرًا ما تكون الإمبراطوريات مخططة أو متعمدة، وتلك التي كانت كذلك، كإمبراطوريتي نابليون Napoleon وهتلر Hitler، لم تدم. أما تلك التي تصمد فتتمو

نموًا عضويًا، وغالبًا ما يمضي وضعها الإمبراطوري غير ملحوظ إلى أن يعظم حجمها. وكان ذلك هو حال الإمبراطورية الرومانية وبريطانيا، غير أنهما نجحتا؛ لأنهما ما إن بلغتا الوضع الإمبراطوري لم تقرا بذلك فحسب، بل تعلمتا كيف تديران هذا الوضع.

البنية الأمريكية للهيمنة، على عكس الإمبراطورية الرومانية أو البريطانية، غير رسمية، ولكن هذا لا يقلل من كونها واقعا؛ فالولايات المتحدة تسيطر على المحيطات، واقتصادها مستوول عن ربع كل شيء متّج في العالم. وإذا بنى الأمريكيون الأيود أو صيحة غذائية جديدة، فإن المصانع والمزارع في الصين وأمريكا اللاتينية تعيد تنظيم نفسها لخدمة الأمر الجديد. وهذه هي الطريقة، التي حكمت بها القوى الأوروبية الصين في القرن التاسع عشر، ليس بشكل رسمي قط، بل بتشكيلها واستغلالها إلى حد أن التمييز بين الرسمي وغير الرسمي لم يكن مهتمًا.

الحقيقة التي يجد الأمريكيون صعوبة في استيعابها، هي أن حجم الإمبراطورية الأمريكية وقوتها مزعجان ومثيران للمشكلات بطبعهما، وهو ما يعني أن الولايات المتحدة نادرًا ما تتخذ خطوة دون تهديد دولة ما أو إفادة أخرى. وبينما تجلب هذه القوة مزايا اقتصادية هائلة، فمن الطبيعي أن تخلق العداة؛ فالولايات المتحدة جمهورية تجارية، وهو ما يعني أنها تعيش على التجارة، وينبع رخاؤها الهائل من أصولها ومزايها، غير أنه لا يمكنها الحفاظ على هذا الرخاء وهي منعزلة عن العالم. ولهذا السبب، فإنه إذا كانت الولايات المتحدة تعتمزم الاحتفاظ بحجمها وثرورها وقوتها، فإن الخيار الوحيد هو تعلم كيفية إدارة نفوذها المزعج بطريقة ناضجة.

والى أن يتم الاعتراف بالإمبراطورية على ما هي عليه، فإنه من الصعب أن تكون هناك مناقشة عامة لفائدتها وإيلامها، وفوق هذا وذاك حتميتها. والقوة التي لا منافس لها خطيرة إلى حد كبير، ولكن القوة التي لا منافس لها ولا تعي ما يجري حولها ولا تكترث له أشبه بالفيل الهائج.

سوف أقول إذا إن العقد المقبل لابد أن يكون عقدًا، تنتقل فيه الولايات المتحدة من الجهل المتعمد بالواقع إلى قبوله، وإن كان على مضمض. وستأتي مع هذا القبول بداية سياسية خارجية أكثر تقدمًا، ولن يكون هناك إعلان للإمبراطورية، بل فقط إدارة أكثر فاعلية، تقوم على الحقيقة الأساسية للوضع.



## الفصل الأول

### الإمبراطورية غير المتعمدة

الرئيس الأمريكي أهم قائد سياسي في العالم. والسبب بسيط؛ فهو يحكم دولة تشكل سياساتها الاقتصادية والعسكرية حياة الناس في كل بلد، في كل قارة. والرئيس الأمريكي يمكنه أن يأمر بالغزو والحظر والعقوبات، وهو يفعل ذلك، وسوف يكون للسياسات الاقتصادية التي يضعها أصدًاؤها على مليارات الأنفس، وربما على مدى أجيال عديدة. وخلال العقد المقبل، غالبًا ما سوف تؤثر هوية الرئيس، وماذا سيفعل (أو تفعل) على حياة غير الأمريكيين، أكثر من قرارات حكوماتهم.

اتضح لي هذا الأمر عشية آخر انتخابات رئاسية أمريكية، عندما حاولت الاتصال تليفونيًا بإحدى العاملات معي في بروكسل، ووصلت إليها في باريزخر بالبلجيكيين المحتفلين بانتصار باراك أوباما Barack Obama. وبعد ذلك وجدت أن حفلات أوباما جرت في عشرات المدن في أنحاء العالم؛ إذ بدا أن الناس في كل مكان شعروا بأن نتيجة الانتخابات الأمريكية تهمهم إلى حد كبير، وبدا كثيرون متأثرين شخصيًا بوصول أوباما إلى السلطة.

قبل نهاية فترة ولاية أوباما الأولى، منحه خمسة ساسة نرويجيون جائزة نوبل للسلام، مع استياء كثيرين، رأوا أنه لم يفعل أي شيء بعد يُكسبه إياها. غير أنه طبقًا لما قاله رئيس اللجنة، فقد غير أوباما تصور العالم للولايات المتحدة على

نحو فوري وكبير، وهذا التغيير وحده يستحق الجائزة. وكان جورج دابليو بوش مكروها؛ لأنه كان يُنظر إليه على أنه فتوة إمبريالي.

ومن لجنة جائزة نوبل إلى بارات سنغافورة وساو باولو، فإن ما كان معترفاً به عن غير قصد هو تفرد الرئاسة الأمريكية نفسه، وكذلك الواقع الجديد الذي يتردد الأمريكان في الاعتراف به؛ إذ كان النظام الحاكم الأمريكي مهمًا إلى حد كبير للنرويجيين وللبلجيكيين وللبولنديين وللتشيليين ولمليارات الناس في أنحاء المعمورة، لأن الرئيس الأمريكي الآن يقوم في بعض الأحيان بالدور المرهق (ولا يُذكر ذلك صراحة أبدًا) للإمبراطور العالمي، وهو الواقع الذي سوف يكافحه العالم، والرئيس في العقد المقبل.

### الإمبراطور الأمريكي

لا ينبع وَضْعُ الرئيس الأمريكي ونفوذه الفريدان من الغزو أو التخطيط أو الرسامة المقدسة، بل هو في واقع الأمر نتيجة لكون الولايات المتحدة القوة العسكرية العالمية الوحيدة في العالم. كما أن الاقتصاد الأمريكي يزيد حجمه بمقدار ثلاث مرات عن أكبر اقتصاد سيادي تالٍ له، ويمنح هذا الواقع الولايات المتحدة القوة التي لا تتناسب مع عدد سكانها أو حجمها، وكذلك مع ما يمكن أن يعتبره كثيرون عادلاً أو معقولاً. لكن الولايات المتحدة لم تتعمد أن تصير إمبراطورية، بل كان هذا الترتيب غير المقصود نتيجة أحداث، القليل منها كان تحت سيطرة أمريكا.

من المؤكد أنه كان هناك كلام عن الإمبراطورية قبل هذا، فقيما بين «المصير الواضح»<sup>(\*)</sup> والحرب الأمريكية الإسبانية، كان القرن التاسع عشر زاخراً برؤى الإمبراطورية، التي كانت متواضعة على نحو ملحوظ مقارنةً بما نشأ؛ فالإمبراطورية

(\*) مصطلح خاص بالموقف الذي ساد في تلك الفترة من التوسع في القرن التاسع عشر، وهو أن الولايات المتحدة ليس بإمكانها التوسع فحسب، بل إنه مُقَدَّر لها التوسع من الساحل إلى الساحل. (المترجم)

التي أتحدث عنها ليس لها علاقة كبيرة بتلك الأفكار المبكرة، بل إن ما أقوله هو أن أحدث نسخة ظهرت دون تخطيط أو قصد.

منذ الحرب العالمية الثانية حتى انتهاء الحرب الباردة، تحركت الولايات المتحدة ببطء وحذر نحو التفوق، ولكن التفوق لم يتحقق حتى عام 1991، عندما انهار الاتحاد السوفيتي تاركًا الولايات المتحدة كيأنا ضخمًا بلا ثقل موازن له.

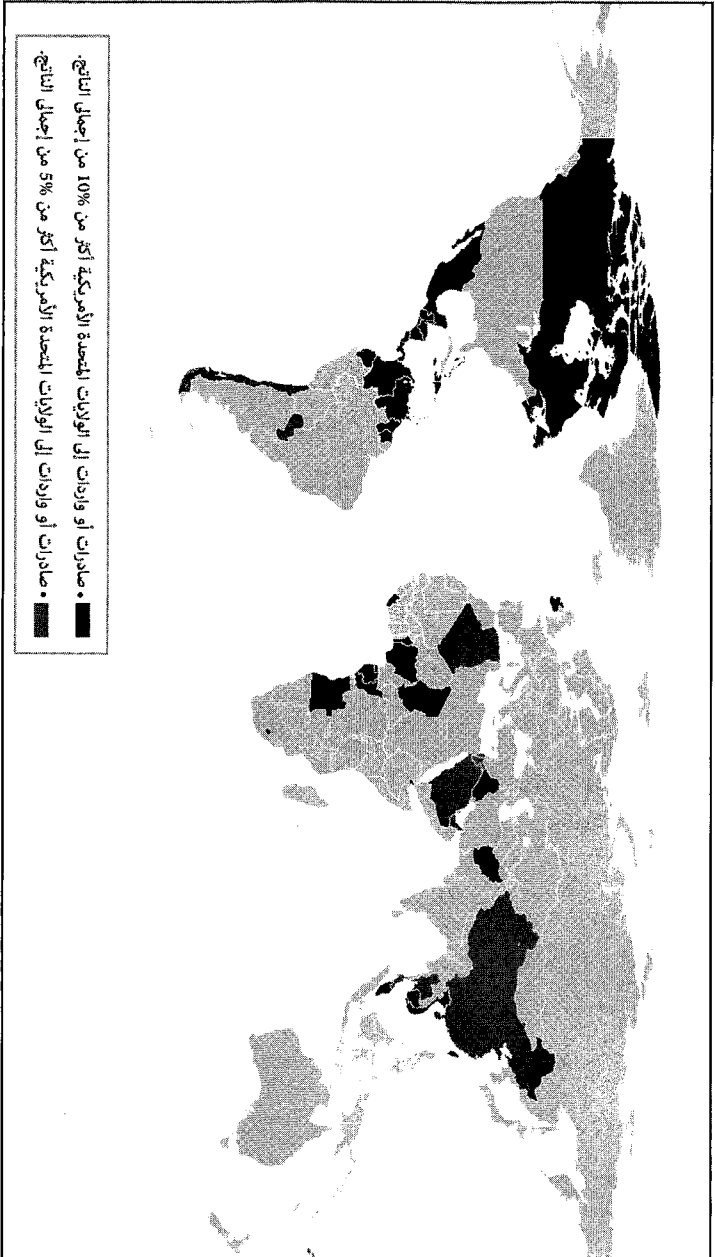
في عام 1796 ألقى واشنطن Washington خطاب وداعه، وأعلن هذا المبدأ: «قاعدة السلوك الكبرى بالنسبة لنا فيما يتعلق بالدول الأجنبية، هي في توسيع علاقاتنا التجارية، لتكون لنا معها صلة سياسية قليلة قدر الإمكان.» كان لدى الولايات المتحدة خيار الابتعاد عن العالم في ذلك الحين؛ فقد كانت بلدًا صغيرًا معزولًا جغرافيًا. وفي الوقت الراهن - وبغض النظر عن مقدار ما يمكن أن يتمناه سائر العالم أن نكون عليه من إزعاج أقل أو مقدار إغراء التوقع، الذي قد يبدو للأمريكيين - كان من المستحيل فحسب لدولة اقتصادها على قدر كبير من الاتساع أن تكون لها علاقات تجارية دون تعقيدات أو نتائج سياسية. وكان دافع واشنطن المناوئ للسياسة يناسب المؤسس الإمبريالي للجمهورية، ومن المفارقة أن النجاح غير العادي للجمهورية جعل تلك الرؤية مستحيلة.

الاقتصاد الأمريكي أشبه بالدوامة، حيث يسحب كل شيء إلى داخله، مع وجود دوامات غير ملحوظة، يمكن أن تدمر البلدان الصغيرة أو تترهبها. وعندما يكون أداء الاقتصاد الأمريكي جيدًا، يكون المحرك الذي يدير الآلة كلها حينئذ جيدًا. وعندما «يتعثر»، فإنه يمكن أن تتعطل الآلة كلها. ليس هناك اقتصاد يمكن أن يؤثر وحده على العالم بهذا العمق، أو يربطه ببعضه على هذا النحو من الفاعلية.

عندما ننظر إلى العالم من وجهة نظر الصادرات والواردات، يذهلنا عدد البلدان التي تعتمد على الولايات المتحدة في 5 أو حتى 10 بالمائة من إجمالي ناتجها

القومي، وهذا قدر هائل من الاعتماد المتبادل. ومع أن هناك علاقات اقتصادية ثنائية، بل وعلاقات اقتصادية متعددة الأطراف، لا تشمل الولايات المتحدة، فليست هناك علاقات اقتصادية لا تتأثر بالولايات المتحدة. فالكل يراقب ويتنظر؛ كي يرى ما سوف تفعله الولايات المتحدة، والكل يحاول تشكيل السلوك الأمريكي - ولو بشكل قليل - كي يفوز بميزة ما أو يتجنب خسارة ما.





(خريطة) العلاقات التجارية الأمريكية الرئيسية

من الناحية التاريخية، أشارت هذه الدرجة من الاعتماد المتبادل الاحتكاك، بل والحرب. ففي القرنين التاسع عشر والعشرين، كانت كل من فرنسا وألمانيا تخشى بأس الأخرى، ولذلك حاولت كل منهما تشكيل سلوك الأخرى. وكانت النتيجة أن دخل هذان البلدان في حرب مع بعضهما ثلاث مرات خلال سبعين عامًا. وقبل الحرب العالمية الأولى، كتب الصحفي الإنجليزي (وعضو البرلمان فيما بعد) نورمان أنجل Norman Angell كتابًا كان مقروءًا على نطاق واسع، بعنوان The Great Illusion (الوهم الكبير)، عرض فيه الدرجة العالية من الاعتماد المتبادل في أوروبا وأكد أن هذا جعل الحرب مستحيلة، ومن الواضح أن الحريين العالميتين الأولى والثانية أثبتتا أن الحال ليست كذلك، وما زال المدافعون عن التجارة الحرة يستخدمون هذه الحجة. ومع ذلك - وكما سنرى - فإن الدرجة العالية من الاعتماد المتبادل - مع وجود الولايات المتحدة في المركز - تزيد خطر الحرب بدلا من أن تنقسه.

إن كون العالم لم يعد زاخرًا بالقوى المتكافئة نسبيًا، التي سهّل إغراؤها بالدخول في مغامرات عسكرية يحد من هذا الخطر إلى حد ما. ومن المؤكد أن هيمنة القوة العسكرية الأمريكية من القوة، بحيث لا يأمل بلد في استخدام القوة الأساسية لإعادة تعريف علاقته مع الولايات المتحدة بشكل أساسي، غير أننا نرى - في الوقت نفسه - أن مقاومة القوة الأمريكية كبيرة، وأن الحروب متكررة منذ عام 1991.

مع إمكانية أن تقل درجة القوة الإمبريالية لأمريكا، فإن القوة التي بهذا الحجم لاتنتهر بسرعة إلا من خلال الحرب، فقد انهارت القوى الألمانية واليابانية والفرنسية والبريطانية ليس بسبب الدّين، وإنما بسبب الحروب التي دمرت اقتصاديات تلك البلدان؛ مما أسفر عن الدّين باعتباره أحد آثار الحرب الجانبية. وتعود جذور «الكساد العظيم»، الذي اجتاح العالم في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، إلى دمار الاقتصاد الألماني؛ نتيجة للحرب العالمية الأولى، وانقطاع العلاقات التجارية، الذي انتشر في النهاية ليشمل العالم. وفي المقابل، نتج الرخاء

الكبير الخاص بالتحالف الأمريكي بعد عام 1950 عن القوة الاقتصادية، التي أقامتها الولايات المتحدة - دون أن يمسه ضرر - أثناء الحرب العالمية الثانية.

في غياب الحرب المدمرة الكبيرة، فإن أي إعادة اصطفاف للنموذج الدولي تقوم على الاقتصاد سوف تكون عملية تستغرق أجيالاً، هذا إن تمت أصلاً. ويُقال إن الصين هي القوة القادمة، وربما يكون الأمر كذلك. لكن الاقتصاد الأمريكي أكبر من الاقتصاد الصيني بـ 3,3 مرة، ولا بد للصين من استدامة معدل النمو المرتفع بشكل غير عادي زمنًا طويلاً؛ كي تسد الفجوة التي بينها وبين الولايات المتحدة. ففي عام 2009، كانت الولايات المتحدة مسؤولة عن 22,5 بالمائة من كل الاستثمار المباشر الأجنبي في العالم، وهو ما يجعلها - طبقاً لما ذكره مجلس التجارة والتنمية التابع للأمم المتحدة - مصدر الاستثمار الأكبر الوحيد في العالم - وكانت الصين في المقابل مسؤولة عن 4,4 بالمائة.

ربما تكون الولايات المتحدة كذلك أكبر مقترض في العالم، ولكن المديونية لا تنتقص من قدرتها على التأثير على النظام الدولي. وسواء توقفت عن الاقتراض، أو زادت، أو قللت منه، فالاقتصاد الأمريكي يشكل الأسواق العالمية باستمرار؛ ذلك أن المهم هو القدرة على التشكيل. وبالطبع، لا بد أن نتذكر كذلك أن كل دولار تقترضه الولايات المتحدة يقترضه آخرون. وإذا كان لا بد من الثقة في السوق، فهي تقول إن إقراض الولايات المتحدة، حتى وإن كان بسعر فائدة منخفض حالياً، فهو تحرك جيد.

بلدان كثيرة لها آثار على بلدان أخرى. وما يجعل الولايات المتحدة إمبراطورية هو عدد البلدان التي تؤثر عليها، وكثافة التأثير، وعدد الناس في تلك البلدان، التي تؤثر عليها هذه العمليات والقرارات الاقتصادية.

في السنوات الأخيرة، كانت للولايات المتحدة شهية متزايدة للجمبري. وجعلت هذه الموجة في السوق الأمريكية مزارعي الأسماك في دلتا الميكونج يعدلون إنتاجهم لتلبية الطلب الجديد. وعندما تدهور الاقتصاد الأمريكي في عام

2008، كانت الأطعمة الكمالية كالجمبري أول ما جرى تخفيضه، وهو التخفيض الذي بلغ الشعور به تلك مزارع الأسماك في دلتا الميكونج. وفي أعقاب نمط مشابه، أقامت دل Dell لصناعة الكمبيوتر منشأة كبيرة في أيرلندا، ولكن عندما ارتفعت تكلفة العمالة هناك، نقلت دل عملياتها إلى بولندا، مع أن ذلك كان في وقت تعاني فيه أيرلندا من ضغط اقتصادي حاد. وبالمثل، تشكل بلدان أخرى الولايات المتحدة، كما كان الحال مع بريطانيا وروما، ولكن الولايات المتحدة في مركز الشبكة، وليس على الهامش، واقتصادها يضخم جيشها، بالإضافة إلى الميزة التكنولوجية، حيث يمكننا رؤية بنية قوة أمريكا العميقة.

يمكن أن تكون الإمبراطوريات رسمية، مع وجود بنية واضحة للسلطة، ولكن بعض هذه الإمبراطوريات يمكن أن يكون أقل وضوحاً وأكثر تعقيداً؛ فقد سيطرت بريطانيا-مثلاً- على مصر، إلا أن سلطة بريطانيا الرسمية كانت أقل وضوحاً. ولدى الولايات المتحدة القدرة على تشكيل مسار بلدان كثيرة، ولكن لأنها ترفض التفكير في نفسها على أنها قوة إمبريالية، فإنها لم تخلق بنية عقلانية رسمية لإدارة القوة التي تمتلكها بوضوح.

حقيقة أن الولايات المتحدة واجهت انتكاسات في الشرق الأوسط، لا تقوض بحال من الأحوال مقولة إنها إمبراطورية، وإن كانت إمبراطورية غير ناضجة؛ فالفشل والإمبراطورية ليسا غير متوافقين، وأثناء النمو والتوسع الإمبراطوري، لا تعد الكوارث نادرة؛ إذ فقدت بريطانيا معظم مستوطناتها الأمريكية الشمالية لمصلحة التمرد، قبل أن تصل الإمبراطورية إلى ذروتها، وواجه الرومان الحروب الأهلية في دورات متكررة.

ومع أن جوهر القوة الأمريكية اقتصادي - وإن بدا متضرراً في الوقت الراهن - فإنه يقف وراء هذه القوة الاقتصادية بأس قوة عسكرية. والغرض من الجيش الأمريكي هو منع أية دولة أزعجها النفوذ الاقتصادي الأمريكي - أو أي تحالف

لذلك الدول - من استخدام القوة لتعديل الظروف التي أضرتها. وكشأن فيالق روما، يتم نشر القوات الأمريكية على نحو استباقي في أنحاء العالم، فقط لأن أكثر طرق استخدام القوات العسكرية كفاءة، هو تعطيل القوى الناشئة، قبل حتى أن تصبح مهددة على نحو هامشي.

الواقع أن الخريطة التالية تهوّن بشكل كبير من قدر الوجود العسكري الأمريكي؛ إذ إنها على سبيل المثال لا تتبع فرق العمليات الخاصة الأمريكية، التي تعمل بشكل سري في مناطق كثيرة، وبشكل خاص في إفريقيا، كما أنها لا تشمل مهام التدريب والدعم الفني والوظائف المشابهة. وتخوض بعض القوات الأمريكية الحروب، ويكافح بعضها المخدرات، ويحمي بعضها البلدان المضيفة من الهجمات المحتملة، ويستخدم بعضها البلدان المضيفة كمناطق للتجمع، تحسبًا لاحتياج القوات الأمريكية في بلد آخر قريب. وفي بعض الأحيان، تساعد هذه القوات في دعم الأمريكيين المشاركين في إدارة البلد، بشكل مباشر أو غير مباشر، وفي حالات أخرى، تكون القوات موجودة فحسب، دون أن تتحكم في شيء. ولا تتواجد القوات المتمركزة في الولايات المتحدة لحماية الوطن، بقدر ما هي متاحة؛ من أجل ما يسميه الجيش القدرة على الانتشار السريع، وهذا يعني أن تكون جاهزة للخدمة في أي مكان، يرى الرئيس أن من المناسب نشرها فيه.



(خريطة) بلدان بها تواجد عسكري أمريكي (حتى 31 ديسمبر 2007 ولا تشمل النشر السري)

المصدر: STRATFORD، International Institute of Strategic Studies، Department of Defence

على النحو الذي يتلاءم مع الإمبراطورية، ترتب الولايات المتحدة نظامها الاقتصادي ونظامها العسكري على نحو يجعله ضامناً للاقتصاد العالمي. وفي الوقت ذاته، توفر الولايات المتحدة التكنولوجيات وغيرها من السلع والخدمات، والسوق الضخمة التي تبيعها فيها، والقوات المسلحة التي تبقي على الطرق البحرية مفتوحة. وإذا اقتضى الأمر، تتحرك هذه القوات لحفظ النظام في المناطق الجامحة، ولكنها تفعل ذلك؛ ليس من أجل منفعة بلدان أخرى، بل من أجل نفسها. وفي النهاية، تجعل قوة الاقتصاد الأمريكي وتوزيع القوة العسكرية الأمريكية التحالف مع الولايات المتحدة ضرورة بالنسبة لبلدان كثيرة، وهذه الضرورة تربط البلدان بالولايات المتحدة على نحو أقوى، مما يأمل أي نظام إمبراطوري رسمي تحقيقه.

عادة ما يتم إدراك الإمبراطوريات؛ أي النتيجة غير المتعمدة للقوة المتركمة؛ من أجل غايات بعيدة عن أحلام الإمبراطورية، بعد فترة طويلة من ظهورها. وعندما تصبح هذه الإمبراطوريات واعية بحالتها، تستخدم قوة دفعها كي تتوسع عمداً، وهو ما يضيف أيديولوجيا الإمبريالية. ولنفكر في السلام الروماني Pax Romana و«عبء الرجل الأبيض» الخاص بالإمبراطورية البريطانية. إلى واقع الإمبراطورية. وتحصل الإمبراطورية على كُتَّاب مثل فيرجيل Virgil وشعراء مثل روديارد كيبلنج Rudyard Kipling، بعد أن تكون قد ترسخت، وليس قبل ذلك. وكما هو الحال في كل من روما وبريطانيا، يتعاشي المحترفون بالإمبراطورية الأمريكية مع هؤلاء الذين تخيفهم، ويتوقون إلى الأيام السابقة الأكثر أصالة.

وقعت روما وبريطانيا في شرك عالم الإمبراطورية ولكنها تعلمتا الاحتفاء بالشَّرك. أما الولايات المتحدة، فما زالت عند النقطة التي ترفض فيها رؤية الإمبراطورية التي صارت إليها، وعندما تشعر بمظاهر الإمبراطورية فإنها تثير النفور. لكن الوقت قد حان للاعتراف بأن رئيس الولايات المتحدة يدير إمبراطورية، ذات

قوة ونفوذ غير مسبوقين، حتى وإن كانت غير رسمية وغير موثقة. وساعتها فقط يمكننا صياغة السياسات على مدى العقد المقبل؛ الأمر الذي سوف يسمح لنا بإدارة العالم، الذي نجد أنفسنا مسئولين عنه على النحو الصحيح.

### إدارة الواقع الإمبراطوري

على مدى العشرين سنة الماضية، كافحت الولايات المتحدة؛ كي تتعامل بطريقة معقولة مع أصدقاء كونها «من خلت لها الساحة» بعد سقوط الاتحاد السوفيتي. ومهمة الرئيس في العقد المقبل هي الانتقال من رد الفعل إلى امتلاك أسلوب ممنهج لإدارة العالم الذي يسيطر عليه، وهو الأسلوب الذي يواجه بأمانة - وبلا تراجع - الواقع الخاص بطريقة عمل العالم. ويعني هذا تحويل الإمبراطورية الأمريكية من فوضى غير موثقة إلى نظام مرتب، أي السلام الأمريكي Pax Americana، ليس لأن هذا هو اختيار الرئيس الحر، بل لأنه على وجه الدقة ليس له اختيار.

إن تحقيق النظام في الإمبراطورية ضرورة، لأنه رغم كون الولايات المتحدة قوية على نحو ساحق، فهي ليست ذات قدرة مطلقة، ووجود قوة مفردة يخلق أخطارًا مفردة؛ فقد هوجمت الولايات المتحدة في الحادي عشر من سبتمبر عام 2001، على سبيل المثال، بالتحديد بسبب قوتها الفريدة. ومهمة الرئيس هي إدارة ذلك النوع من القوة بطريقة، تعترف بالمخاطر اعترافها بالفرص، وبعد ذلك يقلل المخاطر ويعظم المنافع.

بالنسبة للذين يتقززون من أي حديث عن الإمبراطورية - ناهيك عن الحديث عن تنظيم السيطرة الإمبراطورية - أود توضيح أن واقع الجيوبوليتيكا لا يمنح الرؤساء ترف ممارسة الفضيلة بالطريقة، التي نراها بها عند تطبيقها على المواطنين العاديين؛ فالرئيسان اللذان حاولا تحقيق الفضيلة بشكل مباشر، وهما: جيمي كارتر Jimmy Carter وجورج دابليو بوش George W. Bush، فشلا بشكل كبير. وفي



المقابل، فشل رؤساء آخرون، مثل: ريتشارد نيكسون Richard Nixon، وچون ف. كينيدي John F. Kennedy، كانوا أشد قسوة بكثير؛ لأن أعمالهم لم تكن موجهة إلى أي غرض أخلاقي، أكثر أهمية من أي شيء سواه، ولم يوحدها هذا الغرض.

عند تحقيق النظام للإمبراطورية، اقترح أن يحذو الرؤساء القادمون حذو ثلاثة من أكثر قادتنا تأثيرًا، وهم الرجال الذين نجحوا في أن يكونوا في منتهى القسوة في تنفيذ استراتيجية، كان سيرشدها لولا ذلك المبدأ الأخلاقي. وفي تلك الحالات، بررت الغايات الأخلاقية في واقع الأمر الوسائل، التي لم تكن غير أخلاقية فحسب، بل غير دستورية كذلك.

حافظ أبراهام لنكولن على الاتحاد، وألغى الرق من خلال بدء برنامج خداع منسق، والدوس على الحريات المدنية. وللحفاظ على ولاء الولايات الحدودية، لم يعترف لنكولن قط بعزمه إلغاء الرق، الذي جرى الإعلان عنه في نقاشات 1858. وبدلاً من ذلك، أخفى نيته زاعماً أنه بينما يعارض انتشار الرق فيما يتجاوز الجنوب، فليس لديه نية إلغاء حق امتلاك العبيد في الولايات، التي يعتبر امتلاكهم فيها قانونيًا بالفعل.

لكن لنكولن فعل ما هو أكثر من المراوغة؛ إذ علّق الحق في الاستدعاء إلى المحكمة في أنحاء البلاد، وأجاز القبض على المشرعين المؤيدين للانفصال في ميريلاند. ولم يحاول تبرير تلك الإجراءات، إلا بما قاله عن أنه إذا انفصلت ميريلاند وغيرها من الولايات الحدودية، فسوف تخسر البلاد الحرب وتفكك الدولة، الأمر الذي يجعل الدستور بلا معنى.

بعد خمسة وسبعين عاما، وسط أزمة خطيرة أخرى واجهتها الدولة، فعل فرانكلين روزفلت Franklin Roosevelt كذلك ما كان لابد منه، وهو يكذب لإخفاء أعماله عن الجمهور، الذي لم يكن مستعدا بعد لأن يحذو حذوه. وفي أواخر ثلاثينيات القرن العشرين، كان الكونجرس والجمهور يريدان الحفاظ على الحياد

الشديد حين استعدت أوروبا للحرب، ولكن روزفلت فهم أن بقاء الديمقراطية نفسها كان معرضاً للخطر. وفي السر، رتب لبيع السلاح للفرنسيين، وقدم تعهداً لرونستون تشرشل Winston Churchill باستخدام البحرية الأمريكية؛ لحماية السفن التجارية التي تنقل الإمدادات إلى إنجلترا، وهو انتهاك صريح للحياد.

كشأن لنكولن، كان روزفلت يحركه غرض أخلاقي، وهو ما يعني رؤية أخلاقية لاستراتيجية عالمية، وقد هاجمته النازية الألمانية، وكان مؤمناً بمفهوم الديمقراطية. إلا أنه لكي يحافظ على المصالح والمؤسسات الأمريكية، أقام تحالفاً مع الاتحاد السوفيتي بزعامة ستالين Stalin، وهو نظام من الناحية الأخلاقية على القدر نفسه من الفساد الذي عليه النازيون. وفي الداخل، تحدى روزفلت حكم المحكمة العليا، وأجاز التنصت على الاتصالات دون إذن من النيابة، وكذلك اعتراض البريد وفتحها. إلا أن انتهاكه الأشهر للحريات المدنية كان إقرار اعتقال ذوي الأصول اليابانية وترحيلهم، بغض النظر عن وضعهم كمواطنين. ولم تكن لدى روزفلت أوهام بشأن ما يقوم به، فقد كان ينتهك قواعد اللياقة بقسوة؛ سعياً لتحقيق الضرورة الأخلاقية.

اتبع رونالد ريجان كذلك سبيلاً اتسم بالقسوة لتحقيق غرض أخلاقي؛ فقد كان هدفه هو القضاء على ما أسماه إمبراطورية الشر الخاصة بالاتحاد السوفيتي، وسعى إلى تحقيق ذلك - إلى حد ما - بزيادة سرعة سباق التسلح، الذي كان يعلم أن السوفيت لن يقدروا عليه. وبعد ذلك مضى في سبيل معقدة وغير واضحة لمنع الدعم السوفيتي عن حركات التحرر الوطني في العالم الثالث، وغزا جرينادا في عام 1983، وأيد المتمردين الذين يحاربون الحكومة الشيوعية في نيكاراغوا. وأدى ذلك إلى الحيلة المعقدة لجعل إسرائيل تبيع السلاح لإيران في حربها مع العراق، ثم القيام بتوصيل الأرباح إلى متمردي نيكاراغوا، كطريقة للالتفاف على قانون، صيغ خصيصاً لمنع ذلك التدخل. وينبغي لنا كذلك تذكر دعم ريجان الفعال

للجهاديين المسلمين في أفغانستان، الذين كانوا يحاربون السوفيت. وكما حدث مع روزفلت وستالين، يمكن الاستفادة من عدو المستقبل في هزيمة العدو الحالي. لن يكون العقد المقبل وقتًا للحملات الأخلاقية الكبيرة، بل سيكون فترة صيرورة، وهو زمن سيتم فيه دمج واقع العالم، كما تقدمه الحقائق على الأرض بطريقة أكثر رسمية في مؤسساتنا.

خلال العقد الماضي، شنت الولايات المتحدة حملة انفعالية ضد الإرهاب. وفي العقد المقبل، ستكون هناك حاجة إلى قدر أقل من الانفعال، وإلى تعديلات أكثر دقة في العلاقات مع بلدان كإسرائيل وإيران. كما يستدعي الوقت خلق نظم تحالف، تشمل دولاً كيوندا وتركيا لها علاقات معروفة تعريفاً حديثاً مع الولايات المتحدة، وهذا هو العمل الصعب والمفصل من الاستراتيجية الإمبراطورية. ومع ذلك لا يمكن للرئيس تحمل تبعات وهم أن العالم سوف يقبل ببساطة واقع الهيمنة الأمريكية الساحقة، كما لن يمكنه تحمل تبعات التخلي عن القوة، وهو لا يمكن نسيان أنه على رغم وضعه شبه الإمبراطوري، فهو رئيس بلد وليس رئيس العالم.

لذلك، فإن الكلمة التي يجب ألا يستخدمها هي الإمبراطورية، ذلك أن الروح المضادة للإمبراطورية الخاصة بتأسيس أمريكا مازالت تدعم ثقافة البلاد السياسية. وعلاوة على ذلك، فإن التظاهر بأن القوة موزعة على نحو أكثر من التساوي مفيد، ليس بالنسبة للبلدان الأخرى فحسب، بل للولايات المتحدة كذلك. وحتى الآن، لا بد في العقد المقبل أن يتخذ واقع أمريكا غير الرسمي - كإمبراطورية عالمية - شكلاً متماسكاً.

ولأنه يجب على الرئيس ألا يجبر الجماهير على أن تواجه الواقع، الذي هي غير مستعدة لمواجهته بشكل مباشر، فلا بد أن يصبح بارعاً في إدارة الأوهام. فما كان

للرق أن يبقى بعد ستينيات القرن التاسع عشر، بغض النظر عن مقدار رغبة الجنوب فيه، وما كان بالإمكان تجنب الحرب العالمية الثانية، بغض النظر عن الميل العام نحو الانعزالية. وكان لابد من وقوع مواجهة مع الاتحاد السوفيتي، حتى ولو كانت تلك الأزمات تخيف الجماهير. وفي كل حالة خَلَقَ كُلُّ رَيْسٍ نَسِيحًا من الأوهام، يمكنه من عمل ما هو ضروري، دون إحداث ثورة هائلة من الجماهير. ففي حالة ريجان، عندما خرجت تدابيره الخاصة بتجارة السلاح إلى النور، باسم «قضية إيران كونترا»، لتكتمل بجلسات الاستماع في الكونغرس واتهام كثير من المشاركين وإدانتهم، حمت شخصيته المرتبة باعتباره شخصًا بسيطًا، سلطته وصورته من الآثار الجانبية؛ إذ كان ما يجري في إسرائيل وإيران ونيكاراجوا من التعقيد؛ بحيث وجد متقدوه مشكلة في تصديق أنه يمكن أن يكون مسئولًا.

### استراتيجية عالمية للأقاليم

اهتمامات أمريكا الأساسية هي أمن الولايات المتحدة المادي والنظام الاقتصادي الدولي غير المقيّد نسبيًا. وكما سنرى عندما نذهب إلى الحالة الراهنة للاقتصاد العالمي، فإن هذا لا يوحى بحال من الأحوال بنظام التجارة الحرة بالمعنى، الذي قد يفكر فيه أيديولوجيو السوق الحرة؛ فهو يعني ببساطة نظامًا دوليًا، يسمح للاقتصاد الأمريكي الواسع بالتعامل مع معظم العالم، إن لم يكن كله. ومهما كان النظام منظمًا، فلا بد للولايات المتحدة أن تشتري وتبيع، وتقرض وتقرض، وتستثمر ويُستثمر فيها، على نطاق عالمي.

لا يمكن أن يزدهر ربع اقتصاد العالم، وهو في عزلة، ولا يمكن أن تكون نتائج التعامل مقصورة على الاقتصاد الصرف؛ فالإقتصاد الأمريكي يقوم على الابتكار التكنولوجي والتنظيمي، وهو ما يشمل ما أسماه عالم الاقتصاد جوزيف أ. شومبيتر Joseph A. Schumpeter «التدمير الخلاق»، وهو العملية التي يدمر بها الاقتصاد

نفسه وبينها باستمرار، في الغالب من خلال ظهور التكنولوجيات المدمرة disruptive technologies.

عندما تلامس الثقافة الاقتصادية الأمريكية بلداناً أخرى، فإن من يتأثرون، يكون لهم أن يختاروا بين التكيف أو الغرق. فعلى سبيل المثال، كان لأجهزة الكمبيوتر - إلى جانب الشركات المنظمة حولها - نتائج مدمرة بشكل كبير على الحياة الثقافية في أنحاء العالم، من بنجالور إلى أيرلندا، وكانت الثقافة الأمريكية مرتاحة لهذا النوع من الدفق، في حين أن الثقافات الأخرى ربما لا تكون كذلك؛ فقد تحملت الصين عبء محاولة التكيف مع اقتصاد السوق مع الاحتفاظ بمؤسسات الدولة الشيوعية السياسية. وكافحت ألمانيا وفرنسا للحد من الأثر الأمريكي، وعزل نفسيهما عما أسموه "الاقتصادات الأنجلو سكسونية"، وفقد الروس توازنهم نتيجة لترضهم الذي لم يخفف منه شيء لهذه القوة في التسعينيات، وسعوا إلى استعادة توازنهم في العقد التالي.

رداً على الدوام الأمريكية، فإنه غالباً ما يكون موقف العالم متجهماً ومقارماً، على نحو غير مستغرب، حيث تحاول البلدان الاستفادة من النتائج أو تحاشيها. وشعر الرئيس أوباما بهذه المقاومة واستفاد منها. فعلى المستوى الداخلي، عالج حاجة الأمريكيين إلى أن يكونوا معجباً بهم ومحبوبين، بينما خاطب في الخارج الحاجة إلى أن تكون الولايات المتحدة أكثر تصالحاً وأقل غطرسة.

وبينما حدد أوباما المشكلة وحاول إدارتها، فمازالت مقاومة السلطة الإمبراطورية مشكلة بلا حل دائم؛ لأنها لا تنبع بشكل مطلق من سياسات الولايات المتحدة، وإنما من الطابع الأصيل للقوة الإمبراطورية.

تعيش الولايات المتحدة هذا الوضع الخاص بالقوة شبه المهيمنة منذ عشرين عاماً فقط. وكان العقد الأول من هذه الفترة الإمبراطورية خيلاً أوهج، كان من المفترض أن يعني فيه انتهاء الحرب الباردة انتهاء الحرب ذاتها، وهو الوهم الذي يظهر على السطح

مع انتهاء كل صراع كبير. وكانت السنوات الأولى من القرن الجديد، فحسب، هي العقد الذي اكتشف فيه الشعب الأمريكي أن هذا مازال كوكبًا خطيرًا. وبذل الرئيس الأمريكي جهدًا مخيفًا للتوصل إلى رد محدد الغرض، وسوف تكون السنوات التي تبدأ بعام 2001 عقدًا، تبدأ فيه الولايات المتحدة تعلم كيف تدير عداء العالم.

لا بد أن يصوغ الرئيس في العقد المقبل استراتيجية، تعترف بأن التهديدات التي ظهرت من جديد على السطح في السنوات العشر الماضية لم تكن انحرافًا؛ فقد كانت القاعدة والإرهاب تهديدًا واحدًا، ولكنه لم يكن في واقع الأمر أخطر تهديد واجهته الولايات المتحدة. ويمكن للرئيس - وينبغي له - التحدث عن التنبؤ بحقبة لا وجود فيها لتلك التهديدات، ولكنه لا بد ألا يصدق خطابه. بل على العكس من ذلك، لا بد أن يعيد البلاد شيئًا فشيئًا عن فكرة أن التهديدات التي تواجه القوة الإمبراطورية سوف تتضاءل، ثم يقودها إلى فهم أن تلك التهديدات هي ثمن يدفعه الأمريكيون لما في حوزتهم من ثروة وقوة. وفي الوقت نفسه يتعين عليه تخطيط الاستراتيجية وتنفيذها، دون أن يعترف بالضرورة بوجودها.

ولأن الرئيس لا يواجه منافسًا على الهيمنة العالمية، فلا بد له من التفكير في العالم من ناحية المناطق المميزة، وأثناء ذلك يشجع في خلق توزانات إقليمية للقوة، إلى جانب شركاء تحالف وخطط طوارئ للتدخل. ولا بد أن يكون الهدف الاستراتيجي هو الحيلولة دون ظهور أية قوة، يمكن أن تهدد الولايات المتحدة في أي ركن من أركان العالم.

بينما كان لدى روزفلت وريجان ترف المشاركة في لعبة ورق عالمية متكاملة واحدة - شاسعة لكنها موحدة؛ فالرؤساء في العقد المقبل سوف يلعبون ألعابًا متعددة على طاولة، تتسم بقدر كبير من التشظي، فقد انتهى الزمن الذي كان كل شيء فيه يدور حول تهديد عالمي واحد أو بضع تهديدات قليلة؛ ذلك أن توازن القوى في أوروبا ليس شديد الارتباط بتوازن آسيا، وهو مميز عن توازن القوى الذي يحفظ السلام في

أمريكا اللاتينية. ولذلك فإنه حتى إذا لم يكن العالم خطيرًا بالنسبة للولايات المتحدة كما كان أثناء الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة، فهو أكثر تعقيدًا بكثير.

بطبيعة الحال، تشظت بالفعل السياسة الأمريكية الخارجية من الناحية الإقليمية، وهو ما ينعكس في سلسلة من القيادات الإقليمية التي تُنظم تحتها قواتنا العسكرية؛ فمن الضروري الآن تنظيم التشظي نفسه بشكل علني في تفكيرنا الاستراتيجي والتعامل معه بناءً على ذلك. ولا بد من الاعتراف بأنه ليس هناك تحالف عالمي يدعم الولايات المتحدة، وأن الولايات المتحدة ليست لها علاقات تاريخية خاصة مع أحد، وهذا هو اقتباس آخر من خطاب وداع واشنطن، جاء فيه "الدولة التي تُفِرط في كراهيتها الدائمة لدولة ما أو في إعجابها الدائم بها تكون على قدر من العبودية. العبودية لكراهيتها أو حبها. وأي منهما كافٍ لأن يصرفها عن واجبها ومصالحها." ويعني ذلك أن التاتو لم يعد له معنى بالنسبة للولايات المتحدة خارج السياق الأوروبي، وأنه لا يمكن اعتبار أوروبا أهم من أي جزء في العالم. ورغم الحنين إلى "الشراكة الخاصة"، فالواقع البسيط الآن هو أن أوروبا ليست أكثر أهمية.

ومع ذلك، فقد ركز الرئيس أوباما في حملته الانتخابية على الأوروبيين؛ إذ كانت سفرياته قبل انتخابات 2008 ترمز إلى ما كان يعنيه بأن التعددية تعيد تعهدات الولايات المتحدة تجاه أوروبا، ومشاورة أوروبا بشأن الأعمال الأمريكية في الخارج، وقبول تحذيرات أوروبا (فيما أن الأوروبيين فقدوا إمبراطورياتهم، فهم يتحدثون باستمرار بلغة التحذير). ونجحت إشارات أوباما، فقد كان الأوروبيون بالغى الحماس، وأسراً أمريكيين كثيرين كونهم محبوبين من جديد. وبالطبع، تلاشى الحماس بسرعة، حين اكتشف الأوروبيون أن أوباما - على أية حال - رئيس أمريكي يسعى إلى تحقيق غايات أمريكية.

هذا كله يقودنا إلى تحدي الرئيس في العقد المقبل: إدارة سياسة خارجية قاسية

غير عاطفية في دولة، مازالت لديها خيالات غير معقولة عن كونها محبوبة، أو على الأقل كونها متروكة في حالها. فهو يتعين عليه اللعب على عاطفية الجمهور، بينما يحرك السياسة على نحو يتجاوزها.

وتعني السياسة الخارجية غير العاطفية أنه في العقد المقبل، لا بد للرئيس أن يحدد بفهم وبلا عاطفة الأعداء الأشد خطورة، ثم يخلق تحالفات لإدارتهم. وتعني هذه المقاربة غير العاطفية الانفصال عن تحالفات نظام الحرب الباردة ومؤسساتها بالكامل، بما في ذلك الناتو وصندوق النقد الدولي والأمم المتحدة؛ ذلك أن مخلفات الحرب الباردة هذه كلها ليست بالمرونة الكافية للتعامل مع تنوع عالم اليوم، الذي أعاد تعريف نفسه في عام 1991؛ الأمر الذي جعل المؤسسات القديمة مؤسسات عفا عليها الزمن. ربما لا يزال لبعضها قيمة، لكن فقط في سياق المؤسسات الجديدة التي لا بد من ظهورها. ولا بد لهذه المؤسسات أن تكون إقليمية، وتخدم مصالح الولايات المتحدة الاستراتيجية؛ طبقاً للمبادئ الثلاثة التالية:

- إلى الحد الممكن، تمكين توازن القوى في العالم وفي كل منطقة من استهلاك الطاقات، وإبعاد التهديدات عن الولايات المتحدة.
- خلق تحالفات تناور بها الولايات المتحدة البلدان الأخرى؛ لاستدراجها إلى تحمل عبء المواجهة أو الصراع الكبير، مع دعم هذه البلدان بالإعانات الاقتصادية والتكنولوجيا العسكرية والوعد بالتدخل العسكري، إذا لزم الأمر.
- استخدام التدخل العسكري كملاذ أخير فحسب، عندما ينهار توازن القوى ولا يعود بإمكان الحلفاء التعامل مع المشكلة.

في ذروة الإمبراطورية البريطانية، قال اللورد بالمرستون Lord Palmerston: «إنها سياسة ضيقة أن تفترض أن هذا البلد أو ذلك مميز، باعتباره حليقاً أبدتياً لإنجلترا، أو عدواً دائماً لها.. ليس لنا حلفاء أبديون، وليس لنا أعداء دائمون،



فمصالحنا هي الأبدية والدائمة، وهذه المصالح هي واجبنا الواجب علينا اتباعه»، وهذا نوع من السياسة سيتعين على الرئيس تأسيسه في العقد المقبل، وإدراكاً منه أن الولايات المتحدة سوف تولد الاستياء أو العداء، لا بد ألا تكون لديه أية أوهاام خاصة بقدرته على إقناع الدول الأخرى بالتفكير فينا بشكل أفضل، دون التحلي عن المصالح الضرورية للولايات المتحدة. ولا بد أن يحاول إغواء تلك الدول بقدر الإمكان بالوعود البراقة، غير أنه يتعين عليه في النهاية قبول أن جهود الإغواء سوف تفشل في آخر الأمر، والموضع الذي لا يمكن أن يفشل فيه، يكمن في مسؤوليته عن إرشاد الولايات المتحدة في عالم معاد.



## الفصل الثاني

### الجمهورية والإمبراطورية والرئيس الميكياقيللي

أكبر تحدٍّ لإدارة إمبراطورية على مدى العقد المقبل سيكون التحدي نفسه الذي واجهته روما، وهو كيف يمكن الحفاظ على الجمهورية بعد أن تصبح إمبراطورية؟ كان مؤسسو الولايات المتحدة معادين للإمبريالية من خلال الاعتقاد الأخلاقي القوي، فقد تعهدوا بحياتهم وثوراتهم وشرفهم المقدس لهزيمة الإمبراطورية البريطانية، وأسسوا جمهورية تقوم على مبادئ تقرير المصير القومي والحقوق الطبيعية. وتمثل العلاقة الإمبراطورية مع البلدان الأخرى، سواء أكانت متعمدة أم لا، تحديًا لتلك المبادئ التأسيسية.

إذا كنت تعتقد أن للمبادئ العالمية معنى، فإنه يترتب على ذلك أن الجمهورية المعادية للإمبراطورية لا يمكن أن تكون إمبراطورية وتحفظ بالطابع الأخلاقي. وهذه حجة تقدّم في الولايات المتحدة منذ أربعينيات القرن التاسع عشر والحرب المكسيكية الأمريكية، واليوم يقدم طرفا الطيف السياسية الحجة ضد المغامرات الخارجية. فعلى اليسار، هناك تراث طويل من معاداة الإمبريالية، ولكن إذا نظرت إلى جزء من الخطاب الصادر عن اليمين، من الليبراليين وكذلك من البعض في حقل الشاي، فإنك ترى المعارضة نفسها للتورط العسكري في البلدان الأخرى. والخوف مرتبط بتبنيه دوايت أيزنهاور Dwight Eisenhower إلى الحذر من

«المجمع العسكري الصناعي»<sup>(\*)</sup>. وإذا كان ضابط أمضى حياته في الجيش وكان بطلا في الحرب مثل آيك Ike أمكنه التعبير عن هذا الخوف، فإنك ترى مدى رسوخه في الثقافة السياسية الأمريكية. وأشك أن هذا سيكون خيطاً قوياً في السياسة الأمريكية، على مدى السنوات العشر التالية، في بلد ضجر المواطنون فيه، على امتداد الطيف السياسي، من التورط الخارجي.

الخوف من الطموح الإمبراطوري مبرر بالكامل، فقد تغلبت الإمبراطورية على الجمهورية الرومانية؛ إذ خلقت الإمبراطورية الطموح إلى المال والقوة الذي قضى على الفضائل الجمهورية التي كانت أعظم فخر للمواطنة الرومانية. وحتى إذا كان ذلك الفخر لم يتحقق بالكامل، فلا شك في أن الجمهورية لم تدمرها المنافسات العسكرية، التي أدت إلى الانقلاب، وإنما المبالغ الضخمة من الأموال المتدفقة على عاصمة الإمبراطورية من المواطنين والأجانب، الذين يرغبون في شراء ودها.

الخطر نفسه قائم بالنسبة للولايات المتحدة؛ فالقوة العالمية الأمريكية تولد تهديدات دائمة وإغراءات أكبر من أي وقت مضى. وقد لوحظ أنه منذ الحرب العالمية الثانية خلقت الولايات المتحدة جهاز أمن قومي تلفه السرية الرسمية إلى حد أنه لا يمكنها الإشراف عليه بسهولة أو حتى فهمه. وهذا الجهاز باهظ التكلفة والمرهق، بالإضافة إلى ذلك القدر الهائل من النشاط الاقتصادي الخارجي - من التجارة الضخمة إلى الاستثمارات الأجنبية، التي تحرك الأسواق العالمية - يخلق نظاماً لا تديره المؤسسات الديمقراطية بسهولة، ولا يتوافق بسهولة دائماً مع المبادئ

(\*) يشير مفهوم المجمع العسكري الصناعي إلى العلاقات السياسية والمالية بين مشرعين في الكونجرس، والقوات المسلحة ممثلة في البنتاجون (وزارة الدفاع)، والصناعة الحربية التي تدعم الجيش والمشرعين. وتشمل هذه العلاقات تقديم تبرعات سياسية، وحشد التأييد للإنفاق الدفاعي، وإطلاق حملات ضغط لكسب تأييد السلطة التنفيذية. هذا النوع من العلاقات هو ما يسميه علماء السياسة بـ«المثلث الحديدي»، لوصف التداخل بين صنع القرار السياسي، والعلاقة بين لجان الكونجرس والبيروقراطية (أي السلطة التنفيذية، وتسمى أحياناً الوكالات الحكومية)، ومجموعات الضغط (اللوبي). وقد اشتهر الرئيس الراحل دوايت أيزنهاور بتحذيره من خطورة نفوذ المجمع العسكري الصناعي، في خطابه الوداعي بمناسبة انتهاء رئاسته في يناير من عام 1961 (المترجم)

الأخلاقية الأمريكية. وليس من غير المتخيّل أن هذه القوى مجتمعةً يمكن أن تجعل الديمقراطية الأمريكية عديمة المعنى.

المشكلة هي أنه كما كان حال روما في زمن القيصر، بلغت الولايات المتحدة نقطة لا خيار لها فيها بشأن أن تكون لها إمبراطورية أم لا؛ فالتوسع الاقتصادي الأمريكي، وتورطه في بلدان في أنحاء العالم، وقوة الجيش الأمريكي ووجوده العالمي، هي - في واقع الأمر - إمبراطورية في حجمها. وتخليص الولايات المتحدة من هذا النظام العالمي مستحيل تقريباً، وإذا جرت محاولة لتخليصها، فلن يززع ذلك الاقتصاد الأمريكي فحسب، بل النظام العالمي كذلك. وعندما فهم ثمن معاداة الإمبريالية، كان هناك تأكيد ضئيل له. والواقع أن بلداناً أجنبية كثيرة كانت معارضتها للوجود الأمريكي أقل من معارضتها للطريقة، التي يتم بها الشعور بذلك الوجود؛ فهي تقبل القوة الأمريكية؛ ولكنها تريد أن تخدم مصالحها القومية.

أخطار القوة الإمبراطورية هائلة، وسوف تصبح هذه الأخطار قضايا مثيرة للجدل إلى حد كبير في السياسة الأمريكية، تماماً مثلما هي موضع نقاش ساخن في أنحاء العالم. وإذا عدنا بالنظر إلى الوراء، فقد كانت نزعة عدم التدخل الخاصة بالجمهورية، التي خلقها المؤسسون متأصلة في حقيقة أن الجمهورية كانت ضعيفة، وليس لأنها كانت فاضلة؛ إذ لم يكن بإمكان الولايات المتحدة ذات الثلاث عشرة مستعمرة سابقة الدخول في تورطات خارجية، دون أن تُشحَق. أما الولايات المتحدة ذات الثلاثمائة مليون نسمة، فلا يمكنها تحاشي التعقيدات الخارجية.

سوف تكون إدارة الإمبراطورية غير المتعمدة مع الاحتفاظ بمزايا الجمهورية أولوية مهمة للولايات المتحدة لزم من طويل، ولكن من المؤكد أنه في أعقاب الحروب الجهادية، سيكون هناك تحد شديد الكثافة. وسوف يكون معظم النقاش تفكيراً رغبوياً، وليست هناك عودة للوراء، وليست هناك حلول خالصة. والمفارقة هي أن أفضل فرصة للإبقاء على الجمهورية ليست مؤسسية بل فردية، وسوف تعتمد

على تعريف للفضيلة، يخالف أفكارنا المشتركة الخاصة بما هي الفضيلة. وأنا لا أنطلع إلى توازن القوى لإنقاذ الجمهورية، بل أنطلع إلى مكر الرئيس وحكمته. فمن المؤكد أن الرئيس لديه جهاز بيروقراطي واسع، يسيطر هو عليه ويسيطر عليه الجهاز، لكن في النهاية من هم على شاكلة لنكولن وروزفلت وريجان هم من نتذكرهم وليس البيروقراطيين أو أعضاء مجلس الشيوخ أو القضاة. والسبب بسيط. فألى جانب القوة، يمارس الرؤساء القيادة. وتلك القيادة يمكن أن تكون حاسمة، في سياق عقد من الزمان أو أقل.

قد تبدو الشخصيات المفردة أضعف من أن يقوم عليها مستقبل بلد ما. وفي الوقت ذاته، أوجد المؤسسون منصب الرئيس لسبب ما، وفي قلب هذا السبب كانت القيادة. والرئاسة فريدة لكونها البنية الوحيدة، التي يتطابق فيها مؤسسة وفرد؛ فالكونجرس والمحكمة العليا تجمعات من الأشخاص الذين نادراً ما يتحدثون بصوت واحد. والرئاسة هي الرئيس وحده، وهو المسئول الوحيد الذي ينتخبه ممثلو الشعب كله؛ ولهذا السبب يتعين علينا اعتباره العامل الأساسي لإدارة العلاقات بين الإمبراطورية والجمهورية.

لنبدأ ببحث شخصية الرئيس بصورة عامة؛ فالرؤساء يختلفون عن الكثير من الناس لكونهم يستمتعون بالسلطة؛ فهم يضعون الاستحواذ عليها واستخدامها قبل كل شيء آخر، وهم يكرسون جزءاً كبيراً من حياتهم سعياً وراءها. ويجري صقل معرفة الرئيس ومواهبه الفطرية في اتجاه السلطة؛ بحيث يفهمها بطرق لا يقدرها من لم يمتلكوها بالفعل من هم منا. وأسوأ رئيس يكون أقرب بالطبيعة إلى الأفضل من أي شخص، لم يمر بما يتطلبه الأمر لأن يصبح رئيساً.

من المحتم أن درجة السلطة التي يحققها الرؤساء الأمريكيون المحدثون وحجمها تجعلهم يرون العالم بشكل مختلف، حتى بالمقارنة مع رؤساء الدول الأخرى؛ إذ لا يجب أن يواجه قائد آخر هذا القدر الكبير من العالم بهذه الطرق

المختلفة الكثيرة. ففي ديمقراطيتنا، لا بد للرئيس من الوصول إلى مكانته، وهو يتظاهر بأنه مميز عن أبناء وطنه، وهي فكرة يستحيل تخيلها ومخيفة إن صدقت. والخطر هو أنه عندما تصبح تحديات الإمبراطورية أكبر والتهديدات المحتملة أكثر واقعية، سيظهر القادة الذي سوف يحتاجون إلى درجة من السلطة، تتجاوز القيود التي يفرضها الدستور ويطالبون بها.

من حسن الحظ ومن المفارقة أنه عند خلق حكومة معادية للإمبراطورية، قدم المؤسسون خريطة طريق ممكنة للقيادة الإمبراطورية مع القيود الجمهورية؛ إذ خلقوا الرئاسة الأمريكية باعتبارها بديلاً للدكتاتورية وللأرستقراطية، أي سلطة تنفيذية ضعيفة في الداخل، ولكنها قوية على نحو هائل خارج الولايات المتحدة. ففي الشئون الداخلية، يفرض الدستور وجود سلطة تنفيذية يحيط بها كونجرس، تصعب السيطرة عليه بطبعه، ومحكمة عليا يستحيل إلى حد ما معرفة ما تشعر به أو تفكر فيه. والاقتصاد في أيدي المستثمرين والمديرين والمستهلكين، وكذلك أيدي بنك الاحتياط الفيدرالي (إن لم يكن بالدستور فمن المؤكد بالتشريع والممارسة). وتمتع الولايات بسلطة كبيرة، وجزء كبير من المجتمع المدني - الدين والصحافة والثقافة الشعبية والفنون - خارج سيطرة الرئيس، وهذا على وجه الدقة ما أرادته المؤسسون: شخص يتولى مسؤولية البلاد، ولكن لا يحكمها. إلا أنه عندما تواجه الولايات المتحدة العالم من خلال سياستها الخارجية، لا يكون هناك شخص أكثر نفوذاً من شاغل البيت الأبيض.

تنص الفقرة الثانية من المادة الثانية من الدستور على أن: «يكون الرئيس قائداً أعلى لجيش وبحرية الولايات المتحدة، ولمليشيات مختلف الولايات، عندما تدعى إلى الخدمة الفعلية لدى الولايات المتحدة». وهذه هي السلطة الوحيدة الممنوحة للرئيس التي لا يتقاسمها مع الكونجرس. أما المعاهدات والتعيينات والميزانية والإعلان الفعلي للحرب، فتتطلب موافقة الكونجرس، ولكن قيادة الجيش للرئيس وحده.

ومع ذلك فإنه بمرور السنين لم يعد معمولاً بالقيود الدستورية، التي كانت تقيد الحقوق الدبلوماسية للرؤساء الأوائل. وتتطلب المعاهدات موافقة مجلس الشيوخ، ولكن المعاهدات في الوقت الراهن نادرة والسياسة الخارجية تنظمها الاتفاقيات والتفاهات، التي يتم التوصل إلى الكثير منها سرًا... وهكذا فإن إدارة السياسة الخارجية ككل هي الآن بالفعل في أيدي الرئيس. وبالمثل، بينما أعلن الكونجرس الحرب خمس مرات، أرسل الرؤساء القوات الأمريكية إلى صراعات في أنحاء العالم مرات أكثر من ذلك بكثير. وواقع النظام الحاكم الأمريكي في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، هو أن سلطة الرئيس على المسرح العالمي تتجاوز تقريبًا القيود والتوازنات، ولا يقيدتها سوى مهارته في ممارسة تلك السلطة.

عندما قرر الرئيس كليتون قصف يوغوسلافيا في عام 1999، وعندما قرر الرئيس ريجان غزو جرينادا في عام 1983، لم يكن بإمكان الكونجرس منعهما لو أرادا ذلك. ويفرض الرؤساء الأمريكيون العقوبات ويصيغون العلاقات الاقتصادية في أنحاء العالم. ومن الناحية العملية، فإن هذا يعني أن الرئيس الأمريكي لديه سلطة تدمير بلد ما يثير استيائه أو يكافئ بلدًا يؤيده. وقد تمت الموافقة على التشريع الخاص بسلطات الحرب، ولكن رؤساء كثيرين زعموا أن لهم حقًا أصيلاً كقائد عام في شن الحرب، بغض النظر عنه. وهم في واقع الأمر يقنعون الكونجرس بتأييد سياساتهم، ومن غير المرجح أن يتغير هذا في العقد المقبل.

يحدث عند ممارسة السياسة الخارجية أن يكون الرئيس الأمريكي أكثر شغفًا بأمر ميكيا فيلي Machiavelli؛ الأمر الذي لا يكون مفاجئًا إلى حد كبير، عندما تأخذ في اعتبارك أن المؤسسين كانوا تلاميذ للفلسفة السياسية الحديثة، وأن ميكيا فيلي هو من أوجدها. وكما يجب أن نعتز بوجود إمبراطورية أمريكية، لا بد أن نعترف بقيمة رؤاه المتممقة ونصائحه بالنسبة لوضعنا؛ ذلك أن هم الرئيس الأساسي هو السياسة الخارجية؛ حيث تتوافق ممارسة السلطة مع تعاليم ميكيا فيلي.



لهذا السبب يجب ألا يكون للأمر أي هدف آخر أو أي فكر آخر، ولا يتعين عليه تبني شيء ليكون ماهراً فيه سوى الحرب ومؤسساتها ومبادئها؛ لأن هذه هي المهارة الوحيدة التي تناسب من يحكم. وهذا المبدأ له تلك الفاعلية حتى أنه لا يحفظ فقط من ولدوا أمراء، بل يمكن الرجال ذوي المكانة الخاصة في مناسبات كثيرة من رفع تلك المكانة. ومن ناحية أخرى، من الواضح أنه عندما يهتم الأمراء بالتعديلات الدقيقة، أكثر من اهتمامهم بالهموم العسكرية، فإنهم يفقدون دولتهم. وأهم سبب يجعلك تفقدها هو إهمال هذه المهارة، بينما السبيل إلى امتلاكها هو أن تكون على معرفة كبيرة بهذه المهارة.

التمييز الأساسي في السياسة الخارجية الأمريكية، في ممارسة الرؤساء الأمريكيين للسلطة. أي التمييز الذي ناقشه ميكيا فيللي - هو بين المثالية والواقعية، وهو تمييز راسخ في تراث السياسة الخارجية الأمريكية - فقد تأسست الولايات المتحدة على مبدأ تقرير المصير القومي، الذي يفترض وجود عملية ديمقراطية لاختيار القادة عُبر عنها في الدستور، كما أنها بُنيت على مبادئ الحرية الإنسانية التي حفظتها وثيقة الحقوق. ويبدو أن الإمبريالية تقوض مبدأ تقرير المصير، بشكل رسمي أو غير رسمي. وعلاوة على ذلك تدعم إدارة السياسة الخارجية الأنظمة الحاكمة النافعة للمصلحة القومية، ولكنها لا تمارس مبادئ حقوق الإنسان الأمريكية أو تعجب بها. والتوفيق بين السياسة الأمريكية الخارجية والمبادئ الأمريكية أمر صعب، ويمثل تهديداً لأسس النظام الحاكم الأخلاقية.

يقول الوضع المثالي بأنه يتعين على الولايات المتحدة العمل؛ طبقاً للمبادئ الأخلاقية المشتقة من نوايا المؤسسين المعلننة ببراعة؛ إذ يُنظر إلى الولايات المتحدة على أنها مشروع أخلاقي ينبع من أفكار التنوير الخاصة بجون لوك John Locke وآخرين، وينبغي أن يكون هدف السياسة الخارجية الأمريكية، هو تطبيق هذه المبادئ الأخلاقية على الأعمال الأمريكية، والأهم من ذلك على

الغايات الأمريكية. وانطلاقاً من هذا، ينبغي أن تؤيد الولايات المتحدة فقط تلك الأنظمة الحاكمة التي تتبنى القيم الأمريكية، وينبغي أن تعارض الأنظمة التي تعارض تلك القيم.

تقول المدرسة الواقعية إن الولايات المتحدة دولة مثل أية دولة أخرى، وبذلك يجب عليها حماية مصالحها القومية. وتشمل هذه المصالح أمن الولايات المتحدة، والسعي لتحقيق منفعتها الاقتصادية، ودعم الأنظمة المفيدة لتلك الغايات، بغض النظر عن الطابع الأخلاقي لتلك الأنظمة. وبناء على هذه النظرية، لا ينبغي أن تكون السياسة الخارجية الأمريكي أخلاقية، على نحو أقل أو أكثر من سياسة أية دولة أخرى.

يقول المثاليون إن إنكار الضرورة الأخلاقية على نحو فريد لأمريكا لا ينكر المثل الأمريكية فحسب، بل رؤية التاريخ الأمريكي بالكامل. ويقول الواقعيون إننا نعيش في عالم خطير، وإنه بالتركيز على الأهداف الأخلاقية سوف نصرف الانتباه عن السعي لتحقيق مصالحنا الحقيقية، وبالتالي نعرض وجود الجمهورية - الذي هو تجسيد للمثل الأمريكية - للخطر. ومن المهم أن ندرك أن المثالية باعتبارها أساساً للسياسة الأمريكية تتجاوز الأيديولوجيات، ويقوم الشكل اليساري على حقوق الإنسان ومنع الحرب. أما النسخة اليمينية، فتقوم على الرغبة المحافظة الجديدة في نشر القيم والديمقراطيات الأمريكية. وما تشترك فيه هاتان الرؤيتان هو فكرة أن السياسة الخارجية الأمريكية ينبغي أن تكون مركزة، في المقام الأول، على المبادئ الأخلاقية.

وفي رأيي أن الجدل بين الواقعية والمثالية يخطئ بشكل أساسي في عرض المشكلة، وسوف يكون لهذا العرض الخاطئ دور مهم في العقد المقبل؛ فهو إما أن يُحل أو يصبح الاختلال في السياسة الخارجية الأمريكية أكثر وضوحاً. وتفشل الحجة المثالية باستمرار بشأن جدل سابق بين حق تقرير المصير القومي وحقوق الإنسان، فقد قامت الثورة الأمريكية على أساس المبدأين، لكن الآن، وبعد أكثر من قرنين، ما الذي تفعله عندما يقرر بلد مثل ألمانيا من خلال العمليات

الدستورية إلغاء حقوق الإنسان؟ ما الذي له الأولوية، حق تقرير المصير القومي أم حقوق الإنسان؟ ما الذي تفعله مع أنظمة لا تجري انتخابات كتلك، التي تجري في الولايات المتحدة، لكنها تجسد بوضوح إرادة الشعب القائمة على الممارسة الثقافية القديمة؟ والمملكة العربية السعودية مثال أساسي على ذلك. وكيف تتبنى الولايات المتحدة التعددية الثقافية، ثم تطالب بأن يختار أناس آخرون قادتهم بالطريقة نفسها التي نتبعها في أيوا؟

الموقف الواقعي متناقض كذلك؛ فهو يفترض أن المصلحة القومية لإمبراطورية، في القرن الحادي والعشرين، واضحة ووضوح تلك المصلحة القومية الخاصة بجمهورية صغيرة من القرن الثامن عشر متعلقة بالساحل الشرقي لأمريكا الشمالية؛ والدول الصغيرة الضعيفة لديها تعريف شديد الوضوح للمصلحة القومية، وهي - في المقام الأول - البقاء بأكبر قدر ممكن من الأمان والرخاء. لكن بالنسبة لبلد على ما عليه الولايات المتحدة من أمان ورخاء - وعلى قدر غير مسبوق من الاتساع الإمبراطوري - يغدو تعريف المصلحة القومية أكثر تعقيداً بكثير. وتفترض النظرية الواقعية أن هناك مساحة أقل للاختيار على المدى القريب مما هو موجود، وأن الخطر عظيم بالقدر نفسه باستمرار. ولا يمكن المجادلة في الموقف الواقعي باعتباره افتراضاً مجرداً، فمن ذا الذي يريد أن يكون غير واقعي؟ والتفكير في تعريف محدد لما يتكون منه الواقع أمر أكثر تعقيداً بكثير؛ ففي القرن السادس عشر كتب ميكيافيللي «الأسس الرئيسية لكل دولة، الدول الجديدة وكذلك القديمة أو المركبة، هي القوانين الجيدة والأسلحة الجيدة؛ فلا يمكن أن تكون لديك قوانين جيدة بلا سلاح جيد، وحيثما يوجد سلاح جيد، فمن المحتم أن يعقب ذلك القوانين الجيدة». وهذا تعريف للواقعية أفضل مما قدمه لنا الواقعيون.

أعتقد أن الجدل بين الواقعيين والمثاليين هو، في واقع الأمر، قراءة ساذجة للعالم، كان لها تأثير كبير في العقود الأخيرة؛ فالمُثَلِّ والواقع جانبان مختلفان

للشيء نفسه، وهو القوة. فالقوة في حد ذاتها وحشية لا تحقق أي شيء باق، ومن المحتم أن تشوه النظام الحاكم الأمريكي. والمثُل بلا قوة مجرد كلمات، فهي يمكن أن تحيا فقط حين تعززها القدرة على الفعل. والواقع هو فهم كيفية استخدام القوة، ولكنه في حد ذاته لا يقودك إلى الغايات، التي ينبغي أن توجه إليها قوتك. والواقعية الخالية من غايات القوة هي دائماً كلمة أخرى تعني البلطجة، التي هي غير واقعية على الإطلاق. وكذلك المثالية باستمرار كلمة أخرى تعني ادعاء الصلاح، وهو مرض يمكن إصلاحه فقط بالفهم العميق للقوة بمعناها الكامل، بينما الواقعية غير المقرونة بالمبدأ عجز متكرر في صورة واقعية، والواقعية والمثالية ليستا بديلين بل مكملين ضروريين، إذ لا يمكن لأي منهما أن تكون في حد ذاتها مبدأ للسياسة الخارجية.

تذيب المثالية والواقعية نفسيهما في مضامين القوة، وتتحول مضامين القوة إلى حرب. ولنعد مرة أخرى إلى ميكيا فيللي: «ينبغي أن تكون الحرب دراسة الأمير الوحيدة، فهو ينبغي أن يفكر في السلام باعتباره وقتاً لالتقاط الأنفاس فحسب، وهو ما يتيح له التروي لوضع الخطط العسكرية، ويوفر القدرة على تنفيذها».

في القرن العشرين، خاضت الولايات المتحدة حروباً 17 بالمائة من الزمن، ولم تكن تلك تدخلات صغيرة، بل كانت حروباً كبيرة شملت مئات الآلاف من الرجال، وفي القرن الحادي والعشرين، نخوض الحرب 100 بالمائة تقريباً من الزمن. وقد جعل المؤسسون الرئيس القائد العام لسبب، وهو أنهم قرأوا ميكيا فيللي بعناية وعرفوا أنه، كما كتب، «ليس هناك تجنب للحرب؛ فهي تؤجل فحسب لمصلحة الآخرين».

أعظم فضيلة يمكن أن تكون لدى الرئيس هي أن يفهم القوة؛ فالرؤساء ليسوا فلاسفة، وممارسة القوة فن تطبيقي وليس مجرداً. ومحاولة أن يكون فاضلاً، لن تؤدي إلى إخفاق الرئيس فحسب بل إلى إخفاق البلد كذلك. وأثناء الحرب، يعني فهم القوة أن سحق العدو بسرعة وبشكل تام أرحم من إطالة الحرب بالتردد بسبب وخز الضمير، أو خسارة الحرب بالحساسية المفرطة، وهذا هو السبب في أن

الفضيلة التقليدية - أي فضيلة ما يمكن تسميته الشخص الصالح - غير مقبولة في الرئيس. وكذلك كما يقول ميكيا فيللي، فإن: «الواقع هو أن الرجل الذي يريد التصرف على نحو فاضل بكل طريقة، مآله الإخفاق بين الكثيرين الذين ليسوا فضلاء».

يقدم ميكيا فيللي تعريفًا جديدًا للفضيلة، التي تنطوي على المكر وليس على الصلاح الفردي. وبالنسبة للأمراء، فإن الفضيلة هي القدرة على التغلب على القدر؛ فالعالم على ما هو عليه، وبذلك فهو متقلب ولا يمكن التنبؤ به. ولا بد للأمير من استخدام القوة للتغلب على المفاجآت التي سيقدمها العالم، ومهمته هي حماية الجمهورية من عالم مليء بأشخاص ليسوا فضلاء بأي معنى تقليدي.

ربما يدخل الرؤساء الانتخابات بناءً على برامج أحزاب أيديولوجية وسياسات موعودة، ولكن فترات رئاستهم تحددها في واقع الأمر المواجهة بين الحظ والفضيلة، أي بين غير المحتمل وغير المتوقع؛ الأمر الذي لم تعد لهم أيديولوجيتهم أو مقترحاتهم واستجاباتهم. ووظيفة الرئيس هي توقع ما سوف يحدث، وتقليل عدم قابلية التوقع، ثم الرد على ما هو غير متوقع بالمكر والقوة.

من وجهة نظر ميكيا فيللي، الأيديولوجيا تافهة والشخصية هي كل شيء، وفضيلة الرئيس ونظراته المتعمقة وسرعة بديته ومكره وقسوته وفهمه للعواقب هي ما يهم. وفي النهاية، سوف يحد ميراثه مهاراته الفطرية، التي تعكس بدورها شخصيته.

الرؤساء العظام لا ينسون أبدًا مبادئ الجمهورية، ويسعون للحفاظ عليها وتعزيزها - على المدى الطويل - دون الإضرار بالحاجات العَرَضِيَّة. والرؤساء السيئون يفعلون ما هو متوقع فحسب، دون أن يعيروا انتباهًا للمبادئ، ولكن أسوأ الرؤساء هم هؤلاء الذين يتمسكون بالمبادئ، بغض النظر عن المصائر العَرَضِيَّة.

لا يمكن للولايات المتحدة أن تشق طريقها في العالم بتحاشيها الدول ذات القيم المختلفة والأنظمة التي تتسم بالوحشية، وتقوم أثناء ذلك بأعمال نبيلة بشكل

حصري؛ فالسعي إلى الغايات الأخلاقية يتطلب الاستعداد للتحالف مع الشيطان.

بدأت هذا الفصل بالحديث عن التوتر بين الجمهورية الأمريكية والإمبراطورية في العقد المقبل. وبغض النظر عن الشكوك الأخلاقية، التي قد تكون لدينا بشأن كوننا إمبراطورية، فهذا هو الدور الذي وضعنا فيه التاريخ. وإذا كان الخطر في أن نصبح إمبراطورية، هو أننا نفقد الجمهورية، فمن المؤكد أن الرؤية الواقعية للسياسة الخارجية سوف تأخذنا إلى هناك، وإن كان ذلك عن غير عمد، فسيكون ببساطة من خلال عدم المبالاة بالقضايا الأخلاقية. وفي الوقت نفسه، قد يُسقط المثاليون الجمهورية بتعريض الدولة للخطر - ليس عمدًا وإنما من خلال العداء أو عدم المبالاة بالقوة - وبالطبع لن يحدث سقوط الجمهورية في العقد المقبل، ولكن القرارات التي تُتخذ في القرن المقبل سوف تؤثر بقوة على النتيجة طويلة المدى.

على مدى العقد المقبل، لن يكون للرئيس ترف تجاهل النماذج المثالية أو الواقع. بل لا بد له من اختيار التركيبة غير المريحة من الاثنين اللتين أوصى بهما ميكيا فيللي. ولا بد للرئيس من التركيز ليس فقط على مراعاة القوة واستعمالها وإنما على حدودها كذلك؛ فالنظام الجيد الذي تسانده القوة والقادة الذين يفهمون فضيلة النظام وفضيلة القوة هو المطلوب. وليست الحزمة الأيديولوجية المرتبة هي التي توضح كل شيء وتختزله إلى صيغ مبسطة، بل إن الموقف الوجودي من السياسة هو الذي يؤكد الحقائق الأخلاقية في السياسة، دون أن يصبح أسيرها الأحمق، وهو الذي يستخدم القوة دون أن يعيدها.

عند منع الإمبراطورية غير المتعمدة من تدمير الجمهورية، لن يكون العامل المهم هو توازن القوى بين سلطات الدولة، بل الرئيس الملتزم بذلك التوازن الدستوري، ولكنه مستعد لممارسة القوة بمقتضى حقه الشخصي. ولكي يفعل ذلك، لا بد للرئيس من فهم قصور الموقفين المثالي والواقعي. فالمثاليون - سواء أكانوا من المحافظين الجدد أم ذوي النكهة الليبرالية - لا يفهمون أنه من الضروري

معرفة طبيعة القوة على نحو تام؛ من أجل العمل بموجب المبادئ الأخلاقية، ولا يفهم الواقعيون عدم جدوى القوة دون جوهر أخلاقي.

يقول ميكيا فيللي إن: «الشخص الذي يعدل سياسته تبعًا للزمن ينجح. وفي المقابل، فإن الشخص الذي تتصادم سياسته مع مقتضيات الزمن لا ينجح». من الممكن أن تكون الأخلاق في السياسة الخارجية أبدية، ولكنها يجب أن تطبق كذلك على الأزمنة، وسوف يكون تطبيقها على العقد المقبل صعبًا إلى حد كبير؛ ذلك أن العقد المقبل يمثل التحدي للإمبراطورية غير المتعمدة.





## الفصل الثالث

### الأزمة المالية والدولة الناهضة

حدثان عالميان يصوغان العقد المقبل، وهما: رد الرئيس بوش على الحادي عشر من سبتمبر، والذعر المالي في عام 2008. ويزيد فهم ما حدث والسبب في الحاليتين إحساسنا بما يعنيه أن نكون إمبراطورية وما ثمن ذلك؛ خاصةً عندما نأخذ في اعتبارنا كيف حدث أن هذين الحدثين المترابطين، اللذين بدأ كهمين أمريكيين داخليين، ابتلعا العالم كله. ولنبداً بالأزمة المالية.

تنتهي كل دورة اقتصادية بانهيار، وعادة ما يكون أحد القطاعات في المقدمة؛ فقد انتهى انتعاش كليتون في عام 2000، عندما انهارت شركات الدوت كوم. وانتهى انتعاش ريجان في الثمانينيات بطريقة مذهلة بانهيار المدخرات والقروض. ومن هذا المنظور، لم يكن هناك شيء غير عادي بالمرّة بشأن ما حدث في عام 2008.

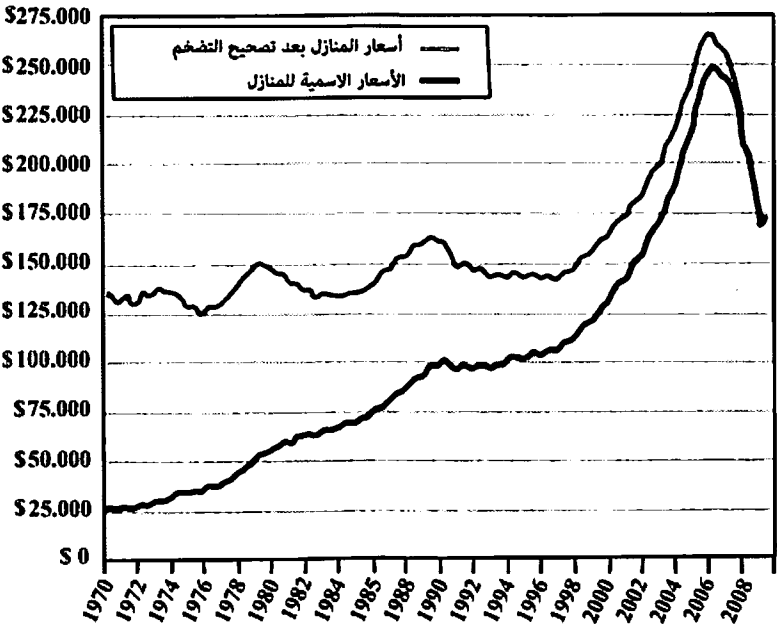
سبب تلك الانتعاشات والانهيارات بسيط إلى حد ما؛ فعندما ينمو الاقتصاد فإنه يولّد المال بما يزيد على استعداد الاقتصاد لاستهلاكه. وعندما يكون هناك فائض من المال يطارد أصولاً كالمنازل أو الأسهم أو السندات، ترتفع الأسعار وتهبط أسعار الفائدة. وفي النهاية، تصل الأسعار إلى مستويات غير معقولة، وبعد ذلك تنهار. ويصبح المال نادراً، وتُجبر الأعمال غير ذات الكفاءة على الإغلاق. وتنجو الأعمال ذات الكفاءة، وتبدأ الدورة من جديد، وقد تكرر هذا مرات ومرات منذ ظهور الرأسمالية الحديثة.

أحيانا تتدخل الدولة في الدورة بالمحافظة على رخص المال؛ لتجنب الانهيار والكساد الذي يعقب ذلك حتمًا، والمال على أية حال حيلة اخترعتها الدولة، ويمكن لبنك الاحتياط الفيدرالي طبع قدر ما يريد من المال، ويمكن أن يشتري به الدين الحكومي. وهذا هو ما فعله بنك الاحتياط الفيدرالي في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر؛ إذ لم تكن حكومة بوش ترغب في رفع الضرائب لسداد تكاليف الحرب على الإرهاب، وتعاون بنك الاحتياط الفيدرالي في تمويل الحرب في المقام الأول بإقراض المال للحكومة - وكانت النتيجة أن أحدًا لم يشعر بالأثر الاقتصادي للحرب - على الأقل في حينه.

نبعت أسباب بوش من الجيوبوليتيكا ومن السياسة الحزبية الداخلية؛ فقد كان في حرب مع الجهاديين، ولم يكن يرغب في زيادة الضرائب من أجل التدخلات العسكرية. وبدلاً من ذلك، أراد بوش أن يرتفع إجمالي العائدات من الضرائب عن طريق الاقتصاد المحفّز، وكانت النظرية هي أن توليفة الإنفاق العسكري وخفض الضرائب وأسعار الفائدة المنخفضة سوف تسمح للاقتصاد بالتحسن فجأة؛ الأمر الذي يزيد عائدات الضرائب بالقدر الكافي لدفع تكاليف الحرب. وفكر بوش في أنه لو لم تنجح مناورة جانب العرض؛ فسوف تظل لديه ميزة عدم تدمير الدعم السياسي، من خلال زيادة الضرائب قبل انتخابات 2004. كما افترض أنه يمكنه التعامل مع الاختلالات الاقتصادية بعد الانتخابات، عندما تنتهي الحرب. وكانت مشكلته أن الحرب لم تنته، وأنه أساء إلى حد كبير تقدير ما ستصبح عليه من طول وشدة؛ ونتيجة لذلك لم يعمد هو أو بنك الاحتياط الفيدرالي إلى تهدئة الاقتصاد، وظلت الحرب وهذه السياسة الاقتصادية تحدد فترة رئاسته.

العامل الآخر الذي أدى إلى انهيار 2008، كان صب المال الرخيص في شريحة بعينها من الاقتصاد، وهي سوق المباني السكنية - وكانت تلك حبة اقتصادية إلى حد ما - فأسعار الإسكان تميل إلى الزيادة بمرور الوقت، وهو ما يعطي العقارات

مظهر الاستثمار المحافظ. وكذلك شجعت البرامج الحكومية الأفراد على شراء المنازل. وخلال تلك الفترة، امتد ذلك التشجيع إلى شريحة من السكان أوسع من قبل. وجلب تصور الأمان - مقرونًا بسياسة الحكومة - مبالغ غير عادية من الأموال إلى السوق، إلى جانب المضاربين وملايين المشترين ذوي الدخل المنخفض الذين ما كانوا ليتأهلوا بحال من الأحوال في الأوقات العادية؛ نتيجة قروض الرهن العقاري التي حصلوا عليها.



(رسم بياني) أسعار المنازل في الولايات المتحدة الأمريكية

كانت أسعار المنازل قد ارتفعت في الجيل السابق، لكن كما يبين الرسم أعلاه، فإن قصة النمو المطرد خادعة إلى حد ما؛ ذلك أنك إذا عدّلت أسعار المنازل حسب التضخم، لوجدت أنها تقلبت على نطاق ضيق، فيما بين عامي 1970 و2000. ولكن قروض الرهن العقاري لا تزيد مع التضخم؛ ولذلك فإنك إذا اقترضت 20 ألف دولار

كي تشتري منزلاً بـ 25 ألف دولار في عام 1970، فبحلول عام 2000 سوف يساوي هذا المنزل حوالي 125 ألف دولار، وستكون قد سددت قرض الرهن العقاري الذي عليك. لكن الـ 125 ألف دولار لم تكن أكثر من 25 ألف دولار من الناحية الفعلية. لقد شعرت أنك أغنى؛ لأن الأرقام أعلى، ولأنك سددت دينك، ولكن الحقيقة هي أن ملكية المنزل ليست طريقة عظيمة لخلق مكاسب حقيقية. فمن ناحية، أظهر السجل أنه لم يكن مرجحاً أن تخسر المال، وذلك ما منح الثقة للمقرضين، وإذا وقع ما هو أسوأ فإنه يمكنهم باستمرار الاستيلاء على المنزل وبيعه، وبذلك يستعيدون مالهم.

مع تمكين المال الرخيص المزيد من الأشخاص لشراء المنازل ازداد الطلب، وهو ما كان يعني أن ترتفع أسعار الإسكان بسرعة الصاروخ في عام 2001، ثم تسارعت أكثر بعد عام 2004، وظل المقرضون يبحثون عن المزيد والمزيد من المقترضين؛ للحصول على مالهم الرخيص، وهو ما كان يعني الإقراض لأشخاص أقل ترجيحاً بكثير أن يسددوا تلك القروض «عالية المخاطر». وكانت الذروة مع اختراع قرض الرهن العقاري متغير سعر الفائدة لمدة خمس سنوات؛ مما مكّن الناس من شراء المنازل بأقساط شهرية، كانت باستمرار أقل من إيجار الشقة. وانفجرت أسعار الفائدة تلك بعد خمس سنوات، ولكن إذا لم يستطع المشتري سداد المدفوعات الجديدة وخسر المنزل، فهو على أقل تقدير يكون قد استمتع لعدة سنوات، وعاد إلى حيث بدأ فحسب. وإذا ظلت أسعار المساكن مطردة الارتفاع، لأمكنه إعادة التمويل، وبذلك لا يبدو بصورة عامة أنه يخاطر بالكثير.

لم يبدو كذلك أن المقرضين يخاطرون بالكثير؛ خاصةً في ظل كسبهم لأموالهم من تكاليف إتمام الصفقة وغيرها من رسوم المعاملة، ثم باعوا القروض العقارية (ونقلوا معها المخاطرة) إلى مستثمرين ثانويين، فيما بات يُعرَف بالحرَم. وعند تجميع تلك القروض من أجل السوق الثانوية، أكد المقرضون تيار دُخُل العمر، الذي جعل القروض عالية المخاطر تبدو بشكل الاستثمار المحافظ المثالي.

كان الجميع يحققون ثروة ولم يصب أحد بأذى، كما كانت أقدم قصة في الكتاب، ولم يهتم معظم الناس أو لم يُريدوا تصديق أن الفقاعة يمكن أن تنفجر.

ومع ذلك فقد بدأ الواقع يفرض نفسه؛ إذ بدأ أصحاب المنازل، الذين ما كانوا ليؤهلوا قط للحصول على قرض عادي في الأوقات العادية، في التأخر عن السداد، وبما أن الأملاك دخلت السوق نتيجة للبيع الإجباري أو حبس الرهن، فقد بدأت الأسعار، التي اعتمد عليها كي تواصل الارتفاع، في الهبوط. وأثناء الفترة السابقة لذلك، كان المستثمرون الصغار قد اشتروا منازل عديدة، وأصلحوها بعض الشيء لتحقيق ربح سريع. ولكن عندما تحول الانتعاش إلى انهيار، وكان المضاربون عاجزين عن بيع المنازل بسرعة لتحقيق ربح، فقد اندفعوا للتخلص منها بأي سعر يمكنهم الحصول عليه؛ الأمر الذي دفع الأسعار إلى مزيد من الهبوط. وبحلول عام 2007، أصبح الهبوط الخفيف الذي بدأ في عام 2005 هزيمة منكرة، والحقيقة أن كل ما حدث هو أن الأسعار عادت إلى أعلى مستوى خلال مداها التاريخي السابق. وكانت الفقاعات تختفي، لكن القيمة الأساسية كانت لا تزال موجودة. ورغم ذلك، فقد دُمّر الكثير من الأشخاص الذين وضعوا أموالاً في تلك المنازل.

مع انهيار سوق المنازل، لم تعد هناك قيمة واضحة لقروض الرهن العقاري، التي كانت قد وضعت في حزم وبيعت للمستثمرين. ولأن هؤلاء المستثمرين كانوا قد اعتقدوا أن الأسعار لن تهبط أبداً، فهم لم يهتموا قط بما كان بالفعل داخل تلك الحزم، ورفع المستثمرون الأكثر جرأة في قروض الرهن العقاري التي جرى حزمها، وهي البنوك الاستثمارية، مثل: بير ستيرنز Bear Stearns وليمان براذرز Lehman Brothers، مراكزهم مالياً مرات عديدة، وفي الوقت الذي كانت فيه مدفوعات القروض واجبة السداد، كانت قيمة الأصول الأساسية من عدم الوضوح بحيث لم يشترها أحد، أو حتى يعيد تمويل القروض. ولأن هؤلاء اللاعبين الكبار

عجزوا عن تغطية مراهنتهم فقد أفلسوا، وبما أن الكثير من الناس الذين اشتروا تلك الاستثمارات المفترض أنها أدوات محافظة، بما في ذلك الأوراق التجارية التي تصدرها البنوك، كانوا في بلدان أخرى، فقد انهار النظام العالمي كله.

غالبًا ما تركز قصة الانهيار على الولايات المتحدة، ولكن الضرر كان عالميًا في واقع الأمر؛ فسكان شرق أوروبا - بولندا والمجر ورومانيا وغيرها من البلدان - الذين لم يكن بمقدورهم في الأيام العادية شراء منزل، قاموا بالشراء؛ إذ كانت البنوك النمساوية والإيطالية بشكل خاص - يدعمها المال الأوروبي والعربي - تريد توفير قروض الرهن العقاري، ولكن أسعار الفائدة في شرق أوروبا كانت مرتفعة. ولذلك قدمت البنوك لهؤلاء المشتريين الجدد المتلهفين المفتقرين إلى الخبرة قروضًا بأسعار فائدة أدنى بكثير، وكانت مقومة فحسب باليورو والفرنك السويسري، بل والين.

المشكلة هي أن أصحاب المنازل هؤلاء لم يكونوا يتقاضون رواتبهم بهذه العملات، وإنما بالزلوتي أو الفورينت<sup>(\*)</sup>. وكان صاحب البيت البولندي - على وجه الخصوص - يسدد قرضه أولاً بشراء الين، ثم يدفع للبنك. وكلما قل عدد ما يشتريه الزلوتي من العملة اليابانية، كان مقدار ما يتعين على صاحب المنزل إنفاقه من الزلوتي أكبر وأصبح قسطه الشهري أعلى ثمناً. أما إذا ارتفع سعر الزلوتي مقابل الين أو الفرنك السويسري، فلم تكن هناك مشكلة. ولكن إذا هبط الزلوتي مقابل الين أو الفرنك الفرنسي، تصبح هناك مشكلات ضخمة، وكل شهر كانت أعداد أكبر وأكبر من أهل شرق أوروبا يشترون اليورو وغيره من العملات. وعندما استفحلت المشكلة، كان هناك هروب إلى الأمان؛ وهبطت أسعار عملات شرق أوروبا. وتعرض أصحاب المنازل للضغط والإفلاس.

(\*) الأول عملة بولندا والثاني عملة المجر (المترجم).

دائمًا ما تنتهي التوسعات الكبيرة باللاعقلانية المالية، وكانت تلك اللاعقلانية عالمية؛ فإذا كان الأمريكيون قد فعلوا ما يمكن فعله مع القروض عالية المخاطر، فقد قطع الأوروبيون خطوة أبعد بإغراء أصحاب المنازل على المقامرة في أسواق العملات العالمية.

هناك لازمة تقول إننا لم نشهد مثل هذا الحدث الاقتصادي المفجع منذ الكساد العظيم. وهذا ليس صحيحًا ثلاث مرات؛ لأن الانهيارات المشابهة وقعت في ثلاث مرات أخرى منذ الحرب العالمية الثانية. وهذه حقيقة مهمة لفهم العقد المقبل؛ لأنه إذا كان بالإمكان تشبيه الأزمة المالية بالكساد العظيم فحسب، فحينئذ قد يكون من الصعب تقديم حجتي بشأن القوة الأمريكية. ولكن إذا كان هذا النوع من الأزمات شائعًا نسبيًا منذ الحرب العالمية الثانية، فحينئذ تقل أهميته، ويكون من الأصعب قول إن ذعر 2008 يمثل ضربة ضخمة للولايات المتحدة.

الحقيقة هي أن تلك الأحداث شائعة. ففي سبعينيات القرن العشرين، على سبيل المثال، كان هناك تهديد كبير لسوق سندات البلدية؛ فالسندات التي تصدرها الولايات والحكومات المحلية جذابة - إلى حد كبير - لأنها لا تخضع للضريبة الفيدرالية. وتعتبر هذه السندات كذلك خالية من المخاطر إلى حد كبير، ويُفترض أن الكيانات الحكومية لم تتأخر في سداد ديونها مادامت لديها القدرة على فرض الضرائب. إلا أنه في السبعينيات، من القرن العشرين، لم تستطع مدينة نيويورك سداد المدفوعات، أو لم ترد، زيادة الضرائب. وإذا عجزت نيويورك عن السداد، فسوف يدخل نظام التمويل الخاص بالولاية والحكومة المحلية كله في فوضى، ولذلك قامت الحكومة الفيدرالية بإنقاذ نيويورك، موضحةً أن واشنطن مستعدة لضمان السوق.

وخلال الفترة نفسها، كانت هناك زيادة كبيرة في الاستثمار في العالم الثالث - في المقام الأول لتمويل تطوير الموارد الطبيعية كالتنقيب والمعادن - وكانت أسعار

المعادن ترتفع إلى جانب كل شيء آخر في السبعينيات، وافترض المستثمرون أنه نظرًا لأن المعادن محدودة الحجم، ولا يمكن تعويضها، فإن الأسعار لن تهبط أبدًا. وافترض المستثمرون كذلك أن القروض لحكومات العالم الثالث التي كانت عادةً ما تتحكم في تلك الموارد آمنة، بناءً على تصور أن البلدان ذات السيادة لا تعجز أبدًا عن سداد الدين.

في منتصف الثمانينيات، اتضح أن الإيمان بالأسعار المرتفعة والحكومات المستقرة، كشأن معظم الافتراضات المريحة، مضلل؛ إذ هبطت أسعار المعادن والطاقة، وانهارت الصناعات الاستخراجية القائمة على الأسعار المرتفعة، وضاع المال المستثمر؛ حيث ضُخَّ معظمه كقروض، واختارت بلدان العالم الثالث - التي أُجبرت على الاختيار بين الامتناع عن السداد وزيادة الضرائب الذي كان سيزيد من إفقار مواطنيها ويشير الانتفاضات - الامتناع عن السداد الذي هدد بإغراق النظام المالي العالمي، وأسفر هذا عن عملية إنقاذ متعددة الجنسيات لَدِين العالم الثالث بقيادة الولايات المتحدة. وفي عهد جورج بوش الأب، أوجد وزير الخزانة نيكولاس برادي Nicholas Brady نظام ضمانات باصداره ما سُمي «سندات برادي» لخلق الاستقرار.

أعقبت ذلك أزمة المدخرات والقروض؛ فقد مُنحت مؤسسات المدخرات والقروض، التي أنشئت لأخذ ودائع المستهلكين وتوليد قروض الإسكان - ولتذكر جيمي ستewart Jimmy Stewart في فيلم «إنها حياة رائعة»؛ إذ إن حق الاستثمار في الأصول الأخرى هو ما قادها إلى سوق العقارات التجارية، واتضح أن هذه مجرد خطوة صغيرة بعد سوقهم الإسكانية التقليدية، وحمل التوسع ضمان «الحكمة التقليدية» نفسه بأن الأسعار لن تهبط أبدًا. وفي اقتصاد متنامٍ - أو هكذا كان يُظن - لم يكن أمام سعر العقارات التجارية، من المباني الإدارية إلى المراكز التجارية، سوى الارتفاع.



ومرة أخرى حدث ما لم يكن متخيلاً؛ إذ هبطت أسعار العقارات، وذهب الكثير من القروض التي قدمتها مؤسسات المدخرات والقروض إلى العجز عن السداد. وكان حجم المشكلة كبيراً وله أثران مختلفان، أولاً: كانت أموال المودعين الأفراد في خطر على نطاق واسع، وثانياً: كان فشل شريحة صناعة التمويل برمتها، التي كانت قد أعادت بيع قروض الرهن العقاري التجارية الخاصة بها في سوق أوسع، يشي بوقوع كارثة.

تدخلت الحكومة الفيدرالية بالسيطرة على مؤسسات المدخرات والقروض، وهو ما يعني معظم مؤسسات المدخرات والقروض، وتحملت التزاماتها، وحبس رهن القروض التي عجز المقترضون عن سدادها، واستولت عليها مؤسسة أنشئت حديثاً تسمى هيئة حل الصناديق. وبدلاً من محاولة بيع كل هذه العقارات في وقت واحد - مما يدمر السوق في العقد المقبل - سيطرت هيئة حل الصناديق، تدعمها ضمانات فيدرالية، يحتمل رفعها إلى حوالي 650 مليار دولار، على عقارات مؤسسات المدخرات والقروض الفاشلة.

كانت أزمة 2008 تقوم على الرغبة نفسها في مخاطرة منخفضة، وعلى الافتراض نفسه بأن فئة بعينها من الأصول كانت في واقع الأمر منخفضة المخاطر؛ لأن سعرها لا يمكن أن يهبط. وقد قوبلت بتدخل حكومي فيدرالي مشابه لإنقاذ النظام. وكما حدث من قبل، كان الكل يرى أنها نهاية الرأسمالية. والأمر المهم ملاحظته هو النمط الثابت، بما في ذلك المبالغة في النتائج. وهذه إلى حد ما ظاهرة نفسية، فمع الألم يأتي الفرع، وإدارة الفرع مسألة قيادة. ولنبحث كيف كان يُدار في الماضي.

تولى فرانكلين روزفلت ورونالد ريجان السلطة وسط أزمات اقتصادية. وبالطبع واجه روزفلت الكساد العظيم. وواجه ريجان الركود الضخم الذي تغلب على الاقتصاد في سبعينيات القرن العشرين - معدل البطالة المرتفع المقرون بال تضخم وأسعار الفائدة المرتفعة - وكانت المشكلات الاقتصادية التي واجهها

الرئيسان جزءاً من الانزياحات الاقتصادية العالمية، وكان كلاهما يمثل أزمة ثقة عميقة في الولايات المتحدة. وكانت الأزمة في الثلاثينيات وراء عبارة روزفلت الشهيرة: «ليس لدينا ما نخافه سوى الخوف نفسه».

فهم روزفلت وريجان العنصر النفسي في الأزمات الاقتصادية؛ إذ يجعل توقع الضائقة الاقتصادية الناس يقللون الشراء لحماية أنفسهم. وكلما قل إنفاقهم، أصبحت المشكلات أكثر سوءاً؛ فكلما تفاقت مشكلة اقتصادية ما، فإنها تخلق شعوراً بالشك في سلامة النخب وقيادتها، الأمر الذي يمكن أن يخلق عدم الاستقرار السياسي ويزعزع استقرار المجتمع نفسه، وهذا الشك الاجتماعي بدوره يجعل من المستحيل أن يتصرف البلد بشكل حاسم في العالم. وواجه روزفلت ظهور الفاشية، وتولى ريجان السلطة، وهو يواجه ما كان يُعتقد بصورة عامة قوة الاتحاد السوفيتي المتنامية. ولم يقدر أي منهما على تحمل نتائج الأزمة الاقتصادية الشديدة المزعزة للاستقرار، ومع ذلك يعرف أي منهما بأي قدر من التأكد كيف يحل المشكلة من خلال السياسة الاقتصادية، وواجه كلاهما نفس المشكلة في محاولة لخلق الإحساس بأن شيئاً ما يجري عمله، وهو الأمر الأكثر أهمية.

إذا عدنا بالنظر إلى السوراء، كان لأيام روزفلت المائة المخيفة من التشريع أثر ضعيف على الكساد العظيم، الذي أنهته الحرب العالمية الثانية، وليس سياساته الاقتصادية. ووعده ريجان كذلك باتخاذ إجراءات، وإن لم يفرض الرئيسُ الحلَّ في نهاية الأمر، بل فرضه بنك الاحتياط الفيدرالي. وعلى الرغم من ذلك فإنه بوصف تلك الأوقات بأنها «الصبح في أمريكا»، وهي العبارة التي كانت جزءاً من حملته الانتخابية في عام 1984، فقد حاول ريجان، شأنه شأن روزفلت من قبله، تغيير توقعات الجماهير، مثبتاً الوضع السياسي ومشترياً الوقت؛ كي يتعافى الاقتصاد دون إضعاف الدولة.

فهم روزفلت وريجان أن خطر الأزمة الاقتصادية الحقيقي سيكون أثرها الاقتصادي، حيث يدمر البؤس الذي تراكم النظام كـله. كما فهما أن وظيفتهما كقائدان ليست هي حل المشكلة؛ - فالرئيس في واقع الأمر ليست له سيطرة كبيرة على الاقتصاد - بل عليه إقناع الجماهير ليس فقط بأن لديه خطة، وإنما بأنه واثق تمامًا من نجاح تلك الخطة، وأن المتشائم أو الشخص اللامبالي بما فيه خير الجماهير هو فقط الذي سيجرؤ على التشكيك فيه، فيما يتعلق بالتفاصيل. وليس بالأمر السهل أن يوفق؛ فهو يحتاج إلى سياسي بارع، وهو ما يعني كونه بارعًا في الوهم. ومن المؤكد أن روزفلت أنقذ البلاد من عدم استقرار خطير، ورغم أن عدم التعافي جعلها تخوض الحرب العالمية الثانية. وأنقذ ريجان البلاد من الإحساس بالاعتلال، الذي اشتهرت به إدارة كارتر وأعد المسرح لانعكاس الحظ مع السوفييت.

فعل روزفلت وريجان شيئًا آخر كان من سلطتهما للتعامل مع الأزمة؛ فقد غيرا الحدود بين العام والخاص، والدولة والسوق، إذ زاد روزفلت سلطة الحكومة الفيدرالية بشكل كبير، وأنقصها ريجان. ولم تكن المشكلة التي يعالجها هي المشكلة الاقتصادية نفسها، بل الأزمة السياسية الأساسية؛ ففي كساد عام 1929 فقدت النخبة الاقتصادية ثقة الجماهير، ولم يكن أفرادها فاسدين بقدر ما كانوا غير أكفاء. وكان قد سُمح لهم في عهد هوفر Hoover بالعمل دون قيود، لكن الوضع صار أسوأ بعد ذلك، وتدخل روزفلت بنقل بعض السلطة، التي كانت في أيدي النخبة المالية إلى النخبة السياسية. ولو لم يفعل ذلك، لكان من الممكن أن يسود الشعور بأن نخب البلاد فشلت، وهو الرأي الذي أدى إلى الفاشية في أماكن كإيطاليا وألمانيا.

حدث العكس في عهد ريجان؛ ففي الثمانينيات، من القرن الماضي، كان التصور هو أن النخبة السياسية وراء الأزمة الاقتصادية، وألقت الجماهير باللوم على بنية «الحكومة الكبيرة» التي خلّفتها روزفلت. وأعاد ريجان التوازن بين الدولة والسوق إلى الاتجاه الآخر، وهو إضعاف الدولة لتقوية السوق.

لابد أن يكون لجزء من إعادة بناء الثقة علاقة بفهم أي جزء من النخبة - السياسية والمالية والإعلامية والشركات - يجب تحميله مسئولية الأزمة. وبوضع مجموعة أو أخرى من النخب تحت الحراسة القضائية، مع نقل سلطتها بطرق عديدة إلى النخب الأخرى، أعطى ريجان وروزفلت الجماهير إحساسًا بأن الرئيس يتصرف بحسب ويسحب السلطة ممن فشلوا. وخفف ذلك من الإحساس بأن الجميع لا حول لهم ولا قوة. والواقع أنه مهد السبيل على أقل تقدير لبعض الإصلاحات التي لا تؤذي، وربما ساعدت، ومن المؤكد أنه كانت هناك حاجة إليها من الناحية الرمزية. وفي النهاية حُلَّت المشكلات بسبب قوة الولايات المتحدة الأساسية؛ وبسبب بروز الدولة الحديثة والشركة، اللتين لا يمكن أن تعيشا منفصلتين، غير أن هناك مشكلة في عيشهما معًا.

لم ينجح بوش أو أوباما في إدارة الروح القومية مثلما نجح روزفلت وريجان؛ إذ فقد بوش السيطرة على الحرب، وجاءته الأزمة المالية من حيث لا يحتسب.. لقد بات غير مساير للأحداث بعد العراق ولم يمكنه اللحاق بها قط. وخلق أوباما توقعات لم يمكنه تحقيقها، ثم فشل في خلق وهم أنه يحققها، ولكن واقع الأمر أن ريجان واجهته مشكلات مشابهة في البداية.. والقضية غير المعروفة، وسوف تؤثر على العقد المقبل بشدة، هي ما إذا كان بإمكان أوباما أن يتعافى ويتقدم أم لا. هل يمكن أن يفهم أنه عندما تحدث روزفلت عن الخوف من الخوف، كان يعني أن وظيفة الرئيس هي أن يبدو فعالاً، سواء أكان كذلك أم لا؟ إذا كان أوباما لا يعلم ذلك فستنجو الدولة. والرؤساء يأتون ويذهبون، لكن هذا زمن هش، تكون فيه شرعية الرئيس والبلد نفسه عالقة بين مطالب الجماهير والإمبراطورية.

عندما نتحدث عن تغيير الحدود بين نخب الشركات والنخب السياسية، والدولة والسوق، يشير هذا حتمًا قضايا أيديولوجية؛ فاليسار يرى أن تقوية نخبة الشركات والسوق تهدد الديمقراطية والمساواة، ويرى اليمين أن تقوية النخبة السياسية

والدولة تهدد الحرية الفردية وحقوق الملكية. وهو جدل شيق يجب مشاهدته، غير أن المشكلة ليست أخلاقية أو فلسفية بل عملية فقط، والفرق الكبير الذي يدفع إلى هذا الجدل الأيديولوجي الساخن لا وجود له فحسب.

السوق الحرة الحديثة من اختراع الدولة، وقواعدها لا تُفرض بشكل طبيعي، بل هي مجرد نتيجة للترتيبات السياسية. وسبب قولِي ذلك هو أن الأساس العملي للاقتصاد الحديث، هو التعاون، والتعاون حيلة تجعلها الدولة ممكنة. والشركة اختراع غير عادي؛ فهو يخلق كيأنا يقول القانون إنه مسئول عن ديون العمل التجاري. والأفراد الذين يملكون الأعمال التجارية - سواء أكانت ملكية مفردة أم كيأنا مملوكا ملكية عامة ضخمة - ليسوا مسئولين عن تلك الديون بشكل شخصي، ولا يمكن أن يكون كشفهم أكبر من استثمارهم الأولي. وبهذه الطريقة ينقل القانون والدولة المخاطرة من المدينين إلى الدائنين، وإذا فشل العمل التجاري تُحمَل المسؤولية للدائنين. ولم يكن لشيء كهذا وجود قبل مولد «الشركات ذات الامتياز» في القرن السابع عشر. فقبل ذلك، إذا كنت تمتلك عملاً تجاريًا، فأنت مسئول عنه بالكامل. ودون هذا التجديد ما كان ليصبح هناك وجود للبورصة كما نعرفها، ولا استثمار في الشركات الناشئة، والقليل من تنظيم الأعمال.

لكن تقسيم المخاطر هذا قرار سياسي؛ إذ ليس هناك شيء طبيعي في فكرة رسم حدود المخاطرة الفردية حيثما هي. فالواقع أن هذه الحدود تتغير على مر الزمن، والشركة موجودة فقط لأن القانون أوجدها. ويعني كذلك القرار السياسي الخاص بإنشاء الشركات، أن قانون الشركات وليس قانون الطبيعة، هو الذي يحدد الحدود الدقيقة للمخاطرة والمسؤولية. وربما يوجد من الناحية النظرية نوع ما من السوق الطبيعية، ولكن السوق التي تهيمن عليها شركات المسؤولية المحدودة، بدءًا من شركات مجلة «فورشن» Fortune الخمسمائة حتى السباك المحلي، سياسية بطبعها.

منذ عام 1933، ربط «الاتفاق الجديد»، قضية مخاطرة الشركات بقضية الاستقرار الاجتماعي، وقد بُني هيكل المخاطرة حول المتطلبات الاجتماعية. وأثناء إدارة روزفلت، اتسعت حدود سيطرة الدولة، وانكشفت في عهد ريجان.

ما فعلته أزمة 2008 في أنحاء العالم، هو إعادة رسم الحدود بين الشركات والدولة، وهو ما زاد نفوذ الدولة ونفوذ الساسة، وقلل استقلال السوق ونفوذ النخبة المالية. وكان لذلك أثر أدنى على الصين وروسيا؛ حيث كان النظام يميل بالفعل نحو الدولة. وكان له بعض الأثر على أوروبا، حيث نفوذ الدولة أكبر مما في الولايات المتحدة. وكان له أثر ضخم على الولايات المتحدة؛ حيث كانت الهيمنة للسوق والنخبة المالية منذ عهد ريجان. كما استهل شجارًا سياسيًا بين اليسار واليمين بشأن ما إذا كان هذا التغيير مبررًا أم لا. وفي الولايات المتحدة على وجه الخصوص، تتغير الحدود باستمرار وتُصاغ الحجة باستمرار بلغة أخلاقية، ورغم الاختلافات، فسوف تكون تقوية الدولة واحدة من سمات العقد المقبل عالميًا.

بالإضافة إلى المساعدة في رسم الحدود بين الدولة وسيطرة الشركات، يدير الرؤساء والساسة الآخرون مظهر الأشياء، بشكل كبير من خلال التلاعب بالخوف والرجاء. وما جعل روزفلت وريجان عظيمين لم يكن فقط أنهما عدلاً من جديد حدود الدولة والسوق؛ لتلائم حاجات فترتيهما التاريخيتين، بل إنهما خلقا كذلك الجو، الذي لم يبد فيه هذا على أنه ليس عملية فنية فحسب، بل بدا كذلك ضرورة أخلاقية. وما إذا كانا قد صدقا ذلك، أم لم يصدقا، فذلك أمر أقل أهمية من حقيقة أنهما جعلوا الآخرين يصدقونه، ومن خلال هذا التصديق مكنا إعادة الاصطفاف الفني من الحدوث.

سيكون أهم أثر لأزمة 2008 على العقد المقبل جيوبوليتيكيًا وسياسيًا وليس اقتصاديًا، ما أوضحته الأزمة المالية من أهمية السيادة القومية، ذلك أن البلد الذي لم يسيطر على نظامه المالي أو عملته، كان معرضًا بشدة لخطر إجراءات البلدان

الأخرى. ومن منظور هذا الوعي، لم تعد كيانات كالاتحاد الأوروبي تُرى على أنها حميدة كما كانت من قبل. وفي العقد المقبل سوف يتعد الاتجاه عن تقييد السيادة الاقتصادية، ويتحول إلى زيادة القومية الاقتصادية.

سيكون هناك أثر مشابه على المستوى السياسي، فقد اندلع صراع ضخم نراه في الصين وروسيا وأوروبا والولايات المتحدة، وأماكن أخرى بين النخب الاقتصادية والسياسية. ولأن فشل السوق والنخبة الاقتصادية يكلف الأخيرة فقدان المصداقية؛ فمن الواضح أن الفوز في الجولة الأولى كان من نصيب الدولة والنخبة السياسية. وفي بعض البلدان، سوف يستمر هذا التحول لفترة طويلة. وفي الولايات المتحدة، انهارت الهدنة التي كانت قائمة منذ سنوات ريجان، وستظل المعركة محتدمة. و«محتدمة» هي الكلمة المناسبة؛ ذلك أن تلك هي نبرة النقاش، ولكن السياسة الأمريكية تتسم بالمبالغة باستمرار، بينما الرؤى المتشائمة خافتة دائمة. ومع ذلك يجد العالم أن عدم اليقين السياسي بشأن تلك القضايا الأساسية في الولايات المتحدة يزيد على كونه مزعجاً بعض الشيء.

من الغريب - إلى حد كبير - أنه على المستوى الاقتصادي سيكون لألم عام 2008 أقل قدر من الآثار الدائمة. ومن العبث مقارنة هذا الهبوط بالكساد العظيم؛ فقد هبط إجمالي الناتج العام بنسبة 50 بالمائة تقريباً أثناء الكساد العظيم. وفيما بين 2007 و2009 هبط إجمالي الناتج المحلي بنسبة 2,1 فحسب؛ بل إن هذا ليس هو أسوأ ركود منذ الحرب العالمية الثانية. فهذا الشرف يخص ركود السبعينيات وأوائل الثمانينيات، عندما رأينا ضربة ثلاثية: البطالة والتضخم بنسبة تزيد على 10 بالمائة، ومعدلات الفائدة على قروض الرهن العقاري تزيد على 20 بالمائة.

مع أن الأزمة الاقتصادية الحالية لا تشبه ذلك؛ فهي مؤلمة رغم ذلك، وليس لدى الأمريكيين قدرة كبيرة على تحمل الألم الاقتصادي؛ بل إن هناك قضايا أكبر في الأفق تتجاوز هذا العقد، عندما تتغير الديموغرافيا وتصبح العمالة نادرة، وتصبح قضية

الهجرة أمرًا مهمًا، يواجه الولايات المتحدة. ولكن هذا لا يزال بعيدًا جدًا، ولن يؤثر على العقد المقبل. فهذا العقد لن يكون عقدًا يتسم بالحيوية، وسوف يرهق الحياة الفردية والنظام السياسي، ولكنه لن يغير النظام العالمي الأساسي كثيرًا، وستظل الولايات المتحدة القوة المهيمنة. ومن المفارقة أن أحد مقاييس هيمنة الولايات المتحدة هو مقدار تأثير حساب النخبة المالية الأمريكية على العالم، ومقدار الألم الذي يمكن أن تسببه الأخطاء الأمريكية لكل من سواهم كافة.



## الفصل الرابع

### البحث عن توازن القوى

أجبر هجوم القاعدة في الحادي عشر من سبتمبر الولايات المتحدة على رد تصاعدي ليصبح حربًا على مسرحي عمليات، وقتالًا أقل في عدد كبير من البلدان الأخرى، وتهديدًا بالحرب مع إيران. لقد حدد هذا الهجوم معالم العقد المنصرم، وسوف يكون مركز اهتمام الجزء الأول من العقد المقبل على الأقل.

من الواضح أن الولايات المتحدة تريد القضاء على القاعدة وغيرها من الجماعات الجهادية؛ كي تحمي الوطن من الهجوم. وفي الوقت نفسه مصلحة أمريكا المهمة الأخرى، في هذا السياق، هي حماية جزيرة العرب ونفطها؛ ذلك النفط الذي لا تريد الولايات المتحدة رؤيته في أيدي قوى إقليمية وحيدة. وبما أن للولايات المتحدة نفوذًا في المنطقة، فقد فضلت أن ترى نفط جزيرة العرب في أيدي العائلة الملكية السعودية الموالية والمشيوخ الأخرى، التي كانت تعتمد نسبيًا على الولايات المتحدة، وسوف يظل ذلك ضرورة استراتيجية.

البديهية التي تصوغ الخيارات الأمريكية هي أن بلدين فقط في المنطقة، كان من المحتمل أن يكونا كبيرين وقويين بما يكفي للهيمنة على شبه الجزيرة العربية، وهما إيران والعراق. وبدلاً من احتلال جزيرة العرب لحماية تدفق النفط، اتبعت الولايات المتحدة استراتيجية الإمبراطورية الكلاسيكية، وهي تشجيع التنافس بين إيران والعراق، محرضة إحداهما على الأخرى؛ لموازنة قوة كل منهما، وبالتالي

تحديدًا بشكل فعال. وهذه الاستراتيجية سبقت سقوط شاه إيران في عام 1979، حين شجعت الولايات المتحدة الصراع بين إيران والعراق، ثم تفاوضت على تسوية بينهما أدامت التوتر.

عقب سقوط الشاه، هاجمت حكومة صدام حسين - العلمانية إلى حد كبير لكنها سُنية من الناحية العرقية - الدولة الإسلامية والشيعية في غالبيتها. وخلال الثمانينيات من القرن العشرين، بدلت الولايات المتحدة ثقلها بين الجانبين في محاولة لإطالة الحرب، من خلال التأكد من عدم سقوط أي من الجانبين. وحاول صدام المطالبة بشبه جزيرة العرب، حيث بدأ بغزو الكويت. وفي تلك اللحظة استخدمت الولايات المتحدة قوة كاسحة، لكن لوقت يكفي لإخراج العراق وليس لغزوه. ومرة ثانية تأكدت الولايات المتحدة من أن توازن القوى الإقليمي نفسه، وبالتالي حماية تدفق النفط من شبه جزيرة العرب - اهتمام أمريكا الجوهري - دون الحاجة إلى احتلال أمريكي.

كان ذلك هو الوضع القائم، عندما حاول أسامة بن لادن إعادة تحديد الواقع الجيوبوليتيكي في الشرق الأوسط وجنوب آسيا في الحادي عشر من سبتمبر 2001؛ فقد أحدث بالهجمات على نيويورك وواشنطن أُلْمًا ومعاناة، ولكن الأثر الأكثر عمقًا للعمل الذي أحدثه كان إغراء الرئيس الأمريكي على التخلي عن استراتيجية أمريكا القديمة الناجحة، والواقع أن بن لادن نجح في جعل الرئيس الأمريكي يتلع الطُعم.

على المدى الطويل، كان هدف بن لادن هو أن يعيد الخلافة، وهي حكم الإسلامي المركزي الذي تأسس في القرن السابع الميلادي، وظل يهيمن على الشرق الأوسط حتى سقوط الدولة العثمانية. وفهم بن لادن أنه حتى لبداية تحقيق هذه العودة للوحدة الجيوبوليتيكية الدينية، فإنه سوف يتعين على الدول القومية في العالم الإسلامي القيام بثورات لخلع حكوماتها الحالية، ثم تستعويض عنها بأنظمة إسلاموية، تشترك في رؤيتها ومعتقداتها. وفي عام 2001، كانت الدولة القومية

الوحيدة التي شاركت رؤيته بالكامل هي أفغانستان، فهي كبلد منعزل ومتخلف يمكن أن تكون بمثابة قاعدة للعمليات، ولكن بشكل مؤقت فحسب. ويمكن أن تكون معبراً إلى دول مهمة أخرى كباكستان والمملكة العربية السعودية ومصر، ولكنها كانت من العزلة والبداية بحيث لا يمكن أن تكون أكثر من ذلك.

كان تحليل بن لادن هو أن كثيرين في العالم الإسلامي يشاركونه معتقداته على نحو أو آخر، ولكن في ظل واقع القوة سيكون تأييدهم مفتقراً إلى الحماس، وغير كافٍ لتحقيق غاياته. ولكي يبدأ بن لادن في تحريك مشروعه قُدماً، كان عليه إثارة انتفاضة في أحد البلدان الإسلامية الأكثر أهمية، ويفضل أن يكون هذا في عديد منها. وكان تحقيق ذلك مستحيلاً، مادامت الجماهير المسلمة ترى حكوماتها على أنها وحدات بالغة القوة لا يمكن إزالتها.

هذه المشكلة، كما رآها بن لادن، كانت في المقام الأول مشكلة إدراك؛ لأن الحكومات في المنطقة كانت في واقع الأمر أضعف مما تبدو عليه، فالقوة العسكرية والاقتصادية الظاهرة لباكستان والمملكة العربية السعودية ومصر كانت تنبع من علاقة تلك البلدان مع العالم المسيحي (كما كان يراه هو)، وبشكل خاص القوة المسيحية الرئيسية، وهي الولايات المتحدة. لكن بن لادن افترض أن هذه الحكومات - على الرغم مما لديها من قوة مستعارة - كانت لا تزال هشة. وكانت مهمته هي بيان نقاط الضعف لدى تلك للجماهير المسلمة، ثم تحريك سلسلة من الانتفاضات، التي تغير سياسة العالم الإسلامي. وقد فشل في ذلك، لكن أتباعه واصلوا تلك الاستراتيجية، وسوف تظل محاولاتهم لإعادة تشكيل سياسة العالم الإسلامي، التي تجري منذ القرن التاسع عشر، فكرة جيوبوليتيكية مهمة تخص العقد المقبل.

كان الهدف القصير المدى لهجمات الحادي عشر من سبتمبر، هو تعجيل هذه العملية بمهاجمة أهداف أمريكية بارزة في قلب هيكل القوة الإمبراطورية، وكان

أمل بن لادن هو أنه بكشف هشاشة حتى الولايات المتحدة؛ مما يمكنه من القضاء على التصورات المسلمة بأن حكوماتهم منيعة.

كانت هجمات الحادي عشر من سبتمبر تتعلق بشكل هامشي بالولايات المتحدة فحسب، ولم يكن الرد الأمريكي على مناورة بن لادن بهم كثيرًا؛ لأن أي رد كان يمكن استخدامه لمصلحته. وإذا لم يفعل الأمريكيون شيئًا، كان ذلك سيؤكد ضعفهم، وإذا رد الأمريكيون بعدوانية، كان ذلك سيؤكد أنهم في واقع الأمر أعداء للإسلام.

لكن مع أن الهجمات كانت تستهدف - في المقام الأول - الروح المسلمة، فقد اتضح أن الأثر النفسي على الأمريكيين مهم بشكل هائل؛ إذ خلق عدم توقع الهجمات، وحقيقة أنها نُظمت باستخدام وحدات من الحياة اليومية - الخطوط الجوية التجارية - وحقيقة أن الخسائر كانت هائلة، إحساسًا بالفرع. كم يوجد من الفرق الأخرى؟ أين ستضرب القاعدة ضربتها التالية؟ هل تمتلك القاعدة أسلحة دمار شامل؟ بل إنه على نحو يزيد عما كان في أعقاب بيرل هاربر، خرج الأمريكيون من صدمة الحادي عشر من سبتمبر بإحساس من الرعب الشخصي؛ فإمكانة أن يُقتلوا هم ومن يحبونهم في المرة التالية كانت أمرًا شديد الواقعية في رأيهم، وكان ذلك إحساسًا شائعًا وعميقًا بعدم الارتياح، والذي كان على الحكومة معالجته بأن يبدو أنها تتخذ إجراء حاسمًا.

عملت الإنذارات التي انطلقت بين أفراد الشعب الأمريكي على مضاعفة المشكلة الاستراتيجية التي تواجه الحكومة الأمريكية - فالقاعدة نفسها - لو لم تملك أسلحة الدمار الشامل؛ فهي لم تكن تمثل تهديدًا استراتيجيًا حقيقيًا، ولن يمكنها تحطيم الولايات المتحدة. ومع ذلك، فإن التعطيل الذي بدأته حقق الأثر المرغوب في العالم الإسلامي، وبدأت الأنظمة المرتبطة بالولايات المتحدة في السقوط، وسيكون لهذا في نهاية الأمر أثر ضخم على الاستراتيجية الأمريكية؛ فإذا ما أُطيح بالحكومة المصرية، على سبيل المثال، فسوف يتغير وضع إسرائيل وسوف

يهتد مركز ثقل أمريكي في المنطقة. وإذا تعرضت الحكومة السعودية للخطر، فقد ينقطع تدفق النفط من المنطقة. ولم يكن الخطر الاستراتيجي هو تدمير المراكز السكانية أو البنية التحتية الاقتصادية أو القوة العسكرية الأمريكية، بل كان ببساطة نجاح القاعدة السياسي المحتمل في المنطقة، هذا بالإضافة إلى حلم بن لادن البعيد الخاص بالخلافة.

عرّفت الولايات المتحدة، وكذلك القاعدة، ميدان المعركة الاستراتيجي تعريفاً واضحاً: قلوب المسلمين وعقولهم. ولكن الرئيس كان يرى أنه لا بد أولاً من تهدئة عقول الأمريكيين وقلوبهم وطمأنتها بأن الإجراءات تُتخذ لحماية الوطن. وتحرك مكتب التحقيقات الفيدرالي بجرأة لملاحقة أي شخص مشتبه به - ولو من بعيد - بكونه مرتبطاً بالقاعدة، مع تعزيز الأمن في المطارات، لكن أي الجهاديين لم يكن فعالاً بشكل كبير في ذلك الحين. ومن نواحٍ عديدة واصلت الولايات المتحدة العمل، بموجب مبدأ ضخ الموارد الضخمة في إجراءات الأمن ذات الفاعلية المحدودة؛ لتهدئة المخاوف المشروعة للجماهير الأمريكية، وسوف يكون التوفيق بين الموارد والواقع العملياتي والتصور العام عملاً مهمّاً بالنسبة للعقد المقبل.

اقتضى كذلك الهجوم على إحساس أمريكا بالرعاية إلقاء القبض على قادة القاعدة أو قتلهم. ومن الناحية الاستراتيجية كانت تلك أولوية مشكوكاً فيها، ولكن الرئيس كان يتعين عليه تلبية ليس الرغبة في الاطمئنان فحسب، بل كذلك الرغبة في الانتقام. وهذا الانتقام ضاعفته حقيقة أن القاعدة شبكة متناثرة منتشرة في أنحاء العالم، وتعمل بلا مقر مركزي أو سلسلة قيادة تقليدية - وتشجع القاعدة المتعاطفين على أن يعملوا بشكل مستقل وأن يبتكروا - ولذلك فمع أنه من الممكن تنفيذ أعمال عقابية ضد هؤلاء الإرهابيين، فمن المستحيل تدمير القاعدة في واقع الأمر؛ لأنها ليست تنظيمًا بالمعنى التقليدي، ولأنه ليست هناك بنية تحتية ولا سلسلة قيادة، فليس هناك رأس حقيقي يمكن قطعه.

ما كان له معنى استراتيجي هو الحد الأدنى من إدخال القوة لتعطيل تخطيط القاعدة وتدريبها وقدراتها القيادية المحدودة، فقد كانت القاعدة تعتبر نفسها آمنة، وهي تعمل في أفغانستان، وهي بلد بلا موانئ بحرية. وكان لبن لادن وزملائه معرفة ما بالعمليات الأمريكية، من ملاحظة عملية عاصفة الصحراء في عام 1991، ومن التدريب مع الأمريكيين في أفغانستان أثناء الحرب السوفيتية الأفغانية في الثمانينيات من القرن الماضي. وأظهرت عاصفة الصحراء على وجه الخصوص للقاعدة أنه حتى عندما كانت الموانئ متاحة، كان الأمريكيون يخططون بطريقة تكتنفها الوسواس، ويستغرق التخطيط وقتًا طويلاً. ومع اقتراب العدو، كان تقدير القاعدة العقلاني هو أنه حتى إذا اختارت الولايات المتحدة الذهاب للبحث عنهم في أفغانستان، فلن يكون هناك إجراء محتمل قبل الربيع، وسوف يكون الميناء الباكستاني كراتشي مهمًا للغزو، وقد تؤخر المفاوضات حول استخدامه الهجوم لفترة أطول.

على الرغم من ذلك، حسبت إدارة بوش أنه يمكنها الانتظار حتى الربيع، والواقع أن الرئيس لم يكن يريد قطع رقاب القاعدة أو على الأقل يعطلها، ولكنه من الناحية السياسية كان يتعين عليه تلبية المطالبة برد فوري، وعلى قدر كبير من الوضوح. فقد هزت الهجمات الثقة في الدفاعات الأمريكية، وكان لابد للرئيس من إعادة بناء الثقة في الوقت، الذي يبني فيه قاعدة سياسية لما يمكن أن يكون حربًا ممتدة. ولم يكن في وسعه تحمل تبعه أزمة في الثقة بشأن الرخاء الأمريكي في تلك الفترة المفصلية، لذلك حدث في هذا الجو أن بدأت الحرب على الإرهاب تؤثر على القرارات الاقتصادية كذلك. وإذا كان الأمر قد استغرق ستة أشهر لشن عمل أمريكي مضاد، فسوف يتدهور الوضع السياسي، الذي هو هش بالفعل، وسوف يفقد الرئيس التأييد للجهد حتى قبل بدئه. وكان قرار بوش المضي قدمًا واحدًا من تلك الأحكام الفردية، التي يمكن أن تؤثر على حياة الملايين على مدى عقد كامل،

ومن المؤكد أن النتائج غير المتوقعة لهذا القرار سوف تستمر في التأثير على جزء كبير من العقد التالي.

كان هناك كذلك سبب استراتيجي مشروع للعجلة؛ فالولايات المتحدة كانت تريد التأكد من أن الأنظمة الحاكمة في الشرق الأوسط لم تسقط، أو حتى تبدأ في إعادة حساب مصالحها. ومع أنه كان من الممكن أن يتم تصور الولايات على أنها قوة عظمى، فقد نُظِرَ إليها كذلك على أنها قوة غير مستعدة للمخاطرة بشكل كبير في المنطقة؛ فقرار رونالد ريجان الانسحاب من بيروت بعد قصف ثكنات المارينز، وقرار جورج هـ. بوش عدم الذهاب إلى بغداد بعد تحرير الكويت، وقرار بيل كلينتون بالانسحاب من الصومال، في أعقاب رده الضعيف بعض الشيء على هجمات القاعدة قبل الحادي عشر من سبتمبر، خلقت جميعها صورة بلد ليس لديه استعداد للمخاطرة والمعاناة من الخسائر. وفي الوقت ذاته، رأت الحكومات المسلمة الاحتمال الحقيقي جدًّا الخاص بالإطاحة بها بواسطة القلائل السياسية، التي أوجتها القوة الخفية القادرة والوحشية للقاعدة؛ خاصة إذا تعاونت مع الولايات المتحدة.

لم تكن تلك الحكومات على وشك أن تصبح جهادية، ولكنها لم تكن مستعدة لأن تعرض نفسها للخطر بالنيابة عن الولايات المتحدة، فقد توقعت أن تواصل الولايات المتحدة سياستها الخاصة بالمخاطرة المحدودة، ولذلك كانت ترى أن التعاون مع الولايات المتحدة يبدو ممثلًا لأخطار كبيرة مع قليل من المزايا. وطالب الأمريكيون بالمشاركة في المعلومات الاستخباراتية فيما يتعلق بالقاعدة، على سبيل المثال، ولكن تلك الحكومات، التي لم تتوقع أن تقف الولايات المتحدة بجوارها زمناً طويلاً، كانت مترددة في المشاركة. وكلما طال عدم اتخاذ الولايات المتحدة لإجراء ما، كان ميل البلدان المسلمة إلى المساعدة أقل.

أساءت القاعدة الحساب بالتركيز أكثر مما يجب على نتائج الهجوم بالنسبة للعالم الإسلامي، ولم تركز بما يكفي على الضغوط السياسية والاستراتيجية، التي

خلقها الحادي عشر من سبتمبر بالنسبة لبوش. لم يكن هناك شك في أن الولايات المتحدة سوف تعمل بجرأة، وللأسباب السابق ذكرها، عاجلاً وليس آجلاً. وكان لا بد أن يكون الهدف هو القاعدة، وهو ما كان يعني أن منطقة العمليات لا بد أن تكون أفغانستان.

في منتصف سبتمبر من عام 2001، أرسلت الولايات المتحدة عملاء وكالة الاستخبارات المركزية لعقد صفقات مع أمراء الحرب الأفغان المحليين. وفي الوقت نفسه، أرسلت الولايات المتحدة قوات عمليات خاصة، ووحدات شبه عسكرية تابعة لوكالة الاستخبارات المركزية؛ للقتال إلى جانب الأفغان المعادين لطالبان، ولتوجيه الضربات الجوية الأمريكية لمواقع طالبان. وبشكل خاص، عقدت الولايات المتحدة صفقة مع التحالف الشمالي، وهو مجموعة من التنظيمات المعادية لطالبان التي تدعمها روسيا. وبعد أن هزمت طالبان في حربهم الأهلية في التسعينيات من القرن العشرين، رحب التحالف الشمالي وقتها بفرصة رد الضربة، ولم يكن للروس أي اعتراض. وجرى شراء أمراء الحرب الآخرين فحسب، وحصلت للولايات المتحدة كذلك على تعاون نشط من إيران.

وفرت أفغانستان وهم الغزو، ولكن ما حدث بالفعل هو استئناف الحرب الأهلية تدعمها القوة الجوية الأمريكية؛ فالقتال الذي بدأ بعد شهر من الحادي عشر من سبتمبر، قام به الأفغان في المقام الأول، تدعمهم ضربات جوية من حاملات الطائرات والقاذفات المتمركزة في الخليج الفارسي والمحيط الهندي. ولكن بدلاً من التجمع أمام المدن الكبيرة، والتحول إلى أهداف للقصف بواسطة الطائرات من طراز B-52، انتشرت طالبان - على طريقة المتمردين التقليديين - ثم تجمعت في وقت لاحق لاستئناف المعركة.

نتيجة لذلك، لم تُهزم طالبان في واقع الأمر قط، ولكن الولايات المتحدة حققت ثلاثة أهداف. أولاً: أكدت للجماهير الأمريكية أنها قادرة على حمايتها بتنظيم



العمل العسكري في أي مكان في العالم، ولم يكن ذلك صحيحًا على إطلاقه، بينما كان صحيحًا بما يكفي للمواجهة. ثانياً: أبلغت العالم الإسلامي أن الولايات المتحدة ملتزمة حتمًا بالصراع. ولأنهم أكثر معرفة من الجمهور الأمريكي، أشار القادة المسلمون إلى أن الإسهام الأمريكي الكبير هو القوة الجوية، بينما قام الأفغان بالعمل الصعب. ولم تكن تلك أدلة قاطعة على الالتزام الأمريكي، غير أنها كانت أفضل من عدم القيام بشيء. ثالثاً: ألحق هذا الإجراء ضرراً بالقاعدة، وفّر بن لادن وآخرون، ولكن هيكل القيادة والسيطرة الخاص بهم تعطل، وهو ما أجبر القادة على الهروب. ونتيجة لذلك أصبحوا معزولين بشكل كبير، وغير مناسبين لمقتضى الحال إلى حد بعيد.

كانت أفغانستان بصورة أو بأخرى حيلة، ولكنها حققت ما يمكن تحقيقه. فقد شنت الولايات المتحدة هجومًا مدمرًا معطلًا، وهذه مناورة أمريكية كلاسيكية. ووضعت إدارة بوش حكومة وحمتها، وهي تعرف أن معظم أفغانستان بعيد عن متناول يدها، وأن خلق ديمقراطية هناك لم يكن حدثًا مرجح الوقوع، وأنه بعد تسع سنوات، مازالت أفغانستان بعيدة عن الحل، ومن المؤكد أنها ستكون المشكلة التي كان يجب حلها للمضي قدمًا في العقد المقبل.

ومع ذلك فإنه من وجهة نظر القاعدة، كانت الأعمال الأمريكية في أفغانستان وأماكن أخرى في الشرق الأوسط بمثابة أدلة واضحة للمسلمين على أن الولايات المتحدة هي عدوهم. وانتظر المجاهدون الانتفاضات والأنظمة المطاح بها - وهو الاضطراب الذي لم يحدث قط - إذ بقيت الأنظمة الحاكمة، من ناحية لأن الشارع الإسلامي، كما كان يسمى، كان يخشى من أن جهاز الأمن الخاص بأنظمتها الحاكمة لا يزال فعالاً بصورة وحشية. ومن ناحية أخرى، لأن تلك الأنظمة ظلت تراهن على جانبي الرهان حماية لنفسها؛ فقد قرأت ما يمثله الهجوم الأمريكي المدمر وامتنعت عن تقديم تعهداتها. وظلت المشاركة الاستخباراتية للمملكة العربية السعودية

وباكستان محدودة، ولم ترد أي منهما تقديم تعهدات للولايات المتحدة دون أدلة واضحة على مدى استعداد الولايات المتحدة للمضي قدماً. وعندما بات أكثر وضوحاً أنه لن تكون هناك انتفاضات، أصبحت القاعدة أكثر عدوانية في المنطقة.

### مناورة العراق

كان المشروع التالي في الحرب الأمريكية على الإرهاب في عام 2003. ومن السهل أن يُقال اليوم أن الغزو كان خطأ غير مبرر، ولكن من المهم تذكر السياق، الذي أتخذ فيه قرار الغزو. ففي فبراير من عام 2002، أمر السعوديون القوات الأمريكية بالخروج من أراضيها. وبعث الباكستانيون - على الرغم من الضغط الشديد من الهند والقاعدة - بإشارات متواضعة فحسب، تدل على التعهد بتأييد المسعى الأمريكي. وكان التصور العام هو أن الولايات المتحدة فعلت ما كانت ستفعله في أفغانستان، وتأمل الآن أن تتحمل دول أخرى عبئه، في الاستخبارات والعمليات.

دون تعاون السعوديين والباكستانيين التام، كان لدى الولايات المتحدة خيارات محدودة، فهي يمكن أن تدير حرباً استخباراتية ضد القاعدة، كما فعلت إسرائيل مع أيلول الأسود في أوروبا في السبعينيات؛ غير أنه دون شركاء يسهمون في المنطقة، كانت القدرة الاستخباراتية الأمريكية ضد القاعدة مقيدة بشدة.

كان الخيار الثاني أمام الولايات المتحدة هو الدخول في نمط دفاعي بحت؛ حيث تعتمد على الأمن الوطني، بينما تأمل في أن تعطل العملية الأفغانية هيكل قيادة القاعدة بما يكفي لمنع هجمات جديدة. ومن الناحية النظرية، يمكن لمكتب التحقيقات الفيدرالي مطاردة الخلايا النائمة، بينما تُحمى الحدود من التسلّل، وتؤمّن المطارات ضد الإرهابيين. ورغم كون تلك الخطة جذابة على الورق، فقد كانت مستحيلة من الناحية العملية؛ إذ لم يكن بإمكان مكتب التحقيقات الفيدرالي ضمان عدم وجود مزيد من الخلايا النائمة في البلاد، ولم يكن بالإمكان تأمين نقاط

دخول الولايات المتحدة بشكل تام. وأي وهم بالأمان يعطيه هذا الوهم للجماهير الأمريكية، وأي دعم يمكن أن يجلبه للرئيس؛ كي يقوم بعمل ما خير قيام، سوف يبقى فقط حتى وقوع العمل الإرهابي التالي، الذي لا يعرف أحد توقيته أو طبيعته بالمرّة. وعندما يحدث هذا الهجوم، سوف تظهر على السطح من جديد مسألة استعداد الولايات المتحدة؛ لتأكيد نفسها والدخول في مخاطر في العالم الإسلامي، دون إجابة واضحة. ماذا بعد أفغانستان؟

حاولت إدارة بوش صياغة استراتيجية تجبر السعوديين والباكستانيين على أن يكونوا أكثر جرأة في جمع المعلومات الاستخباراتية ومشاركتها، ووضع ذلك الولايات المتحدة في وضع مهيم في الشرق الأوسط، استطاعت منه التلويح باستخدام القوة.

كانت تلك الأسباب هي الأساسية لغزو العراق، وكان للعمل العسكري النتيجة المباشرة الخاصة بخلق واقع استراتيجي جديد. وقد أخاف ذلك المملكة العربية السعودية على وجه الخصوص، حيث وضع المدرعات الأمريكية على مسيرة بضعة أيام من حقول النفط السعودية، كما منح الولايات المتحدة السيطرة على بلد أكثر استراتيجية في المنطقة، وهو العراق الذي له حدود مع الكويت والمملكة العربية السعودية والأردن وسوريا وتركيا وإيران، وبذلك حققت السيطرة على العراق أهداف الحرب على الإرهاب قصيرة المدى، ولكنها خالفت مبدأ ألا تصبح الولايات المتحدة لآعبًا دائمًا في أية منطقة؛ فقد راهنت حكومة بوش على أنها يمكن أن تضحي بهذا الجزء من الاستراتيجية الأمريكية - المحافظة على توازنات القوى الإقليمية، من خلال البلاء مع الاحتفاظ بالقوات الأمريكية كاحتياطي - مقابل المزايا الأخرى، وكان ذلك خيارًا سيئًا على قائمة الاختيارات الأسوأ، وهي النقطة التي لا بد من تذكرها، عندما نفكر في طبيعة القوة الإمبراطورية؛ إذ قد تشعر بأنها مضطرة للعمل، حتى عندما تكون الخيارات كلها معيبة.

على الرغم من ذلك كان الحصول على تلك المزايا يقتضي من الولايات المتحدة ألا تنجح في غزو العراق فحسب، بل في تهديته. ونجح الغزو بلا شك، وزاد السعوديون تعاونهم على نحو ملحوظ فيما يتعلق بالاستخبارات، ولكنه اتضح أن الهيمنة على البلد الأكثر استراتيجية في المنطقة مستحيلة. فبعد أن تدفقت القوات الأمريكية على بغداد بسهولة، سرعان ما وجدت نفسها وقد قيدها تمرد، اقتضى منها تركيز كل قوتها على الداخل، بينما كانت النية هي استخدام العراق قاعدة، تنطلق منها القوة إلى الخارج.

غير فشل الاحتلال هذا شكل الحرب؛ فقد أصبح العراق غاية في حد ذاته، وأصبح الهدف النهائي ليس خلق واقع استراتيجي جديد في المنطقة، بل مجرد سحب القوات الأمريكية خلال إطار زمني معقول. وكان أفضل أمل هو أن تترك وراءها حكومة محايدة؛ وفي أسوأ الأحوال ستكون نتيجة الغزو النهائية هي الفوضى. أصبح العراق مفصولاً على استراتيجية أمريكا الأوسع، وأصبح دراسة حالة في العلاقة بين الأخلاقيات والاستراتيجية والقيادة. ومن وجهة النظر الأخلاقية المحضة، لم يكن بالإمكان انتقاد الإطاحة بحكومة صدام حسين، فقد كان وحشاً وكان نظامه وحشياً. لكن تلك لم تكن الضرورة الأخلاقية، التي ألزم بها بوش فترة رئاسته؛ فضرورته الأخلاقية المعلنة كانت شن الحرب على الإرهاب، وكان لاحتلال العراق معنى لدى الشعب الأمريكي فقط، من حيث خدمته لهذا الهدف.

باتخاذ قرار بالغزو في عام 2003، وضع جورج و. بوش هاجسه الأخلاقي في المبدأ الأساسي للاستراتيجية الأمريكية، وهو الحفاظ على التوازن في كل منطقة، دون التعهد بأعداد كبيرة من الجنود؛ إذ إن هناك مناطق كثيرة، وإذا بدأت الولايات المتحدة نشر قوات الاحتلال في كل من هذه المناطق، فسرعان ما سيتجاوز العبء القدرة الأمريكية. وعلاوة على ذلك، حلت القوات الأمريكية محل قوات العراق،

باعتبارها ثقلاً موازنًا لإيران التي هي الآن أكبر قوة محلية في المنطقة. وإذا انسحبت القوات الأمريكية من العراق في أي وقت، فسوف تسيطر إيران على الخليج الفارسي كله لعدم وجود منافس لها، ومهما كان ما أسهم به الغزو في الحرب ضد القاعدة، فقد أصبحت التكاليف الاستراتيجية الخاصة بالعراق مرتفعة جدًا.

لكي يتوافق غزو العراق مع مبادئ أمريكا الاستراتيجية القديمة، كان يتعين على القوات الأمريكية احتلال العراق بسرعة وكفاءة، ودون مقاومة كبيرة. وبعد ذلك يتعين على الولايات المتحدة أن تبني على وجه السرعة نظامًا حاكمًا قابلاً للبقاء في بغداد، إلى جانب القوة العسكرية الكبيرة؛ كي يتولى دور موازنة عدوها التاريخي إيران. وإذا أمكن تحقيق ذلك خلال خمس سنوات، على سبيل المثال، كان بوش سيحقق أهدافه الأخلاقية والاستراتيجية؛ وكان سيحدث صدمة للعالم الإسلامي ويخيف السعوديين، ويمكنه استخدام موقع العراق الاستراتيجي للضغط على البلدان التي في المنطقة. وبعد ذلك كانت الولايات المتحدة ستسحب تاركة اللاعين الإقليميين ليوازنوا بعضهم بعضًا مرة أخرى.

فشلت استراتيجية بوش لأن الوعد كان معيّنًا؛ إذ كانت هناك مقاومة لم يمكن قمعها بسهولة. ولم تكن غلطة الحرب الاستخباراتية الكبرى تتعلق بأسلحة الدمار الشامل، وإنما بعدم فهم أن التمرد هو خطة صدام حسين البديلة للتعامل مع الغزو، كما شملت عدم فهم أنه من خلال محاولة القضاء على حزب البعث، الذي يهيمن عليه الشنّة والموالي لصدام، أبعدت الولايات المتحدة الشنّة عن الحكم، ونقلت السلطة إلى منافسيهم الدينيين والثقافيين، الشيعة. ونتيجة لرعب الشنّة داخل العراق من الحكومة الشيعية (التي سيكون من المصادفة أن لها ارتباطًا ما مع الأغلبية الشيعية المهيمنة على إيران)، فقد وُضعوا في موقف، ليس هناك ما يفقدونه فيه، وتبنوا إطلاق النار العشوائي والعبوات الناسفة.

لكن حسابات بوش الخاطئة استفحلت؛ فقد اعتمد على دعم الشيعة في معارضة المؤسسة الشنيّة، غير أنه لم يعر اهتمامًا لدرجة تداخل الشيعة العراقيين مع الإيرانيين المتشددين في تشيعهم. ولم تكن للإيرانيين مصلحة في رؤية العراق، وقد بُعث في ظل حكومة موالية للأمريكيين تهديد إيران من جديد، ولذلك انتهى الأمر بالحكومة الأمريكية وقد صارت محاصرة من اتجاهين؛ إذ خاض الشنّة الحرب ضد الاحتلال، وفعل الشيعة كل شيء يمكنهم عمله لتحاكي ذلك النوع من التعاون، الذي يحولهم إلى التبعية الأمريكية.

خالف بوش المبادئ الاستراتيجية على أمل العودة إلى السبيل الرئيسي فيما بعد، ولكنه علقَ في الواقع المحلي الذي لم يمكنه إدارته. وعندما تدهور الوضع، تدنت مصداقيته لدى الجمهور الأمريكي، وربما كان بإمكانه النجاة من حقيقة أن تبريره الأولي للحرب، وهو وجود أسلحة الدمار الشامل، ثبت عدم صحته. ولكنه لم ينج من الوقوع في فخ الحرب متعددة الأطراف، دون أن تكون لها نهاية منظورة. كانت هناك أخطاء أخرى قضت على قدرة هذا الرئيس على القيادة؛ إذ كان مبرره الثاني للغزو هو ضرورة خلق عراق ديمقراطي. ولم يَزُق هذا للجمهور الأمريكي الذي لم يَرِ أي سبب مُلح لهذا الجهد - فالواقع أن دافع بناء الدولة هذا كذبة - ذلك أنه كما أشرنا في حالة لنكولن وروزفلت وريجان، غالبًا ما يضطر الرؤساء العظام للكذب لخدمة هدفهم الأخلاقي الأكبر. ولكن بوش فشل في الإقناع لأن ضرورته الأخلاقية التي ذكرها بوضوح - هزيمة الإرهاب - ابتعدت عن الواقع الاستراتيجي إلى حد بدت معه سياسته الخارجية كلها معقدة وتتسم بالفوضي؛ الأمر الذي جعله يبدو عاجزًا، وكان هناك الكثير جدًا من التفسيرات المنفصلة، والكثير جدًا من حالات التماس الأعذار. وقد سحقه الفشل في التوفيق بين الأهداف الأخلاقية والغايات الاستراتيجية، والتوفيق بين الأمرين خرافة متماسكة؛ من أجل الاستهلاك المحلي.

في عام 2007، عندما كان الوقت قد فات لإنقاذ رئاسته، بدأ بوش الانطلاقة، وكانت علاقة هذا الجهد بالاستراتيجية العسكرية أقل منها باستخدام القوة لإعداد المسرح لتسوية يتم التفاوض عليها مع الشنتّة، وما إن تم ذلك حتى أصبح الشيعة، الخائفون من القوة الشنتيّة التي تدعمها أمريكا، أكثر تعاونًا إلى حد ما، وتلاشى العنف. بوجود عراق لم يعد ثقلاً موازنًا فعلاً، انهار توازن القوى مع إيران تمامًا. وكان انسحاب القوات الأمريكية سيترك العراق قوة مهيمنة في المنطقة، دون أن تكون هناك قوة محلية تصدى لها، وهو التوقع الذي أثار بشكل تام أعصاب قوى جزيرة العرب، وكذلك إسرائيل والولايات المتحدة؛ فهذا الاختلال هو الذي يعد المسرح للمشكلات الإقليمية، التي ستظل تواجه الرئيس الأمريكي في العقد المقبل.

### التعقيد الإيراني

عندما بدأ العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، كانت المشكلة المزدوجة التي تواجه الولايات المتحدة في هذه المنطقة، هي سحب قواتها دون ترك إيران لا تقيدها قوة موازنة. وبما أنه لم يكن هناك مرشحون آخرون لتولي مهمة التصدي للطموحات الإيرانية، فقد اتضح أن الولايات المتحدة لا يمكنها الانسحاب من العراق، إلا بعد أن توجد حكومة في بغداد من القوة بما يكفي لاستعادة التوازن.

رحب الإيرانيون بغزو العراق بشكل واضح. وكانوا، قبل الحادي عشر من سبتمبر بفترة طويلة، قد فعلوا كل ما يمكن لإقناع الولايات المتحدة بالدخول والقضاء على صدام حسين. والواقع أن جزءًا كبيرًا من المعلومات الاستخباراتية، التي تنبأت بالأمر، تواجه القوات الأمريكية مقاومة جاءت من مصادر إيرانية.

ما إن وطأت أقدام الجنود الأمريكيين الأرض، حتى بدأت إيران تهدد المصالح الأمريكية في العراق بشكل مباشر، بأن أصبحت متورطة بشدة مع فصائل شيعية عديدة، ثم بتوريد السلاح إلى السنين كي يستمر الصراع، كما أيدت إيران قوات طالبان في غربي أفغانستان، وكذلك حزب الله في لبنان.

كان الإيرانيون قد توقعوا إقامة حكومة عراقية تهمش السُّنَّة، وتبدو شيعية في المقام الأول. وقد توقعوا أنه بمجرد انسحاب الولايات المتحدة، سوف تصبح تلك الحكومة تابعة لإيران، كما توقعوا أن يعتمد الأمريكيون على حلفاء إيران الشيعة في حكم العراق، ولكن الولايات المتحدة أريكتهم بمحاولة حكم العراق مباشرة من خلال مؤسسات وأفراد مختلفين. ورغم ذلك، فإنه في ظل الصعوبة المطولة الخاصة بتشكيل حكومة وانسحاب الأمريكيين النهائي، كان من المرجح أن النتيجة لا تزال هي ترك إيران في وضع ملائم.

لكن هذه العوامل هي - على وجه الدقة - ما ثبت أنها شديدة الخطورة على الحكومة في طهران؛ ولأن الولايات المتحدة كانت عالقة بين محاولة حكم بلد متمرّد بشكل مباشر، ونقل المسؤولية إلى حكومة يخترقها عملاء لإيران ومتعاطفون معها ثم الانسحاب، فقد كان يتعين عليها بحث إمكانية أكثر راديكالية، وهي الهجوم الذي يطيح بالرئيس محمود أحمددي نجاد والنظام الحاكم الذي تقوم عليه رئاسته.

بأهلها البالغ عددهم 70 مليوناً داخل حدود جبلية، فإن إيران حصن حصين من الناحية الطبوغرافية. وبما أن التضاريس تجعل الغزو المباشر مستحيلاً، فقد حاول الأمريكيون مرات عديدة توليد ثورة شبيهة بتلك الثورات، التي أطاحت بالحكومات في الاتحاد السوفيتي السابق. وعلى مر السنين، كان الفشل مصير تلك المحاولات باستمرار، غير أنه بعد الفشل في العراق، وإلى حد أنه لم يمكن الولايات المتحدة إحياء توازن القوى، ولا ترك إيران القوة المهيمنة في منطقة الخليج الفارسي، فسيكون من الطبيعي - إلى حد كبير - أن يفكر الأمريكيون في نوع ما من الهجوم للإطاحة بالحكومة الإيرانية. ويزيد من الهموم الإيرانية كون هذا النظام منقسمًا بين رجال الدين المسنين، الذين تولوا السلطة مع آية الله الخميني والزعماء الصغار من غير رجال الدين مثل أحمددي نجاد. لكن كان همُّ القادة الأول هو أنهم رأوا الانتفاضات الأخرى التي رعتها الولايات تنجح، وبشكل خاص في



الاتحاد السوفيتي السابق، ولا يمكنهم المخاطرة بأن الولايات المتحدة لن تكون محظوظة مرة أخرى.

أشار الإيرانيون إلى الطريقة التي نجحت بها كوريا الشمالية في مشكلة مشابهة في التسعينيات، عندما خشيت حكومتها من أن يؤدي انهيار الشيوعية السوفيتية إلى انهيارها. وفي محاولة لتصوير أنفسهم على أنهم أكثر خطورة وعدم استقرار من الناحية النفسية، عما هم عليه بالفعل، بدأ الكوريون برنامجًا نوويًا، وإقناع الناس بأنه يمكنهم استعمال تلك الأسلحة بالفعل، أصدروا بيانات بدت على قدر كبير من الجنون. ونتيجة لذلك، كان الكل يخشى انهيار النظام الذي يمكن أن يؤدي إلى نتائج غير متوقعة. وبذلك نجحت كوريا الشمالية في خلق وضع حاولت فيه قوى، مثل: الولايات المتحدة والصين وروسيا واليابان وكوريا الجنوبية إقناعهم بالمساعدات كي يجلسوا إلى طاولة المفاوضات. ونجح الكوريون الشماليون إلى حد جعل القوى الكبرى تتفاوض لإقناعهم بالتفاوض.. لقد كان أداء غير عادي.

في استهداف للفويا النووية الأمريكية، كان الإيرانيون يعملون على التكنولوجيا النووية لمدة عقد من الزمان، وهو البرنامج الذي شمل تشكيل أنفسهم على هيئة كوريا الشمالية، باعتبارهم خطرين ولا يمكن التنبؤ بما يفعلونه. وكما نجحت كوريا الشمالية، نجح الإيرانيون بالوصول بأنفسهم إلى وضع، حاول معه أعضاء مجلس الأمن الدائمون - ومعهم ألمانيا - التفاوض معهم بشأن قضية ما إذا كانوا سيتفاوضون أم لا.

كان سقوط العراق قد ترك الولايات المتحدة في وضع شديد الصعوبة ذي خيارات محدودة؛ فالضربة الجوية ضد الأهداف النووية الإيرانية من الأرجح أن تدفع إلى إحماء الشعور الوطني الذي يعزز النظام. وكانت لدى إيران أصول مهمة تشمل القدرة على المزيد من زعزعة استقرار العراق وإلى حد ما أفغانستان، وكان يمكن لإيران كذلك إطلاق يد حزب الله، وهو منظمة إرهابية أكثر قدرة من القاعدة،

أو يمكنها تلغيم مضيق هرمز، الأمر الذي يخلق فوضى اقتصادية بمنع تدفق النفط من الخليج الفارسي.

هكذا أدت مخالفة سياسة أمريكا القديمة الخاصة بالتوازنات الإقليمية والاشتباك المحدود إلى سيناريو الحالة الجيوبوليتيكية الأسوأ. وكانت إيران حينذاك القوة المحلية المهيمنة في الخليج الفارسي، وكان لدى الولايات المتحدة وحدها الوسيلة لموازنة ثقلها؛ الأمر الذي سيخالف مبادئ أمريكا الاستراتيجية الأساسية بشكل أكبر. وعلاوة على ذلك، فقد ترك التركيز غير المتوازن على هذه المنطقة الولايات المتحدة ضعيفة في الأجزاء الأخرى من العالم، عالقة دون اتزان، ودون أن يكون هناك مقابل واضح في مرمى البصر.

هذه هي المشكلة الجيوبوليتيكية المحددة، التي ورثها الرئيس أوباما، وسوف يضطر هو وكل رؤساء العقد المقبل الآخرين إلى التعامل معها؛ فقد أصبحت إيران المحور الذي سيدور حوله الشرق الأوسط، وقد كانت من نواحٍ عديدة هي المحور باستمرار. لكن قبل أن تتعامل الولايات المتحدة مع إيران، كان يتعين عليها أن تفعل شيئاً محدداً بدقة بشأن الإرهاب الإسلامي، فقد كرسست مواردها للحروب، التي رأت أنها موجهة ضد الإرهاب؛ الأمر الذي عزل بفاعلية إيران عن خطر التدخل الأمريكي، بل وعزز وضعها في المنطقة.

تداخلت أحداث العقد الماضي الاقتصادي والجيوبوليتيكية. وقد خلقت أزمة في الثقة لدى الجمهور الأمريكي، وكذلك جزئاً التفكير الاستراتيجي الأمريكي إلى سلسلة من الحلول التكتيكية القصيرة المدى، كما أن القضية الإيرانية مرتبطة بالمخاوف من أن أسعار النفط الآخذة في الارتفاع سوف تقضي على التعافي الاقتصادي، وكذلك بأثر القتال على الحرب الجهادية. وقد اتحد الحادي عشر من سبتمبر وأحداث 2008 لتخلق فحاً للتفكير الاستراتيجي. وبينما تتجه الولايات المتحدة إلى العقد المقبل، فإنه يتعين عليها الهروب من الفخ، وسوف تحل المشكلة الاقتصادية نفسها في النهاية، والتحدي الجيوبوليتيكي للإرهاب يتطلب قرارات.

## الفصل الخامس

### فخ الإرهاب

أطلق الرئيس جورج دابليو بوش على رده على هجمات القاعدة في الحادي عشر من سبتمبر «الحرب على الإرهاب»، ولو أطلق على رده الحرب على الإسلام المتشدد لأبعد الحلفاء في العالم الإسلامي، الذين كانت الولايات المتحدة في أمس الحاجة إليهم. ولو أطلق عليها الحرب على القاعدة لحال دون مهاجمة الإرهابيين، الذين لم يكونوا جزءاً من تلك الجماعة المحددة؛ فقد حاول بوش حل المشكلة بدهاء باستخدام حيلة دلالية، ولكن ذلك تركه عرضة للارتباك السياسي والاستراتيجي.

أسقط الرئيس أوباما مصطلح الحرب على الإرهاب، وكان محققاً في ذلك؛ فالإرهاب ليس عدوًا وإنما نوع من الحروب يمكن للعدو تبنيه أو عدم تبنيه. تخيلوا لو أعلن الرئيس روزفلت، بعد بيرل هاربر، ذلك الهجوم الذي اعتمد على حاملات الطائرات، حربًا عالمية على الطيران البحري. وبالتركيز على الإرهاب بدلاً من القاعدة أو الإسلام المتشدد، رفع بوش نوعاً بعينه من الهجوم إلى وضع، شكّل الاستراتيجية العالمية الأمريكية، التي تركت الولايات المتحدة في حالة عدم اتزان استراتيجي.

ربما أوضح أوباما التسمية، ولكنه ترك جزءاً كبيراً من الخلل كما هو، وهو هاجس الهجمات الإرهابية. وبينما نبحث خيارات الرئيس في العقد المقبل، يبدو من الضروري توضيح مقدار التهديد، الذي يمثله الإرهاب بالفعل، وماذا يعني هذا التهديد للسياسة الأمريكية.

وطبقاً لما قاله المُنظّر العسكري البروسي، كارل فون كلاوسفيتس Carl von Clausewitz، من أن الحرب استمرار للنسياسة بوسيلة أخرى؛ فالانتصار في الحرب العالمية الثانية لم يتكون من إجبار اليابان على وقف استخدام حاملات الطائرات، بل كان يعني تدمير قدرة اليابان على شن الحرب، ثم فرض الإرادة الأمريكية، وهي غاية سياسية. وإذا كان يتعين على رئيس ما أن يقود الأمة إلى الحرب، فلا بد أن يحدد بحزم العدو، والغاية التي يسعى إلى تحقيقها. وإذا كان الإرهاب هو العدو بعد الحادي عشر من سبتمبر، وعليه فقد كان كل من يمكنه استخدام الإرهاب هو العدو، وهي قائمة طويلة على نحو بغض. وإذا كان لا يمكن للرئيس - لأسباب سياسية - أن يحدد بوضوح من الذي يجب محاربهه وسبب محاربهه، فحيث يتعين عليه أن يعيد بحث ما إذا كان يمكنه الفوز أم لا، وبالتالي ما إذا كان ينبغي عليه الاشتباك أم لا. وإذا كان ثمن تسمية العدو غير مقبول من الناحية الدبلوماسية أو السياسية، فإنه حيثئذ يكون من غير المرجح أن تسير الحرب سيراً حسناً.

على الرغم من قرار بوش تركيز الحرب على الإرهاب، عَلِمَ العالم الإسلامي أن العدو الحقيقي المستهدف هو الإسلام المتشدد، فقد كان ذلك هو الأساس الذي انطلقت منه القاعدة، وما كان بوش ليخضع أحداً كي يرى عكس ذلك. وعندما لم يمكنه أن يوضح بصدق وتماسك سبب غزوه العراق، بدأت الاستراتيجية تنفك.

تعمق اضطراب بوش الدلالي والاستراتيجي، عندما اتسعت حربه على الإرهاب لتشمل السعي إلى الإطاحة بالحكومة العراقية. وكان صدام حسين - الذي استهدفه ذلك السعي - عسكرياً علمانياً وليس إسلامياً دينياً، ولم يكن صديقاً للقاعدة. كما أنه لم يكن متورطاً في إرهاب القاعدة قبل غزوه العراق، بل كان هو والقاعدة لهما عدو مشترك، هو الولايات المتحدة. ولهذا السبب، شعر بوش أنه لا يمكنه التقليل من شأن خطر تحالف المصلحة بين دولة العراق والمتشددين بلا دولة، أي القاعدة. وكان قراره هو شن هجوم استباقي. ورأى بوش ومستشاروه أن تدمير نظام صدام

واحتلال العراق سوف يحرم تنظيم القاعدة من قاعدة محتملة، بينما يجعل الولايات المتحدة تفوز بقاعدة عمليات استراتيجية خاصة بها.

رغم ذلك، فيما أنه تم تحديد الاستراتيجية الأكبر على أنها حرب على الإرهاب، وبما أن صدام حسين لم يكن قد شارك مؤخرًا في الإرهاب؛ فقد بدا غزو العراق غير مبرر. ولو ركزت الحرب بشكل أوضح على القاعدة باعتبارها العدو، لبدا الغزو وقتها أكثر معقولة؛ لأن الحرب ضد جماعة محددة كانت ستشمل معاداة حلفاء تلك الجماعة وحتى حلفاءها المحتملين، الذين كان صدام منهم بالتأكيد.

في البلد الديمقراطي، أساس التأييد العام صورة واضحة لتهديد العدو، ولغرضك في مواجهة ذلك التهديد. وهذا الوضوح لا يعنى الجمهور فحسب، بل يوفر إطارًا متماسكًا للتواصل مع ذلك الجمهور، ولم تتعاف فترة رئاسة ترومان Truman قط من استخدامه لمصطلح «عمل بوليسي»؛ إشارة إلى الحرب الكورية، وهو الصراع الذي لقي فيه أكثر من ثلاثين ألف أمريكي مصرعهم. ومن ناحية أخرى، نجت حرب روزفلت ضد ألمانيا واليابان وإيطاليا مما لا آخر له من الحيل والهجمات على الأبرياء والتحالفات مع الشر بحق؛ لأن روزفلت أوضح من هو العدو، ولماذا يتعين علينا محاربتة وهزيمته.

### معنى الإرهاب

الإرهاب فعل عنف، الغرض الأساسي منه هو خلق الخوف، وتحقيق نتيجة سياسية من خلال ذلك؛ فقد كان قصف ألمانيا للندن في الحرب العالمية الثانية هجومًا إرهابيًا، حيث لم يكن الهدف هو إعاقة القدرة البريطانية على شن الحرب، وإنما توليد جو نفسي وسياسي، يمكن أن يفصل الجمهور عن الحكومة، ويجبر الحكومة على الدخول في مفاوضات. وكان المقصود بالإرهاب الفلسطيني في السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، من الاغتيال إلى خطف الطائرات، لفت الانتباه إلى قضيتهم، وتعظيم مظهر القوة الفلسطينية. وكما حاولت أن أبين،

الإمبراطورية والجمهورية في عالم متغير |

كان المقصود بإرهاب القاعدة كذلك تحقيق غاية سياسية. إن القضية سهلة، وهي ما مقدار الجهد الذي ينبغي تخصيصه لوقف الإرهاب ونتائجه، مقارنةً بالمهام الاستراتيجية الأخرى؟

عادة ما يُنفذ الإرهاب بدلا من العمل الأكثر فاعلية؛ فلو كان باستطاعة الألمان تدمير الأسطول البريطاني، أو لو تمكن الفلسطينيون من تدمير الجيش الإسرائيلي، لفعلوا ذلك؛ إذا كان ذلك سبيلا أكثر فاعلية ومباشرةً إلى غاياتهم. وينبع الإرهاب من الضعف؛ فهو يركز على النفسية كي يجعل الإرهابي يبدو أقوى مما هو عليه. وهدف الإرهابي هو أن يُعأمَل على أنه تهديد كبير بينما الحقيقة أنه ليس كذلك، وكما يوحي الاسم، يخلق الإرهابي حالة ذهنية. وهدفه النهائي هو أن يتم تصوره على أنه تهديد ضخم، بل ووحيد. ويخلق هذا أساسًا للعملية السياسية التي يريد الإرهابي أن يبدأها، ويريد البعض أن يؤخذ مأخذ الجد فحسب. وكانت القاعدة تريد إقناع العالم الإسلامي بأنها من القوة؛ بحيث تكون أهم شيء في العقول الأمريكية.

**وواقع الأمر أن القاعدة حققت ذلك الهدف.**

بإعلان الحرب على الإرهاب، أعلنت الولايات المتحدة أنها تعتبر هذا التهديد الوحيد متعدّيًا لكل التهديدات الأخرى، وأصبحت حماية الولايات المتحدة من الأعمال الإرهابية الدافع الأساسي للاستراتيجية العالمية الأمريكية؛ حيث استهلكت طاقة وموارد هائلة. لكن الإرهاب كما تمارسه القاعدة، لا يمثل خطرًا استراتيجيًا للولايات المتحدة؛ فهي يمكنها أن تقتل آلاف الأمريكيين وربما تفعل ذلك في بعض الأحيان، وسوف تسبب ألماً وتولّد الخوف. ولكن الإرهاب في حد ذاته لا يمكن أن يدمر الأساس المادي للجمهور الأمريكي.

لأن الإرهاب - حتى بما في ذلك الإرهاب النووي - لا يمثل تهديدًا وجوديًا للولايات المتحدة؛ فالسياسة الخارجية التي تركز بشكل فردي على الإرهاب سياسة

غير متوازنة في المقام الأول. ويتكون انعدام التوازن من تكريس كل الموارد المتاحة لتهديد واحد، من بين تهديدات كثيرة، مع الفشل في السيطرة على التهديدات الأخرى المساوية لها في الأهمية والخطورة أو الأعظم منها. وليست هذه حجة لتجاهل الإرهاب، بل حجة على أنه لا بد من بحث الإرهاب في سياق الاستراتيجية القومية، وهذه هي النقطة التي وقع عندها جورج و. بوش في الفخ، ودخل خلفاؤه في مخاطرة الوقوع في الفخ نفسه.

كشأن لنكولن وروزفلت وريجان، كان على بوش إدارة نفسية البلاد، أثناء سعيه لبلوغ غايته الاستراتيجية، ولكن ثمة ظاهرتين أثبتتا أنهما سبب فشله. أولاً: كلما كان نجاحه أكبر في التصدي للقاعدة، كان تلاشي الصدمة النفسية أكبر. وانتقل بعض الجمهور من المطالبة بالإجراءات الأكثر تطرفاً إلى كونه مصدوماً من الإجراءات التي تُتخذ. وكان ينبغي على بوش توقع هذا، ولكنه بالنظر إلى الحرب على الإرهاب على أنها غاية، في حد ذاتها، فقد إحصاه بمكانها في السياق الاستراتيجي والسياسي الأوسع. ثانياً: لم يستطع تغيير مركز اهتمامه بما يتسق مع التغيير في الرأي العام؛ لأنه لم يفهم الغرض من حربه العالمية على الإرهاب، إذ لم يكن ذلك الغرض هو هزيمة الإرهاب وإنما تلبية حاجات الجمهور النفسية. غير أن بوش استمر بأقصى سرعة، بعد أن شعرت البلاد بأنها لم تعد في خطر.

ببساطة على رأيه بشأن كون الإرهاب هدفاً استراتيجياً قائماً بذاته، كرس بوش موارد ضخمة للمعارك، التي لم يستطع الفوز فيها، ولمسارح العمليات التي لم تكن مرتبطة بالإرهاب ارتباطاً واضحاً. وأثناء خوض الحرب العالمية على الإرهاب، لم يفقد الرؤية فحسب، بل نسي كذلك إدارة المجموعة الكاملة من المصالح الأمريكية الأخرى، وكان العالم الإسلامي يستحوذ على تفكيره على نحو، جعله لا يخصص الاهتمام والموارد الضرورية للتعامل مع ظهور روسيا من جديد.

لهذا السبب، فالقضية هي كيفية الانتقال من التركيز التام على الإرهاب والعالم الإسلامي إلى استراتيجية أكثر توازناً - والرأي العام جزء من المشكلة - فالتعامل مع العالم الإسلامي موضوع انفعالي في الولايات المتحدة؛ ذلك أنه موضوع يقسم البلاد، فكثيرون ينظرون إلى العالم الإسلامي ليس فقط باعتباره القضية الأولى، بل باعتباره القضية الأولى على جدول الأعمال الأمريكي. ومهمة الرئيس هي التوافق مع الرأي العام وتكييف سياسته تبعاً له، بينما يسعى في هدوء إلى تحقيق غاياته الأخلاقية والاستراتيجية. والمشكلة التي سوف يواجهها الرئيس أوباما والرؤساء الآخرون في العقد المقبل، هي وضع الإرهاب والقاعدة في نصابهما، بينما يعيد تحديد المصالح الأمريكية في العالم الإسلامي. ولا بد من عمل ذلك على نحو لا يهاجم معه الجمهور الرئيسي، خاصةً عندما تحدث الهجمات الإرهابية الحتمية. ولا بد أن يرضي الرأي العام عندما ترعبه الهجمات وتثير غضبه، وعندما يتحول إلى الرضا بشأن الإرهاب، وتصدمه الأشياء التي تمت لمحاربه. وعلاوة على ذلك يتعين على الرئيس التعامل مع العالم الإسلامي كما هو، دون السماح للرأي العام بالتأثير على نواياه النهائية.

ليست هذه حجة للشعور بالرضا. على سبيل المثال، فرغم ضعف الاحتمال، سوف تكون نتائج الهجوم بأسلحة الدمار الشامل هائلة، ولا بد من تخصيص الموارد المناسبة للتهديد. والواقع أن هذا يعني الحرب - سرّاً أو علناً - ويحتمل أن تنطوي الحرب على تكاليف وتعهدات يُحتمل أن تتجاوز حجم التهديد. ومهمة الرئيس أن يوفق بين التهديد والنتائج والجهد والتحديات الأخرى، ويصوغها في استراتيجية متماسكة؛ فالولايات المتحدة لديها تهديدات ومصالح كثيرة، ولا يمكن أن تتجاوب مع واحدة منها فحسب، والخوف وحده لا يمكن أن يحرك الاستراتيجية.

كما قيل من قبل، لا بد للرئيس باستمرار من تهدة أعصاب الجمهور، كما يتعين عليه دوماً بيان التزامه بوقف الإرهاب. وفي الوقت نفسه، لا بد أن يقاوم إغراء تجربة المستحيل أو القيام بأعمال تكلفتها هائلة بالمقارنة بأثرها، ويمكنه الكذب على



الجمهور، ولكن يجب ألا يكذب على نفسه. وعلاوة على ذلك، لا بد أن يفهم التهديدات الحقيقية، التي تتعرض لها البلاد ويتصرف حيالها.

باستثناء أعمال القتل في فورت هود عام 2009، كان الحادي عشر من سبتمبر الهجوم الناجح الوحيد في الولايات المتحدة، خلال سنوات الحرب العشر. وكانت تلك الهجمات المنسقة على نيويورك وواشنطن نتيجة عملية دولية، استغرق إعدادها سنوات عديدة كلفت القاعدة تسعة عشر من عملائها الأكثر التزامًا وقدرة. ودُمر مبانٍ إداريان كبيران في نيويورك، وفي واشنطن عانى البتاجون من ضرر بالغ، وقُتل ثلاثة آلاف أمريكي. ولكن بالنسبة للدولة عدد سكانها 300 مليون نسمة، كانت نتائج الهجوم المادية قليلة جدًا في واقع الأمر.

ليس المقصود بهذا التقليل من شأن الوفيات أو نفي الرعب الذي عاشه الأمريكيون في ذلك اليوم. وما أقصده هو مجرد تأكيد أنه بينما يُسَمَح لي ولك بترف ألمنا، فهو غير مسموح به للرئيس؛ فالرئيس يتعين عليه أن يأخذ في حسابه كيف يشعر المواطنون، ولا بد أن يديرهم ويقودهم، ولكن يجب ألا يخضع للمشاعر الشخصية؛ فوظيفته هي أن تكون له رؤية لا ترحم مع الاحتفاظ ببرودة حسابه لنفسه؛ ذلك أنه إذا خضع للعاطفة فسوف يتخذ قرارات تتعارض مع مصالح بلاده طويلة المدى. ولا بد للرئيس من قبول الخسائر والمضي قدمًا. وعندما هاجم اليابانيون بيرل هاربر، دعا روزفلت إلى الانتقام، ولكنه قرر في السر التركيز على ألمانيا وليس اليابان؛ إذ فهم أن الرئيس لا يمكن أن يسمح لنفسه بصياغة استراتيجية انطلاقًا من العاطفة.

الغرض من الحرب، كما يقول فون كلاوسفيتس، هو فرض إرادتك على دولة أخرى بجعل تلك الدولة الأخرى عاجزة عن المقاومة - والوسيلة الأساسية لعمل ذلك هو تدمير جيش - الدولة، أو القضاء على رغبة الشعب في المقاومة. وغرس الرعب يمكن أن يقضي على الجيش. فعلى سبيل المثال، كان المغول يشلون أعداءهم بمعرفة قسوتهم، التي لا تلين ولا ترحم. وكانت الدول المدن اليونانية تخوض حروبها

حتى النهاية بغض النظر عن الصعوبات، يدفعهم إلى ذلك الخوف من العبودية، التي تنتظرهم إن هم هُزِموا.. وهكذا فإن الأثر النهائي للرعب يصعب التنبؤ به.

أثناء الحرب العالمية الثانية، لم يعلن الألمان ولا البريطانيون بوضوح عما يشعرون به بشأن الغرض، مما أسماه البريطانيون «القصف الليلي الموسع». وكان استهداف المدنيين تكتيكًا المقصود به توليد الرعب بين الجمهور، أملا في أن يصبح المدنيون على أقل تقدير أقل فاعلية في إدارة اقتصاد الحرب، أو في أقصى احتمال بأن يثوروا ضد أنظمتهم الحاكمة. وفي اليابان، سعى الأمريكيون إلى تحقيق الغايات نفسها باستخدام القنابل الحارقة، متتهزين فرصة كون معظم المباني اليابانية مصنوعة من الخشب. وخلال ثلاثة أيام من القصف التقليدي على طوكيو، قتلت القوات الأمريكية 100 ألف مدني ياباني، وهو عدد يزيد على ما قُتل في هيروشيما. ومع ذلك فإنه حتى إدخال القنبلة الذرية، فشلت استراتيجية الرعب، تمامًا كما فشلت في كل من ألمانيا وبريطانيا. وبدلاً من تدمير الإيمان بالحكومة، حشد قصف المناطق المدنية الجمهور لتأييد المجهود الحربي، فقد أثار الهجمات الغضب بينما جعلت من السهل على الحكومات المستهدفة تصوير نتائج الهزيمة على أنها أكثر هولاً مما يمكن التفكير فيه. وإذا كان العدو على استعداد لقطع تلك الأشواط لتشتت الموارد أثناء الحرب لمجرد قتل المدنيين، فلك أن تتخيل ما يمكن أن يفعلوه عندما تنتهي الحرب. لقد يَسِّر الرعب شيطنة العدو، وجعل الاستسلام أمرًا لا يخطر على بال أحد.

في الحروب التقليدية، يتم إحداث الرعب بالقوة المجمعة. ولكن الرعب يمكن إحداثه كذلك، من خلال عملية سرية يقوم بها عدد صغير جدًا من الأفراد، كهجوم الكوماندوز. وكانت هذه العمليات في يوم من الأيام مقصورة بصورة عامة على الاغتيال، لكن بعد اختراع المتفجرات العالية - مضاعفات القوة للمتفجرات العالية كالطائرات - ركز إرهاب الكوماندوز على الأهداف المدنية؛ بغرض إيقاع الضحايا الذي هو غاية في حد ذاته.

من المهم هنا التمييز بعناية بين الكوماندوز الذين أهدافهم عسكرية، وهؤلاء الذين أهدافهم مدنية وغرضهم هو الإرهاب؛ فقد هاجمت المقاومة الفرنسية في عام 1944 منشآت النقل الألمانية في محاولة للقضاء على قدرة الغازي على شن الحرب بشكل مباشر. ومع ذلك فليس هدف كوماندوز الإرهاب إلحاق ضرر بجيش العدو، وإنما القضاء على الروح المعنوية للعدو بتوليد إحساس بالهشاشة. وفي بعض الأحيان، لا يكون جمهور البلد هو الهدف وإنما الرأي العام في مكان آخر، كما هو حال هجمات الحادي عشر من سبتمبر.

بتوليد الخوف والعجز والغضب، يحول الإرهاب الرأي العالمي، الذي يطالب الحكومة حينذاك بتوفير الحماية من الإرهابيين ومعاينة هؤلاء الأشخاص على أفعالهم. وكلما كان الهجوم الإرهابي أكثر فاعلية، كان السكان أكثر رعبًا، وكانت الحكومة أكثر اضطرابًا للرد بجرأة وبشكل ملحوظ. ومرة أخرى، في مواجهة الرعب، لا بد للرئيس من إقناع الجمهور أنه يشاركه مشاعره، بينما يتخذ الإجراءات التي يبدو أنها ترضي توقعهم إلى الأمن والانتقام.

كان الإجراء شديد الرمزية الذي أُتخذ منذ الحادي عشر من سبتمبر، هو تعزيز نظام أمن المطارات، فرغم مليارات الدولارات والإجراءات غير المعلنة لإحباط الركاب، مازال بإمكان إرهابي مدربٍ اختراع عدد من الطرق للمرور بالمتفجرات أو الأجهزة الأخرى عبر النظام. وقد يمكن ردع بعض الإرهابيين، ويمكن للنظام كشف آخرين، ولكن بينما يمكن لأمن المطارات الحد من التهديد، فهو لا يمكنه منعه.

ليس هناك نظام أمني على قدر من الدقة يكفي لكشف الإرهابيين، على نحو موثوق به أو من الكفاءة بما يسمح لنظام النقل الجوي بالعمل. وكثيرًا ما يُستشهد بالخطوط الجوية الإسرائيلية العال كمثال، لكن العال لديها خمس وثلاثون طائرة. وطبقًا لما ذكره مكتب إحصاءات النقل، يضم الأسطول الجوي الأمريكي المجمع حوالي ثمانية آلاف طائرة، وما يزيد على ستة وعشرين ألف إقلاع في اليوم. وتقول

إدارة أمن النقل إنها فحصت 1,8 مليون راكب في اليوم في المتوسط في عام 2009، وهذه أعداد مذهلة.

ما تقوله لنا قيود فحص المطارات إنه إذا فشلت القاعدة في ضرب الولايات المتحدة مرة أخرى، أثناء العقد المقبل من القرن الحادي والعشرين، فليس هذا بسبب الاحتياطات الأمنية في حد ذاتها. بل إن هناك شكاً في أن يتوقع الأشخاص الذين يصممون نظام أمن المطارات نجاحه؛ فهدفهم الحقيقي هو تهدئة الجمهور ببيان اتخاذ تلك الخطوات على نحو مبالغ فيه، وكلما ازدادت المبالغة وعدم الراحة، بدأ النظام أكثر طمأنة.

لكن تعقيد المتفجرات المتزايد يجعل بالإمكان قتل عشرات الأشخاص بقنبلة يحملها فرد، ومئات الأفراد بقنبلة مخفية في سيارة أو شاحنة، وآلاف الأشخاص بطائرة تعمل كعبوة ناسفة. ويزخر العالم بتلك المتفجرات، وحدود الولايات المتحدة القارية طولها حوالي تسعة آلاف ميل. كما أن الولايات المتحدة بلد تجاري، وتصله السفن والطائرات والشاحنات يوميًا، وأي وسيلة من وسائل النقل تلك يمكن أن تحتوي على أشخاص ومتفجرات مجهزة لقتل أشخاص آخرين، وصحيح كذلك أنه من بين 300 مليون أمريكي، يمكن أن يكون هناك أي عدد من الإرهابيين المحليين الذين يعدون لتوجيه ضربة في أي وقت.

لهذه الأسباب، فإن أمن الوطن الحقيقي في بلد كالولايات المتحدة مستحيل، وستظل المهمة مستحيلة في العقد المقبل؛ إذ ليست هناك حلول سحرية، والقضاء على الإرهاب الإسلامي مستحيل على نحو مشابه. ومن المستحيل - كذلك - الحد من التهديد، ولكن كلما كان التقليل الذي نأمل تحقيقه أكبر، كان الثمن أكبر. وفي ظل الإمكانيات غير المحدودة والموارد غير المحدودة، فإنه من الأمان القول بأنه ستظل هناك هجمات إرهابية على الولايات المتحدة، بغض النظر عن الجهود المبذولة.

لابد لرئيس الولايات المتحدة أن يعلم هذا بوضوح شديد، ويعمل باستمرار على أساس ما يعلمه، غير أنه يتعين عليه ألا يعترف بتلك الحدود للجمهور. ويجب أن يبين باستمرار أنه يفعل كل ما في استطاعته؛ للقضاء على العدو وحماية الوطن، ولا بد أن ينقل باستمرار إحساسًا بأن القضاء على الإرهاب الإسلامي ممكن، بينما هو يعلم أنه غير ممكن.

عندما نشرع في اتخاذ القرارات السياسية الخاصة بالعقد المقبل، تكون النقطة الأكبر هي أن تحويل كل الموارد الأمريكية إلى غاية لا يمكن إدراكها، ضد تهديد يمكن تحمله وسوف يتعين تحمله، ليس بلا فائدة فحسب، بل باعتباره شيئًا يمكن أن يخلق فرصًا سانحة لأعداء آخرين وهجمات أخرى.

بينما يمكن للإرهاب قتل الأمريكيين، خلق إحساس عميق بعدم الأمان، فإن الرغبة المستحوذة للقضاء على الإرهاب يمكن أن تدمر الولايات المتحدة استراتيجيًا - كما فعلت في واقع الأمر. وهذه نقطة من المهم للقادة أخذها في حساباتهم في العقد المقبل. وهذا هو السبب رغم أن آلاف الأمريكيين يمكن أن يقتلهم الإرهابيون - ومن بينهم أنا ومن أحبهم - فإنه لا ينبغي رفع الإرهاب إلى مرتبة القضية التي تعلق كل القضايا الأخرى.. وفي كل الأوقات لابد أن تظل الاستراتيجية متناسبة مع التهديد.

### الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل

الواقع غير السار الآخر، الذي سوف يحوم في أفق السنوات العشر المقبلة، ولا بد من بحثه منفردًا، هو أسلحة الدمار الشامل؛ فوجود تلك الأسلحة سوف يدفع من حين لآخر إلى ردود قاسية من الرئيس الذي يقودنا. إن الضرر الذي يمكن أن تحدثه قنبلة نووية يهون بجانبه ذلك الذي يحدثه الإرهاب التقليدي، وبينما نادرا ما يكون الإرهاب التقليدي استراتيجيًا، فإن أسلحة الدمار الشامل يمكن أن يكون لها أثر مضاعف على الحالة المادية للبلاد.

كي نعود باهتمامنا مرة أخرى إلى بوش، ففي واقع الأمر أنه كان هناك في رده على الحادي عشر من سبتمبر ما هو أكثر من مجرد وقف الإرهاب التقليدي، فبعد ذلك اليوم تلقت إدارة بوش معلومات استخباراتية تفيد بأن قبلة نووية - على وجه التحديد قبلة داخل حقيبة سفر من الحقيبة السوفيتية - قد سُرقت وربما تكون في أيدي القاعدة. وهكذا فإن الهاجس الذي انتاب الإدارة في الشهور الأخيرة من عام 2001 هو أنه يمكن، في أية لحظة، تدمير مدينة أمريكية بواسطة سلاح نووي.

كان ذلك التهديد هو الذي حدد جهود إدارة بوش الأولية، ولم يتواجد الرئيس ونائب الرئيس في مدينة واحدة قط في الوقت نفسه، وتم توجيه كل أجهزة الاستخبارات والأمن إلى العثور على السلاح. وسوف يتضح أنهم لم يعثروا عليه، أو ربما لم يكن له وجود؛ فبعد سنوات من سوء التعامل ربما فقدت مفعولها، أو ربما جرى اعتراضه، واختارت الحكومة ألا تكشف عن وجوده.

بغض النظر عن ذلك، تمثل أسلحة الدمار الشامل، وبشكل خاص القنابل النووية، فئة من التهديد لا يمكن التفاوضي عنها؛ فقد يحتاج الأمر إلى كثير من الأسلحة النووية للقضاء على بنية الولايات المتحدة التحتية وسكانها، ولكن الهجوم الواحد بواسطة سلاح نووي قد يزعزع الروح المعنوية إلى حد إصابة البلاد بالشلل لفترة ممتدة من الزمان.

في هجوم إرهابي صغير يموت فيه العشرات، كالتفجيرات الانتحارية في إسرائيل، احتمال أن يكون أي فرد من السكان البالغ عددهم 300 مليون ضحية ضئيل. ويكون احتمال الموت نتيجة لحادث عادي أو مرض في العام المقبل أعلى بكثير من القتل في تفجير انتحاري؛ فقد شوّهت أحداث الحادي عشر من سبتمبر تصور الخطر لبعض الوقت، وتجنب الناس السفر بالطائرات، وربما تجنبوا التواجد في الأماكن المزدحمة والمباني المميزة. ولكن بمرور الوقت، تضاعف الإحساس بكون المرء هدفًا لهجوم ما. وكان الخطر في عقول معظم الناس، عندما كانوا

يذهبون إلى المطار، وربما عند دخولهم برج سيرز أو مبنى إمباير ستيت أو الكايتبول. غير أنه بمرور الوقت، جرى استيعاب المخاطرة المتصورة الخاصة بالتواجد في المكان الخطأ في الوقت الخطأ في الضوضاء الخلفية العامة. وعندما حدث ذلك، رأى أشخاص كثيرون أن المطالبة باتخاذ كل الخطوات للحماية من الإرهاب باتت مزعجة؛ بسبب ما اعتبروه مبالغات ومضايقات واقتحامات.

مع وجود أسلحة الدمار الشامل، تكون احتمالات الخوف واستمراره مختلفة. ولنفترض أن مدينة أمريكية دمرتها قنبلة نووية، فما إن يدمر هجوم بأسلحة الدمار الشامل مدينة، فسوف يكون عدد الأهداف التي يرغب أحد الإرهابيين في ضربها بعد ذلك صغيراً نسبياً، ولكن بالنسبة لشخص يقيم في إحدى المدن الكبرى، سيكون هناك الخوف الفوري والمعقول من أن العدو لديه المزيد من تلك الأسلحة، وأنه يمكن أن يوجه ضربة في أية لحظة.

من منظور الإرهابي، إهدار سلاح نووي على سبوكان بولاية واشنطن أو بانجور بولاية مين لا معنى له؛ فالمهم هو المدن الكبرى التي هي مراكز الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ فهو يرى أن جلاء المواطنين المذعورين عنها لن يحدث الفوضى فحسب، بل هجر الأنظمة الاقتصادية وأنظمة الاتصالات بالكامل، بينما يفر ملايين اللاجئين إلى أماكن غير محددة. وسوف يكون هذا الرد على الخوف من الإفناء الجماعي؛ نتيجة لتهديد عشوائي بالمرّة الهدف النهائي للإرهاب باستخدام أسلحة الدمار الشامل.

يعمل الإرهابيون من كل الأنواع - فلسطينيون<sup>(\*)</sup> وأوروبيون ويابانيون - منذ الستينيات، وكان معظم هذه الجماعات سيقبل بشغف فرصة إحداث ذلك النوع من الضرر، الذي يمكن أن يولّده أحد أسلحة الدمار الشامل. وكان الكثير من تلك

(\*) هناك خلط واضح من المؤلف في اعتباره «الفلسطينيين» الذين يقاتلون من أجل استرداد وطنهم إرهابيين - المراجع.

الجماعات متقدمًا أكثر بكثير من الناحية التقنية عن القاعدة، فلماذا لم يقع هجوم فعلي بأحد أسلحة الدمار الشامل؟

الإجابة البسيطة هي أنه بينما كان تركيب أحد أسلحة الدمار الشامل ونشره أمرًا سهل تخيله، فقد كان من الصعب جدًا تنفيذه؛ فالأسلحة الموجودة قليلة نسبيًا، ومحمية بشدة، ويصعب نقلها، ومن المرجح أن تقتل الإرهابي، قبل أن تتاح له الفرصة لقتل أي شخص آخر. وهناك تقارير كثيرة عن أسلحة الحقيبة السوفيتية وأسلحتها الكيماوية المتاحة في السوق السوداء، ولكن معظم الجهود بُذلت من جانب وكالات الاستخبارات لإغواء الإرهابيين كي يقعوا في الفخ. فإذا كنت إرهابيًا، أعطاك كولونيل سوفيتي سابق قنبلة نووية داخل حقيبة سفر، فكيف يمكنك معرفة ما إذا كان ما تنظر إليه شيئًا حقيقيًا أم مجرد صندوق محشو بالأسلاك واللمبات المومضة؟ ويصدق الشك نفسه على الأسلحة الكيماوية أو البيولوجية كذلك. وليست الأجهزة الاستخباراتية مضطرة لمعرفة من يبيع أسلحة دمار شامل حقيقية لترويع العملاء، ويقبل إغراء الحصول على تلك الأسلحة بشكل كبير، عندما يفوق عدد ضباط الاستخبارات، الذين يعرضونها للبيع باعتبارها مصيدة، عدد العروض المشروعة بنسبة واحد إلى مائة.

هناك بالطبع خيار صنع تلك الأسلحة بنفسك، وفي كل عام ينشر طالب جامعي ما رسماً لكيفية صنع قنبلة نووية. وفيما بين هذا الرسم السريع والنجاح الخطوات التالية: الحصول على المواد الانشطارية، إلى جانب كل الدوائر والأغلفة، والحصول على الآلات اللازمة لتجهيز المواد الانشطارية، والتفاوت الدقيق اللازم لكي تنفجر؛ وإشراك الخبراء الذين يمكنهم بالفعل القيام بهذه الأمور.. بمجرد حصولك على المواد والمعدات؛ والعثور على منشأة آمنة، يمكن أن يعمل فيها الخبراء وقيموها، وهلمَّ جراً. وتتضاعف فرص اكتشافهم في كل مرحلة من مراحل هذه العملية المسببة للمعاناة، فحتى إذا استطعت الحصول على المواد الانشطارية المحفوظة بشكل



جيد، فالآلات اللازمة لإنتاج السلاح النووي شديدة التخصص، ومن يصنعونها قليلون جدًا. وعندما يظهر شخص على نحو فردي ومعه بطاقة الائتمان الخاصة به لكي يطلب واحدة من تلك الآلات، فإن احتمالات التعرف عليه تكون كبيرة جدًا في واقع الأمر.

بالنسبة للأسلحة البيولوجية والكيميائية، يمكنك أن تضيف إلى تلك المخاطر نفسها احتمال أن يكون الشخص الوحيد، الذي سقتله هو نفسك والمتواطئين المباشرين معك. وتحمل الأسلحة الكيميائية والبيولوجية طبقة إضافية من التعقيد، وهي أنه لا بد من نشرها على نطاق واسع. فعندما أطلقت جماعة يابانية السارين، وهو غاز أعصاب مميت إلى حد بعيد، في قطار أنفاق طوكيو، ظل التلوث محصورًا في ذلك المكان، وقتل قليل من الأشخاص فحسب، وليس تلك الأعداد الكبيرة التي كان الإرهابيون يأملونها. ويتحدث الناس باستمرار عن كيف أن كمية ضئيلة من هذا أو ذاك يمكن أن تقضي على مدينة بأكملها - هذا صحيح بالتأكيد - ولكن عليك أولاً أن تخطط كيف تنشرها.

بلد واحد هو الذي أنتج السلاح النووي من الصفر - إنه الولايات المتحدة - فالبريطانيون حصلوا على قنابلهم النووية، تعويضًا عن إسهامهم في الجهود البحثية الأمريكية. وحصل الفرنسيون على التكنولوجيا من الأمريكيين؛ حيث أعادوا إهداءها إلى إسرائيل. واستولى الروس على المعرفة من الأمريكيين، ثم نقلوها إلى الصينيين والهنود، وأعطى الصينيون التكنولوجيا للباكستانيين. المهم هو أن تطوير هذه الأسلحة من خلال برنامج أبحاث مستقل أمر هائل الصعوبة، وهذا هو السبب في أن إيران مازالت تكافح في هذا الصدد، ولم تحصل عليه كوريا الشمالية بالشكل الصحيح إلى حد كبير.

كما أن الأزمة المالية خلقت اختلالًا داخليًا في الولايات المتحدة، فقد ولّد الحادي عشر من سبتمبر اختلالًا استراتيجيًا. وسوف تتعين معالجة ذلك في العقد

المقبل، وسوف يجب اتخاذ قرارات صعبة. والاستراتيجية المقصود بها منع القوى المهيمنة الإقليمية من تهديد المصالح الأمريكية، هي استراتيجية توازن القوى، وتتطلب وجوداً أمريكياً في مناطق متعددة. ولهذا السبب سيكون العقد المقبل خاصاً بإعادة تحديد الاستراتيجية الأمريكية؛ بحيث يمكنها السعي لتحقيق تلك المصالح؛ مما يعني التحرك إلى ما بعد الحرب على الإرهاب، وإعادة تحديد المصالح في كل منطقة وكذلك العالم، والمكان الجيد للتفكير في ذلك هو إسرائيل.

## الفصل السادس

### إعادة تحديد السياسة:

### حالة إسرائيل

لا تواجه الولايات المتحدة علاقة دولة أكثر تعقيداً من العلاقة، التي تحافظ عليها مع إسرائيل. وليست هناك علاقة مفهومة بشكل أكثر سوءاً منها، في الأغلب من الإمبريكيين والإسرائيليين؛ إذ يبدو أن العلاقات الأمريكية الإسرائيلية تسمم العلاقات الأمريكية الإسلامية، وتعد إنهاء الحروب في الشرق الأوسط. بالإضافة إلى ذلك، هناك البعض ممن يعتقدون أن إسرائيل تمارس سيطرة على السياسة الخارجية الأمريكية، وهو الرأي الذي ليس مقلداً في اقتصاره على الإصويين الإسلاميين. فالواقع المعقد، وكذلك التصور الأكثر تعقيداً للعلاقة التي تربط الولايات المتحدة وإسرائيل، سيظل قضية أساسية بالنسبة لاستراتيجية الولايات المتحدة العالمية على مدى العقد المقبل.

العلاقات الأمريكية الإسرائيلية كذلك دراسة حالة للجدل الدائر بين الواقعيين والمثاليين في السياسة الخارجية، وتقوم العلاقات الأمريكية الوثيقة مع إسرائيل على المصلحة القومية وعلى الاعتقاد الأخلاقي بأنه يتعين على الولايات المتحدة دعم أنظمة مشابهة لها. وأصبحت الفكرة الأخيرة بالطبع أرض معركة فلسفية مكثفة. فعلى الجانب المثالي هناك من يركزون على نوع النظام الحاكم لدى إسرائيل، التي هي جزيرة للديمقراطية، في بحر من الأوتوقراطيين. ولكن هناك كذلك من يقولون

أنه بسبب معاملة إسرائيل للفلسطينيين، فقد حُرِّمَت من أية دعاوى أخلاقية. وعلى الجانب الواقعي، هناك من يقولون إن إسرائيل في سبيلها لإقامة علاقات أفضل مع العرب، ومن يقولون إنهم حلفاء في الحرب ضد الإرهاب.

إذا كان هناك مكان العثور فيه على طريق متمادك يشمل المصالح الاستراتيجية والأخلاقية أكثر صعوبة، فلا يمكنني التفكير في طريق، ولكن لكي نفهم الوضع الراهن بحق، لا بد أن نعود إلى التاريخ.

بناء على قَدَم الشرق الأوسط، فمن حسن الحظ أن فهم جغرافيته السياسية المعاصرة لا يتكلف إلا العودة فحسب إلى القرن الثالث عشر، فذلك هو الوقت الذي كانت فيه الإمبراطورية البيزنطية في سبيلها إلى الأفول، وانتقلت فيه السيطرة على المناطق المطلة على البحر الأسود وشرقي المتوسط إلى الأتراك العثمانيين. وبحلول عام 1453، كان الأتراك قد فتحوا القسطنطينية، وبحلول القرن السادس عشر كانوا يسيطرون على معظم الأراضي، التي كانت قد خضعت للإسكندر الأكبر. وكان معظم شمال إفريقيا واليونان والبلقان، وكذلك منطقة ساحل المتوسط الشرقي، تحت سيطرة العثمانيين منذ زمن كولمبس حتى القرن العشرين.

كل هذا انتهى عندما هُزم العثمانيون، الذين تحالفوا مع ألمانيا، في الحرب العالمية الأولى، وذهبت الغنائم إلى المنتصرين، وكانت تشمل منطقة عثمانية ممتدة معروفة باسم سوريا، وقسّم اتفاق سري في زمن الحرب بين البريطانيين والفرنسيين، وهو معاهدة سايكس بيكو Sykes-Picot هذه المنطقة بين الحليفين على خط، يمتد تقريبًا من جبل الشيخ حتى البحر شرقًا. ووضعت المنطقة الواقعة إلى الشمال تحت السيطرة الفرنسية، بينما وضعت المنطقة الواقعة إلى الجنوب تحت سيطرة البريطانيين. ولم تؤد التقسيمات الأخرى ليس إلى ظهور البلد الحديث سوريا فحسب، بل أدت إلى ظهور لبنان والأردن وإسرائيل كذلك.

كان الفرنسيون قد سعوا إلى أن يكون لهم نفوذ في هذه المنطقة منذ أيام نابليون، كما أنهم قدموا تعهدًا بالدفاع عن المسيحيين العرب في المنطقة، في مواجهة غالبية السكان المسلمين. وأثناء الحرب الأهلية التي استعرت في المنطقة في ستينيات القرن التاسع عشر، تحالف الفرنسيون مع الفصائل التي أقامت علاقات مع فرنسا، وكانت باريس ترغب في الحفاظ على هذا التحالف، ولذلك ففي العشرينيات من القرن العشرين، عندما سيطر الفرنسيون في النهاية، حولوا تلك المنطقة من سوريا التي غالبية سكانها من الموارنة (المسيحيين) إلى بلد منفصل أسموه على سِمةٍ جغرافية مهيمنة هي جبل لبنان. وفي ذلك الحين لم يكن للبنان، كدولة، واقع سابق، وكان ملمحه الرئيسي الموحد هو أن شعبه شعر بارتباط مع فرنسا.

قُسمت المنطقة البريطانية الواقعة في الجنوب على خطوط، على قدر مشابه من التعسف؛ فأثناء الحرب العالمية الأولى أيدت العشيرة المسلمة التي تحكم منطقة غربي الحجاز بشبه جزيرة العرب، وهي الهاشميون، البريطانيين. وفي المقابل، وعد البريطانيون بجعل هذه الجماعة حكامًا لجزيرة العرب بعد الحرب، ولكن لندن قدمت تعهدات لقبائل أخرى كذلك؛ إذ شنت عشيرة منافسة تتمركز في الكويت، وهي آل سعود، حربًا ضد الأتراك في عام 1900، في محاولة للسيطرة على الأجزاء الشرقية والوسطى من شبه جزيرة العرب. وفي صراع اندلع بعد الحرب العالمية الأولى بوقت قصير، هزم آل سعود الهاشميين، وبذلك أعطاهم البريطانيون جزيرة العرب - ومن ثم نشأت المملكة العربية السعودية الحالية، وتلقى الهاشميون مكافأة ترضية هي العراق، حيث حكموه حتى عام 1958، عندما أطاح بهم انقلاب عسكري.

نُقِل الهاشميون الباقون في شبه جزيرة العرب إلى منطقة في الشمال، على امتداد ضفة نهر الأردن. وهذه المحمية الجديدة التي تركزت حول بلدة عمّان، وكانت تفتقر إلى أية هوية واضحة أخرى، أصبحت تُعرف باسم إمارة شرق الأردن، كما في «عبر

الأردن»<sup>(\*)</sup>، وبعد انسحاب البريطانيين في عام 1948، أصبحت إمارة شرق الأردن هي الأردن المعاصر، ذلك البلد الذي لم يكن له وجود من قبل، كلبنان والمملكة العربية السعودية.

غرب الأردن وجنوب جبل الشيخ منطقة أخرى، كانت في يوم من الأيام مركزًا إداريًا من مراكز سوريا العثمانية. وكان معظمه يسمى فلسطين، وهو بلا شك نسبة إلى الفلسطينيين، الذين حارب بظلمهم جوليات (جالوت) داود قبل آلاف السنين. وأخذ البريطانيون كلمة «فلسطين» Filistin ومرروها في اللغة اليونانية القديمة، وخرجوا بكلمة فلسطين Palestine كاسم لهذه المنطقة القديمة، وكانت عاصمتها القدس، ولهذا كان سكانها يسمون الفلسطينيين.

لم يكن أي من تلك البقايا دولة بمعنى أن لها تاريخًا مشتركًا أو هوية مشتركة، ماعدا سوريا نفسها، التي يمكنها ادعاء أن لها سلسلًا يمتد في القدم إلى العصور التوراتية. أما لبنان والأردن وفلسطين، فكانت مخترعات فرنسية وبريطانية، خُلقت من أجل مصلحتهما السياسية. ويعود تاريخها القومي فقط إلى وقت مستر سايكس ومسيو بيكو، وبعض الخداع في شبه جزيرة العرب.

لكن أيها لا يمكن أن نقول عنه إن سكانها لم تكن لهم صلة تاريخية بالأرض، التي عاشوا عليها. وإذا لم تكن الأرض وطنهم، فمن المؤكد أنها مكان عاشوا فيه، ولكن حتى ذلك كان يكتنفه التعقيد. ففي ظل الحكم العثماني، كانت ملكية الأرض في فلسطين شبه إقطاعية، حيث كان مُلَّاك الأراضي الغائبون يجمعون الإيجار من الفلاحين، الذين يفلحون الأرض بالفعل.

ويدخل اليهود؛ إذ كان أفراد الشتات الأوروبي يُنقلون إلى هذه المنطقة منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر، حيث ينضمون إلى الجاليات اليهودية الصغيرة نسيًا، التي كانت موجودة هناك (وفي معظم المناطق العربية الأخرى) منذ قرون. وكانت

(\*) كما جاء ذكرها في يوحنا، ا: 28 «هذا كان في بيت عَبْرَة في عبر الأردن حيث يوحنا يُعمد» (المترجم).

تلك الهجرة جزءاً من الحركة الصهيونية - بدافع من الفكرة الأوروبية الخاصة بالدولة القومية - التي سعت إلى خلق وطن يهودي في المنطقة، التي سيطر عليها اليهود لآخر مرة في العصور التوراتية.

جاء اليهود بأعداد صغيرة؛ حيث استقروا على أراضٍ اشتروها بأموال جمعها اليهود في أوروبا. وباستمرار، كانت تلك الأراضي تُشترى من ملاك الأراضي الغائبين، الذين باعوها من وراء المستأجرين العرب. ومن وجهة النظر اليهودية، كان ذلك استحواذاً مشروفاً على الأرض، أما من وجهة نظر المستأجرين، فقد كان ذلك اعتداءً مباشراً على مصدر رزقهم، وكذلك طرداً من الأرض التي كانت عائلاتهم تفلحها منذ أجيال. وعند وصول المزيد من اليهود، أصبح الاستحواذ على الأراضي، الذي كان عنوانه يدعو للشك باستمرار على أي الأحوال، أقل تحشماً، بل وأكثر إزعاجاً.

مع أن العرب بصورة عامة (وليست كلية) كانوا يرون اليهود على أنهم غزاة أجنبي، فهم لم يتفقوا على شيء أكثر أهمية، وهو: لمن يدين سكان فلسطين بالولاء الوطني؟

كان السوريون ينظرون إلى فلسطين بالطريقة التي ينظرون بها إلى لبنان والأردن؛ أي على أنها جزء لا يتجزأ من سوريا. وقد عارضوا فلسطين المستقلة، تماماً كما عارضوا وجود دولة يهودية مستقلة، وعارضوا للسبب نفسه استقلال اللبنانيين والأردنيين؛ إذ كانوا يرون أن معاهدة سايكس بيكو كانت انتهاكاً لسلامة أراضي سوريا القديمة.

كان للهاشميين - وهم في الأصل من شبه جزيرة العرب - مشكلات أكبر مع الفلسطينيين. فعلى أية حال، كان الهاشميون القبيلة الآتية من جزيرة العرب المزروعة على الضفة الغربية لنهر الأردن. وبعد أن رحل البريطانيون في عام 1948، أصبحوا حكاماً لما هو الآن الضفة الغربية لعدم وجود منافس لهم. ورغم مشاركتهم العرقية والدين الإسلامي للفلسطينيين، الذين هم أهل هذه المنطقة الأصليين، فقد كان هؤلاء

المزروعون مختلفين اختلافًا شديدًا في الثقافة والتاريخ. والواقع أن الجماعتين كانتا معاديتين إحداهما للأخرى إلى حد كبير، فكان الهاشميون (الذين صاروا أردنيين) يرون أن الفلسطينيين ملكهم من الناحية القانونية، على الأقل ذلك الجزء الذي تبقى بعد حصول إسرائيل على الاستقلال. والواقع أنه اعتبارًا من الوقت، الذي أصبح فيه اليهود أكثر عددًا وبأسا في فلسطين، نظر الحكام الهاشميون إلى هؤلاء المهاجرين الجدد من شرق أوروبا وأماكن أخرى، على أنهم حلفاء ضد الفلسطينيين الأصليين.

إلى الجنوب الغربي من إسرائيل كان هناك المصريون، الذين كانوا كذلك في فترات مختلفة يسيطر عليهم الفرنسيون والبريطانيون، وكذلك العثمانيون. وفي عام 1956 شهدوا انقلابًا عسكريًا جاء بجمال عبد الناصر إلى السلطة<sup>(\*)</sup>، وعارض ناصر وجود إسرائيل، ولكن كانت له رؤية مختلفة جدًا للفلسطينيين. وكان حلم ناصر هو إقامة دولة عربية واحدة، هي الجمهورية العربية المتحدة، التي أقامها بعد وقت قصير مع السوريين. وكان يرى أن البلدان العربية كلها منتجات غير شرعية للإمبريالية، ولا بد أن تنضم جميعها في دولة واحدة تحت قيادة الدولة العربية الأكبر والأقوى مصر. وعند النظر إلى فلسطين في ذلك السياق، لم يكن هناك شيء اسمه فلسطين، وكان الفلسطينيون مجرد عرب يشغلون قطعة ما من الأرض، ليست لها حدود واضحة.

إذا كانت كل الدول العربية داخل المنطقة، ما عدا الأردنيين، تريد القضاء على إسرائيل، لكن أيًا منها لم يؤيد فلسطين المستقلة، أو حتى يناقش هذا الأمر. وحتى قطاع غزة الذي احتلته مصر أثناء حرب استقلال إسرائيل في عام 1948، كان يُدار باعتباره جزءًا من مصر طوال العشرين عامًا التالية - وظلت الضفة الغربية جزءًا من الأردن - وكان السوريون يريدون عودة الأردن كله وفلسطين إليهم، إلى جانب لبنان.

(\*) وقع الانقلاب في عام 1952. ولكن عام 1956 شهد الاستفتاء على الدستور، الذي اختار النظام الجمهوري الرياسي الذي يكون فيه رئيس الدولة في الوقت ذاته رئيس الوزارة وأجري استفتاء في العام نفسه على منصب الرئيس، وأصبح جمال عبد الناصر رئيسًا للجمهورية (المترجم).



وكان ذلك الأمر معقدًا إلى حد كبير، ولكن حرب الأيام الستة في عام 1967 خلطت الأوراق مرة أخرى.

في عام 1967، طردت مصر قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة من شبه جزيرة سيناء وأعدت عسكرتها، كما أغلقت مضيقي تيران وباب المندب، وهو ما أدى إلى عزل ميناء إيلات عن البحر الأحمر. وردًا على ذلك، هاجم الإسرائيليون ليس المصريين فحسب، بل كذلك الضفة الغربية الأردنية، التي كانت قد قصفت القدس بالقنابل، ومرتفعات الجولان في سوريا، التي كانت قد قصفت المستوطنات الإسرائيلية.

غيّر نجاح إسرائيل، الذي شمل احتلال غرب الأردن، شكل المنطقة كلها؛ إذ صار فجأة عدد كبير من السكان الفلسطينيين العرب عن كُرهِ منهم تحت حكم الدولة الإسرائيلية، ويبدو أن نية إسرائيل في البداية كانت مبادلة المناطق التي احتلتها بسلام دائم مع جيرانها. ومع ذلك، فقد ردت الدول العربية، في اجتماع عُقد في الخرطوم بعد حرب 1967، بـ«اللاءات الثلاث» المشهورة: لا صلح، لا اعتراف، لا تفاوض. وفي تلك اللحظة صار الاحتلال الإسرائيلي للمناطق الفلسطينية سابقًا احتلالًا دائمًا.

وكانت تلك كذلك هي اللحظة التي أصبح يُنظر فيها إلى الفلسطينيين، لأول مرة، على أنهم دولة منفصلة. ورعى المصريون جماعة عُرفت باسم منظمة التحرير الفلسطينية ووضعت شابًا اسمه ياسر عرفات قائدًا لها. وكان ناصر لا يزال متعلقًا بفكرة الوحدة العربية، ولكن لم تختَر دول أخرى قبول قيادته، ولم يكن ناصر مستعدًا للخضوع لأي شخص آخر؛ الأمر الذي ترك منظمة التحرير الفلسطينية والمنظمات المكوّنة لها، كفتح، وحدها المدافعة عن فكرة الدولة الفلسطينية.

كان الأردنيون سعداء لجعل الفلسطينيين يعيشون في أراضٍ إسرائيلية، باعتبارهم مشكلة إسرائيلية، كما أسعدهم كذلك الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلًا

للشعب الفلسطيني، وأسعدهم كذلك أن الإسرائيليين لم يسمحوا للفلسطينيين بأن يكونوا مستقلين. وأيد السوريون منظماتهم، كالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، التي دعت إلى القضاء على إسرائيل ودمج الفلسطينيين في سوريا. وبذلك لم يكن الاعتراف بالقومية الفلسطينية من جانب العرب عامًا ولا وديًا؛ فالواقع أن التأييد العربي للفلسطينيين بدا أنه يزداد بما يتناسب مع بعد المسافة بين العرب وفلسطين.

ينبغي أن يتضح من هذا الملخص أن الحجة الأخلاقية السائدة بشأن حقوق إسرائيل، التي لا بد لأي رئيس أمريكي التعامل معها، شديدة التعقيد. فبخلاف التشريد الهائل للسكان، الذي حدث مع خلق إسرائيل الحديثة، لم تمثل هجرة اليهود الأوروبيين تدميرًا للدولة الفلسطينية؛ لأن هذه الدولة لم يكن لها وجود قط؛ فواقع الأمر أن الهوية القومية الفلسطينية ظهرت فقط نتيجة لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي بعد 1967. وكان العداء تجاه الادعاءات القومية الفلسطينية على القدر نفسه من الشدة الذي كان من اليهود، وتشكلت السياسة الخارجية الإسرائيلية بواسطة هذا الواقع، واستفادت منها كي تفرض النظام السياسي الحالي على المنطقة. ولكن مهما كان الحال في الماضي، فمن المؤكد اليوم أن هناك أمة فلسطينية واعية بنفسها، وهذا جزء مما يجب أن يشكل السياسة الأمريكية في المستقبل.

بالإضافة إلى التعامل مع هذا التاريخ المعقد على نحو غير معقول، ويضغط على أي حكم أخلاقي، كان لا بد أن تتوافق السياسة الأمريكية في هذه المنطقة مع حقيقتين أساسيتين، أولاً: مهما كان ادعاء الإسرائيليين التاريخي، فإنه من منظور القرن العشرين، كان اليهود مستوطنين من قارات أخرى شردوا السكان الأصليين. وكذلك، من الصعب على الأمريكيين، الذين شردوا سكانهم الأصليين على نحو أشمل، أن يقدموا حجة أخلاقية ضد إسرائيل؛ لاغتصابها الأرض الفلسطينية وإساءة معاملة السكان الأصليين.

الحكم الأخلاقي الأقوى هو ذلك الذي أصدره روزفلت؛ دعمًا لفرنسا وإنجلترا في مواجهة ألمانيا النازية: إسرائيل (مع استبعاد الضفة الغربية وغزة) بلد ديمقراطي، والولايات المتحدة هي «ترسانة الديمقراطية»، ويعني هذا أن الولايات المتحدة لها علاقة خاصة بالدول الديمقراطية، وكذلك الالتزامات التي تتجاوز الجيوبوليتيكا. ولهذا السبب، يتعين على الولايات المتحدة دعم إسرائيل الديمقراطية، مع عدم أخذ الاعتبارات الأخلاقية وحتى الجيوبوليتيكية الأخرى في الحسبان.

لن يقبل الواقعيون ذلك. فسوف يقولون إن الادعاءات الأخلاقية لأي جانب ليس لها تأثير على الولايات المتحدة، وأن على الولايات المتحدة صياغة سياساتها تبعًا لمصلحتها الوطنية. ومع ذلك - وكما سبق أن قلت - فإن السعي لتحقيق المصلحة الوطنية، دون الرجوع إلى غرض أخلاقي يجعل المصلحة الوطنية ضحلة وغير مكتملة. والأمر الأهم هو أن تحديد المصلحة الوطنية في المنطقة تبعًا لمفاهيمها هو أمر بالغ الصعوبة، فلا بد من وجود البوصلة الأخلاقية، غير أنها تشير إلى اتجاهات كثيرة. والسعي لتحقيق المصلحة الوطنية أقل وضوحًا مما قد يبدو.

يمكن تشكيل الأخلاقيات الراسخة في الادعاءات التاريخية؛ كي تتلاءم مع الوضع، وهو ما تفعله كل الأطراف، ولا يتعامل الحكم الأخلاقي البسيط مع الواقع على الأرض، ومجرد التوصل إلى موقف أخلاقي متماسك أمر صعب على نحو مذهل. وبالنسبة للموقف الواقعي، فمن الصعوبة البالغة استخراج ما ينبغي أن يكون، وبذلك فالسؤال، هو: كيف نصوغ سياسة خارجية، تخدم الغرض الأخلاقي والمصلحة الوطنية - في آن واحد - في العقد المقبل؟ للعشور على الإجابة، لا بد لنا من بحث تاريخ العلاقة بين إسرائيل والولايات المتحدة.

#### الولايات المتحدة وإسرائيل

اعترفت الولايات المتحدة باستقلال إسرائيل في عام 1948، ولكن البلدين لم يكونا حليفين بأي معنى للكلمة؛ فبينما كانت الولايات المتحدة تعترف باستمرار

بحق إسرائيل في الوجود، لم تحرك هذه الحقيقة السياسة الأمريكية قط؛ فقد كانت المصلحة الأمريكية الأساسية في عام 1948، عندما جاءت إسرائيل إلى الوجود، هي احتواء الاتحاد السوفيتي، وكان التركيز الأمريكي في المقام الأول على تركيا واليونان؛ إذ كان في اليونان تمرد شيوعي داخلي، وكان كل من اليونان وتركيا يواجهان تهديدًا سوفيتيًا خارجيًا كذلك، وكانت الولايات المتحدة ترى أن تركيا هي مفتاح المنطقة؛ فقد منع مضيق البوسفور في تركيا فحسب الأسطول السوفيتي في البحر الأسود من دخول البحر المتوسط بكامل قوته. وإذا سقط هذا المضيق في أيدي السوفيت، فسوف يمكنهم تحدي القوة الأمريكية وتهديد جنوب أوروبا.

كانت العقبة الرئيسية أمام استراتيجية الاحتواء الأمريكية في الشرق الأوسط، هي محاولة البريطانيين والفرنسيين إعادة ترسيخ نفوذهم في المنطقة، التي كانت بحوزتهم قبل الحرب العالمية الثانية. وسعيًا لإقامة علاقات أوثق في العالم العربي، كان يمكن للسوفييت استغلال العداء لمكائد الأوروبيين، وهو ما فعلوه، وبلغت الأمور حدًا لا بد معه من عمل شيء ما في عام 1956، بعد أن تولى ناصر السلطة وأمم قناة السويس. لم يكن أي من البريطانيين أو الفرنسيين (الذين كانوا يحاربون لقمع الثورة المعادية للاستعمار في الجزائر، وكانوا يكافحون لاستعادة نفوذهم في لبنان وسوريا) يريدون أن تسيطر مصر على القناة، ولم تُرد إسرائيل ذلك. وفي عام 1956 وضعت الدول الثلاث خطة للقيام بغزو إسرائيلي لمصر، ولكنه غير مباشر. فبعد وصول إسرائيل إلى القناة، سوف تتدخل القوات البريطانية والفرنسية، حيث تستولي على القناة لتأمينها من الغزو الإسرائيلي والصراع المحتمل مع مصر، وكانت تلك واحدة من بين الأفكار، التي لا بد من أنه كان لها معنى، عندما رُسمت على عجل على إحدى مناشف الكوكتيل بعد بضعة كتوس.

من وجهة النظر الأمريكية، لم يكن محكومًا على المغامرة بالفشل فحسب، ولكنها ستدفع بمصر إلى المعسكر السوفيتي، وهو ما يوفر لهم حليفًا قويًا واستراتيجيًا. وبما

أن أي شيء يمكن أن يزيد النفوذ السوفيتي غير مقبول من الولايات المتحدة، فقد تدخلت إدارة أيزنهاور ضد مشروع السويس، حيث أجبرت البريطانيين والفرنسيين على الانسحاب، وأجبرت الإسرائيليين على العودة إلى خطوط 1948. وفي أواخر الخمسينيات، لم يكن هناك حب مفقود بين إسرائيل والولايات المتحدة.

كانت المشكلة الاستراتيجية بالنسبة لإسرائيل، هي أن متطلبات أمنها القومي تفوق باستمرار قاعدتها الصناعية والعسكرية. بعبارة أخرى، فإنه في ظل التحديات التي واجهتها من مصر وسوريا، وربما من الأردن، ناهيك عن الاتحاد السوفيتي، لم يكن بإمكانها إنتاج السلاح الذي تحتاجه لحماية نفسها. ولضمان مصدر مطرد للسلاح، كانت بحاجة إلى راعٍ أجنبي.

كان راعي إسرائيل الأول هو الاتحاد السوفيتي، الذي كان ينظر إلى إسرائيل على أنها قوة معارضة لبريطانيا يمكن أن تصبح حليفًا. وأمد اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية إسرائيل بالسلاح من خلال تشيكوسلوفاكيا، ولكن هذه العلاقة انهضت بسرعة. ثم حلت فرنسا، التي كانت لا تزال تحارب في الجزائر، محل السوفيت كراعٍ لإسرائيل. وأيدت البلدان العربية المتمردون الجزائريين، وبذلك كان من مصلحة فرنسا أن تكون هناك إسرائيل قوية، إلى جانب فرنسا في المعارضة.. وهكذا زود الفرنسيون الإسرائيليين بالطائرات والدبابات والتكنولوجيا الأساسية الخاصة بأسلحتهم النووية.

في ذلك الوقت، كانت الولايات المتحدة لا تزال تنظر إلى إسرائيل على أنها ذات أهمية هامشية لأهدافها الاستراتيجية الأوسع في المنطقة. إلا أنه بعد أزمة السويس، بدأت الولايات المتحدة تعيد بحث علاقاتها الاستراتيجية، وكان الأمريكيون قد تدخلوا نيابةً عن مصر في السويس، ولكن المصريين، رغم ذلك، هاجروا إلى المعسكر السوفيتي. وكان الفرنسيون والبريطانيون خلفوا وراءهم مجموعة من الأنظمة الحاكمة، في سوريا والعراق بشكل خاص، غير مستقرة بطبعها ومعرضة بشكل كبير

لمبدأ الناصري، الخاص بالقومية العربية ذات الدافع العسكري. وكانت سوريا قد بدأت التحرك نحو المعسكر السوفيتي منذ عام 1956، ولكن في عام 1963 أقر انقلاب عسكري يساري ذلك الوضع، ووقع انقلاب مماثل في العام نفسه في العراق.

بحلول الستينيات، من القرن العشرين، بدأ الدعم الأمريكي للعرب يبدو مشروعًا مشكوكًا فيه إلى حد كبير، إذ رغم حقيقة أن المساعدة الوحيدة التي تقدمها الولايات المتحدة لإسرائيل هي الغذاء، فقد تحول العالم العربي إلى معاداة أمريكا بإصرار. وكان السوفيت مستعدين لتمويل المشروعات التي لا تمويلها الولايات المتحدة، وكان النموذج السوفيتي أكثر جاذبية للاشتراكيين العرب، وظلت الولايات المتحدة بعيدة إلى حد ما لبعض الوقت، راضيةً بالسماح لفرنسا بالاحتفاظ بعلاقة مع تل أبيب. ولكن عندما بدأت الولايات المتحدة تقديم أنظمة الأسلحة المضادة للطائرات للأنظمة المعادية للاتحاد السوفيتي في المنطقة، كانت إسرائيل ضمن قائمة العطايا.

في عام 1967، أنهى شارل ديغول Charles de Gaulle الحرب الجزائرية، وسعى إلى استئناف العلاقة السابقة مع العالم العربي، ولم يكن يريد أن تهاجم إسرائيل جيرانها. وعندما تجاهل الإسرائيليون مطالبه وشنوا حرب الأيام الستة، فقدوا القدرة على الحصول على الأسلحة الفرنسية، وولد انتصار إسرائيل على جيرانها العرب في صراع 1967 دعمًا مواليًا لإسرائيل في الولايات المتحدة التي تورطت في فيتنام. وبدًا أن إسرائيل تقدم نموذجًا للحرب السريعة والحاسمة التي أحييت الروح الأمريكية، واستفاد الإسرائيليون من هذا الشعور؛ لكسب ود الولايات المتحدة بجرأة.

في صراع مع حرب فيتنام والرأي العام، رأى ليندون جونسون أن الاقتتان العام الأمريكي بالنجاح العسكري الإسرائيلي مفيد من ناحيتين. أولاً: توليد التأييد لأية حرب قد يعزز تأييد حرب فيتنام، ثانياً: عزز الانتصار الإسرائيلي الوجود السوفيتي القوي بالفعل في مصر وسوريا؛ الأمر الذي يجعل إسرائيل حليفًا مفيدًا - وظهر الأساس الاستراتيجي للعلاقة الأمريكية الإسرائيلية - وكان السوفيت قد اخترقوا

سوريا والعراق في منتصف الستينيات، وكانوا يعززون جيشي البلدين. وكانت استراتيجية السوفيت الخاصة بالتعامل مع تطويق حلفاء الولايات المتحدة لهم، هي محاولة التقدم عليهم؛ حيث يجندون حلفاءهم في خطوطهم الخلفية، ثم محاولة زيادة الضغط العسكري عليهم. وكانت تركيا، التي كانت باستمرار في مركز التفكير الاستراتيجي الأمريكي، مفتاح السوفيت، مثلما كانت للأمريكيين. وكان الانقلابان اللذان وقعا في سوريا والعراق - قبل 1967 بكثير - قد فاقما المشكلات الاستراتيجية للولايات المتحدة، وحينذاك كانت تركيا محصورة بين الاتحاد السوفيتي القوي في الشمال، وعميلين سوفيتيين في الجنوب. وإذا وضع السوفيت قواتهم في العراق وسوريا، فإنه يمكن أن تجد تركيا نفسها في مشكلة، ومعها ستمضي الاستراتيجية الأمريكية الخاصة باحتواء السوفيت بالكامل.

كان الإسرائيليون حينذاك يمثلون أصلاً استراتيجيًا، يسمح للولايات المتحدة بتحقيق تقدم في المقابل. ولتقييد القوات العراقية، سلحت الولايات المتحدة إيران، وهي مهمة في حد ذاتها؛ لأنها تشترك في الحدود مع السوفيت، ولم تكن إسرائيل تشترك في الحدود مع السوفيت، ولكنها كانت تشترك في الحدود مع سوريا، وعملت إسرائيل الموالية لأمريكا على تقييد السوريين، بينما جعلت نشر القوات السوفيتية في سوريا أكثر تعقيدًا ومخاطرة. بالإضافة إلى ذلك، وقفت إسرائيل في مواجهة مصر، ولم يكن السوفيت يسلحون المصريين فحسب، بل كانوا يستخدمون ميناء الإسكندرية كقاعدة بحرية، وهو ما كان يمكن أن يتطور إلى تهديد للأسطول السادس الأمريكي في البحر المتوسط.

على عكس الاعتقاد الشائع، لم يصبح المصريون والسوريون موالين للسوفيت بسبب الدعم الأمريكي لإسرائيل؛ فالواقع أنه كان العكس، إذ حدث التحول المصري والانقلاب السوري قبل أن تحل أمريكا محل فرنسا كمصدر لسلاح إسرائيل، وهو التطور الذي حدث في واقع الأمر ردًا على السياسات المصرية والسورية. وما إن

انحازت مصر وسوريا إلى السوفيت، حتى أصبح تسليح الإسرائيليين حلاً منخفض التكلفة لتقييد القوات المصرية والسورية، مع إجبار السوفيت على اتخاذ موقف دفاعي في هذين البلدين. وساعد ذلك على تأمين البحر المتوسط للولايات المتحدة وخفّف الضغط عن تركيا. في تلك اللحظة ولأسباب استراتيجية - وليس أخلاقية - بدأت الولايات المتحدة إمداد إسرائيل بقدر أكبر من المساعدات.

أفلحت الاستراتيجية الأمريكية، فقد طرد المصريون السوفيت في عام 1973، ووقعوا معاهدة سلام مع إسرائيل في عام 1978. وبينما ظل السوريون موالين للسوفيت، أضعف طرد القوات السوفيتية من مصر التهديد السوفيتي في البحر المتوسط، ومع ذلك ظهر تهديد آخر في الوقت نفسه، وهو الإرهاب الفلسطيني.

كانت منظمة التحرير الفلسطينية قد صنعها ناصر كجزء من صراعه الممتد مع ملكيات شبه الجزيرة العربية، في مسعى للإطاحة بالعائلات الملكية، ودمجها في الجمهورية العربية المتحدة. ودرت الاستخبارات السوفيتية أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية ونشروهم، رغبةً منها في إضعاف الولايات المتحدة، بالإسهام في زعزعة الاستقرار في جزيرة العرب. وأصبح الوضع حرجاً في سبتمبر من عام 1970، عندما نظم عرفات انتفاضة ضد الحكام الهاشميين في الأردن، وهم حلفاء أساسيون للولايات المتحدة وحلفاء مستترين لإسرائيل. وفي الوقت نفسه، حركت سوريا مدرعاتها إلى داخل الأردن، حيث كان من الواضح أنها تعزم استخدام الفوضى لتأكيد السلطة السورية، وتدخلت القوة الجوية الإسرائيلية لوقف السوريين، بينما نقلت الولايات المتحدة قوات باكستانية جواً لدعم القوات الأردنية لإحباط الانتفاضة، وقُتل حوالي عشرة آلاف فلسطيني في القتال، وفرّ عرفات إلى لبنان.

كان هذا الصراع أصل جماعة عُرِفَتْ باسم «أيلول الأسود» نفذت، ضمن أشياء أخرى، مذبحة الرياضيين الإسرائيليين في أولمبياد ميونخ عام 1972. وكانت أيلول الأسود الذراع السري لحركة فتح التابعة لعرفات، ولكن ما جعلها مهمة بشكل كبير،



هو أنها كانت كذلك تخدم المصالح السوفيتية في أوروبا. فخلال السبعينيات من القرن العشرين، نظم السوفيت حملة لزعة الاستقرار، حيث عبأ جماعات في فرنسا وإيطاليا وألمانيا، وغيرها، ودعم منظمات مثل الجيش الجمهوري الأيرلندي. أصبح الفلسطينيون قوى مهمة في هذا «الإرهاب الدولي»، وهو التطور الذي أدى إلى تعميق الروابط بين الولايات المتحدة وإسرائيل. ولمنع زعزعة استقرار الناتو، أرادت الولايات المتحدة القضاء على المنظمات الإرهابية التي يربطها السوفيت، وكان أعضاؤها يتلقون التدريب في ليبيا وكوريا الشمالية. ومن جانبهم، كان الإسرائيليون يريدون القضاء على القدرة السرية للفلسطينيين، وتعاونت وكالة الاستخبارات المركزية مع الموساد، وكالة الاستخبارات الخارجية الإسرائيلية، بشدة طوال السنوات العشرين عامًا التالية لقمع الحركة الإرهابية، التي لم تُضعف حتى منتصف الثمانينيات، عندما انتقل السوفيت إلى سياسة أكثر تصالحًا مع الغرب. وفي تلك الفترة، تعاونت وكالة الاستخبارات المركزية والموساد؛ لتأمين شبه جزيرة العرب ضد العمليات السرية للسوفيت ومنظمة التحرير الفلسطينية.

غير انهيار الاتحاد السوفيتي - بل والتحول في السياسة التي وجدت بعد وفاة ليونيد بريجينيف Leonid Brezhnev - هذه الديناميكية بشكل كبير، ولم تعد تركيا في خطر، وكانت مصر دولة ضعيفة منهارة لا تشكل تهديدًا لإسرائيل، كما أنها كانت معادية إلى حد كبير لحركة «حماس»، التي تشكلت في عام 1987، وكانت قد خرجت من عباءة جماعة الإخوان المسلمين، التي كانت تهدد نظام الرئيس المصري حسني مبارك، وكانت سوريا معزولة وركزت على لبنان. وفي ذلك الحين كان الأردن من نواح كثيرة محمية إسرائيلية، وكان التهديد من الحركة الفلسطينية الاشتراكية العلمانية التي شكلت منظمة التحرير الفلسطينية - وكانت تؤيد الحركات الإرهابية في أوروبا - قد تضاعفت على نحو كبير. وبقيت المساعدات الأمريكية لإسرائيل

مطردة، بينما انتعش اقتصاد إسرائيل. وفي عام 1974، عندما بدأت المساعدات تتدفق بكميات كبيرة، كانت تمثل حوالي 21 بالمائة من إجمالي الناتج المحلي الإسرائيلي، وهي الآن تمثل حوالي 14 بالمائة، طبقاً، لبيانات مكتب أبحاث الكونجرس.

مرة أخرى، من المهم فهم أن التعاون الأمريكي الإسرائيلي لم يولد معاداة أمريكا في العالم العربي، بل نتج عنها؛ فالمصالح التي ربطت إسرائيل بالولايات المتحدة منذ عام 1967 حتى عام 1991 كانت واضحة وكبيرة. ومن المهم كذلك فهم حقيقة أنه منذ عام 1991، كان أساس العلاقة أقل وضوحاً بكثير. ويجعل الوضع الحالي من الضروري أن نسأل على وجه الدقة ما الذي تحتاجه الولايات المتحدة من إسرائيل؟، وما الذي تحتاجه إسرائيل، بالإضافة إلى ذلك، من الولايات المتحدة؟ وبينما نبحث السياسة الخارجية على مدى السنوات العشر المقبلة، فمن المهم كذلك أن نسأل بالتحديد كيف تخدم الصلة الوثيقة بإسرائيل المصالح الوطنية الأمريكية؟

بالنسبة للقضية الأخلاقية الخاصة بالحقوق بين الإسرائيليين والفلسطينيين، يتسم السجل التاريخي بالفوضى؛ فالقول بأنه ليس لليهود حق في فلسطين يكون موقفاً يمكن الدفاع عنه، إذا كنت مستعداً لتأكيد أنه ليس للأوروبيين حق في أن يوجدوا في أمريكا أو أستراليا. وفي الوقت نفسه، هناك فجوة واضحة بين حق إسرائيل في الوجود، وحق إسرائيل في احتلال وطن أعداد كبيرة من الفلسطينيين، الذين لا يريدون أن يُحتلوا. ومن ناحية أخرى، كيف تطالب إسرائيل بالتخلي عن السيطرة، بينما لن تعترف أعداد كبيرة من الفلسطينيين بحق إسرائيل في الوجود؟ تصبح الحجة الأخلاقية محيرة، ولا يمكن أن تكون أساساً للسياسة الخارجية على كل جانب. وتأييد إسرائيل لأننا نؤيد الديمقراطيات حجة أكثر إقناعاً إلى حد بعيد، ولكن حتى الحجة هذه لا بد أن تكون راسخة في المصلحة الوطنية، ولا بد أن نتذكر أن الولايات المتحدة موافقها متضاربة بشأن تطبيق هذا المبدأ، على أقل تقدير.

## إسرائيل المعاصرة

إسرائيل الوقت الراهن آمنة استراتيجيًا، فقد أصبحت القوة المهيمنة بين الدول الواقعة على حدودها بخلق توازن قوى إقليمي بين جيرانها، يقوم على العداء المتبادل وكذلك اعتماد بعضهم على إسرائيل.

حتى الآن، فإن العنصر الأهم في هذا النظام هو مصر، التي كانت تمثل في يوم من الأيام أكبر تهديد استراتيجي لإسرائيل، وأدى قرار المصريين في السبعينيات بأن مواصلة العداء لإسرائيل والانحياز إلى الاتحاد السوفيتي ليس في مصلحتهم إلى معاهدة سلام، أصبحت بمقتضاها سيناء منطقة منزوعة السلاح. ومنع هذا القوات المصرية والإسرائيلية من التأثير على بعضهما، فدون تهديد من الجيش المصري كانت إسرائيل آمنة؛ لأن سوريا نفسها لم تكن تمثل تهديدًا لا يمكن التعامل معه.

يبدو السلام بين مصر وإسرائيل مائتًا باستمرار، ولكنه يقوم في واقع الأمر على قوى جيوبوليتيكية شديدة القوة؛ فلكي تهزم مصر إسرائيل كان سيتعين عليها خلق نظام لوجستي عبر سيناء، يمكنه دعم مئات الآلاف من الجنود، وهو النظام الذي سيكون من العسير بناؤه، ومن الصعب الدفاع عنه.

لا يمكن للإسرائيليين هزيمة مصر، كما لا يمكنهم تحمل حرب استنزاف مطولة؛ فلكي يفوزوا لا بد أن يفوزوا بسرعة؛ لأن إسرائيل لديها جيش دائم صغير، ولا بد أن تسحب القوة البشرية من احتياطها من المدنيين، الأمر الذي لا يمكن استدامته لفترة ممتدة. وحتى في عام 1967، عندما تحقق النصر خلال أيام، شلت متطلبات القوة البشرية الخاصة بالمعركة الاقتصاد الإسرائيلي. وحتى إذا أمكن لإسرائيل هزيمة الجيش المصري، فهي لن يمكنها احتلال المناطق الداخلية من مصر؛ أي حوض نهر النيل، فهذه المنطقة موطن أكثر من 70 مليون شخص، والجيش الإسرائيلي ليست لديه الموارد لمجرد بدء السيطرة عليها.

بسبب هذا المأزق، قد تخاطر مصر وإسرائيل كثيراً كي تكسبا القليل بمحاربة إحداهما الأخرى. وبالإضافة إلى ذلك، فإن كلاً من الحكومتين تحارب القوى الإسلامية نفسها، وما زال النظام المصري الآن ينبع من ثورة جمال عبد الناصر العلمانية والاشتراكية والعسكرية. فهي لم تكن إسلامية قط، وكان يتحداها باستمرار المسلمون الوريثون، وبشكل خاص هؤلاء المنظمون حول الإخوان المسلمين، ذلك التنظيم الشني الذي هو أشد بأساً في المعارضة للأنظمة الحاكمة القائمة في أنحاء العالم العربي. وقد قمع المصريون هذه الجماعة؛ إذ كانوا يخشون أن يهدد نجاح حماس استقرار نظامهم. ولهذا السبب، فمهما كانت شكواهم بشأن السياسة الإسرائيلية الفلسطينية، فإنهم يشاركون إسرائيل في عدائها لحماس، ويعملون بنشاط لاحتواء حماس في غزة.

توافق إسرائيل مع مصر هو - في واقع الأمر - أهم علاقة لديها، فمادامت مصر باقية على توافقها مع إسرائيل، فإن أمن إسرائيل القومي مضمون، لأن أي تجمع آخر من الجيران لن يهددها. وحتى إذا كان النظام الناصري العلماني قد سقط، فسوف يحتاج الأمر إلى جيل، قبل أن يمكن لمصر أن تكون تهديداً، وساعتها لن يتحقق لها ذلك إلا برعاية قوة كبيرة.

ولا تواجه إسرائيل تهديداً من الأردن، حتى وإن كان خط نهر الأردن المنطقية الأكثر هشاشة التي تواجهها إسرائيل. إن طولها مئات عديدة من الأميال، والمسافة بين ذلك الخط وممر تل أبيب القدس أقل من خمسين ميلاً، ومع ذلك فإن قوات الجيش والاستخبارات الأردنية تحرس هذه الحدود لمصلحة إسرائيل، وهو ظرف غريب قائم لسببين:

أولاً: العداء الأردني الفلسطيني تهديد للنظام الهاشمي الحاكم، ويخدم الإسرائيليون مصالح الأمن القومي الأردني الأساسية بقمعهم الفلسطينيين. ثانياً: الأردنيون عددهم قليل جداً، ويسهل للإسرائيليين هزيمتهم على نحو لا يجعلهم

يمثلون تهديدًا. والمرة الوحيدة التي يمكن أن يصبح فيها خط نهر الأردن تهديدًا، ستكون هي التي يرسل فيها بلد أجنبي ما (على الأرجح العراق أو إيران) جيشه للانتشار على طول هذا الخط. وبما أن الصحراء تفصل نهر الأردن عن هذين البلدين، فإن نشر القوات هذا سيكون صعبًا. ولكن إضافةً إلى ذلك، سوف يعني هذا النشر نهاية المملكة الأردنية الهاشمية، التي كانت ستفعل كل ما يمكنها لمنع أي نشر كبير، وكان الإسرائيليون سيؤيدونها، وبهذه الطريقة، فإن الأردن وإسرائيل مربوطان ببعضهما رابطًا وثيقًا.

تبقى سوريا، التي تمثل في حد ذاتها تهديدًا لإسرائيل. وقوتها أصغر من قوات إسرائيل المعبأة تعبئة كاملة، والمناطق التي يمكن أن تهاجم فيها أضيق من أن تُستغل بفاعلية. ولكن الأمر الأهم بكثير، هو أن سوريا بلد موجه نحو الغرب، وبالتالي نحو لبنان الذي لا يعتبره ملكًا لها فحسب، بل هو المكان الذي تربطه بنخبته الحاكمة من العلويين علاقات تاريخية وثيقة.

لبنان هو الوسيط بين شمال الوطن العربي والبحر المتوسط. وبنوك بيروت وعقاراتها، وكذلك تجارة المخدرات والتهرب في سهل البقاع، ذات أهمية عملية أكبر بكثير بالنسبة للسوريين من أي اعتقاد بأن سوريا العثمانية كلها تخصهم؛ فمصالحهم العملية تكمن في الهيمنة على لبنان ودمجه بطريقة غير رسمية في اقتصادهم القومي.

في أعقاب اتفاقيات كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل، وبعد أن ووجهوا بعداء من العراق، وجد السوريون أنفسهم معزولين في المنطقة، كما أنهم كانوا معادين لحركة فتح التابعة لعرفات، حيث بلغ الأمر حد غزو لبنان في عام 1975 لمحاربة الفلسطينيين. وعلى الرغم من ذلك فقد رأوا أنهم في خطر؛ إذ خلقت الثورة الإيرانية في عام 1979 علاقة جديدة، وإن كانت بعيدة، وهي العلاقة التي سمحت للسوريين بزيادة قوتهم في لبنان، مستخدمين موارد إيران الأيديولوجية والمالية. وفي الثمانينات، وفي أعقاب

غزو إسرائيل للبنان، تكونت ميليشيا شيعية معادية لإسرائيل سُميت حزب الله. ومن ناحية، فإن حزب الله مجرد جزء من الكوكبة السياسية اللبنانية، وهي من ناحية أخرى، قوة مقصود بها محاربة إسرائيل. ولكن مقابل إطلاقها يد سوريا في لبنان، ضمنت إسرائيل تقييد أعمال حزب الله ضد إسرائيل. وقد انهار ذلك الاتفاق في عام 2006، عندما أجبرت الولايات المتحدة القوات العسكرية السورية على الخروج من لبنان، عقابًا على تأييد الجهاديين في العراق، ونتيجة لذلك أنكرت سوريا أي وعد قطعتة لإسرائيل.

كلما كانت التفاصيل أعمق، أصبحت هذه المنطقة أكثر تعقيدًا وغموضًا على نحو مذهل، ولذلك فإن ملخص العلاقات الاستراتيجية مقبول. فمع توافق مصر والأردن مع إسرائيل، وهو سلام هش يقوم على المصالح المتبادلة شديدة الأهمية. ومع توافق مصر والأردن مع إسرائيل، سوريا ضعيفة ومعزولة ولا تمثل تهديدًا، أما حزب الله فهو تهديد، ولكنه ليس تهديدًا له ثقل تهديد إسرائيل بشكل كبير.

يأتي التهديد الأساسي لإسرائيل من داخل حدودها، من الفلسطينيين المحتلين والمعادين. لكن بينما يمكن أن يكون سلاحهم الأساسي، وهو الإرهاب، مؤلماً، فلا يمكن أن يقضي الإرهاب على الإسرائيليين بشكل مطلق. وحتى عند إضافة حزب الله والقوات الخارجية الأخرى، لا تكون دولة إسرائيل في خطر؛ من ناحية لأن الموارد التي يمكن لتلك القوات استخدامها لتحقيق غاياتها ليست كافية، ومن ناحية أخرى لأن سوريا تحد مما يمكن لتلك الجماعات عمله؛ خوفاً من الانتقام الإسرائيلي.

الواقع أن مشكلات إسرائيل قللها الشقاق بين الفلسطينيين؛ فقد كانت فتح، منظمة عرفات، حتى التسعينيات، من القرن الماضي، القوة الرئيسية داخل المجتمع الفلسطيني. وكشأن الحركة الناصرية التي جاءت منها، كانت علمانية واشتراكية وليست إسلاموية. وخلال التسعينيات ظهرت حماس، وهي حركة فلسطينية إسلاموية، شقت صف الفلسطينيين لتخلق في المقام الأول حرباً أهلية، وتسيطر

فتح على الضفة الغربية، وتسيطر حماس على غزة. وبينما يلعب الإسرائيليون لعبة توازن القوى داخل المجتمع الفلسطيني وكذلك في المنطقة، فهم الآن ودودون لفتح ومؤيدون لها ومعادون لحماس. ومن المرجح أن تحارب الجماعتان إحداهما الأخرى، مثلما أنه من المرجح أن تحاربا إسرائيل.

خطر الإرهاب بالنسبة للإسرائيليين، بالإضافة إلى المآسي الإنسانية الشخصية التي يولدها لهم، هو أنه يمكن أن يبعد السياسة الإسرائيلية عن القضايا الاستراتيجية في اتجاه الإدارة البسيطة للتهديد؛ فقتل الإسرائيليين بواسطة الانتحاريين لن يكون مقبولاً، ولا يمكن لحكومة إسرائيلية أن تبقى إن هي تجاهلت هذا الهم. ولكن توازن القوى يجعل إسرائيل آمنة من تهديدات الدول القومية، وتهديد الإرهاب داخل الأراضي المحتلة ثانوي.

مازالت المشكلة بالنسبة لإسرائيل كما كانت في العصور التوراتية؛ فإسرائيل كانت قادرة باستمرار على السيطرة على مصر وأية قوى في الشرق والشمال. وكانت القوى التي على مسافة كبيرة، كبابل وفارس والإسكندر الأكبر وروما، هي التي استطاعت اكتساح مملكة اليهود القديمة. وكانت تلك الإمبراطوريات هي المنافسون الذين لم تكن لدى إسرائيل القدرة على إدارتهم، واشتبكت معهم أحياناً على نحو مفاجع لمبالغتها في تقدير قوتها، أو إساءة تقدير الحاجة إلى الفطنة الدبلوماسية.

يضع الإرهاب إسرائيل في الوضع نفسه الآن؛ فتهديد هذا العنف ليس أنه سوف يقضي على النظام، بل سوف يجعل النظام يتصرف بطرق تجعل قوة كبرى تركز على إسرائيل. ولا يمكن أن يأتي خير من ظهور إسرائيل بشكل ساطع على شاشة الرادار العالمي.

من وجهة النظر الإسرائيلية، يمكن التعايش مع التعااسة الفلسطينية أو القلاقل الفلسطينية أو الإرهاب الفلسطيني. ولكن ما لا يمكن لإسرائيل تحمله، هو تدخل

قوة عظمى مدفوعة بالأفعال الإسرائيلية ضد الفلسطينيين، فالقوى العظمى - القوى الإمبراطورية - في مقدورها إنفاق جزء صغير من مواردها الهائلة على القضايا، التي تلبي المصالح الهامشية أو تهدئ الرأي العام. وهذا الجزء الصغير يمكن أن يقلل موارد بلد كإسرائيل؛ الأمر الذي يقضي بأن تحافظ إسرائيل على تربياتها الإقليمية، وتدير الفلسطينيين وإرهابهم بحكمة.

هذه القوة الإمبراطورية الوحيدة الآن هي الولايات المتحدة، وهي بذلك لها مصالح عالمية مختلفة، أهملت بعضها خلال فترة الانشغال بالإرهاب والإسلام المتشدد. ولا بد للولايات المتحدة من فصل سياستها الخارجية عن تركيزها على الإرهاب، والانضمام إلى البلدان التي لا ترى الإرهاب على أنه مشكلة العالم الوحيدة، ولا تعتبر الاحتلال الإسرائيلي للأراضي التي بها أعداد كبيرة من الفلسطينيين في مصلحتها.

في الوقت نفسه، هناك قوى إقليمية عديدة، كروسيا وأوروبا، لها تأثير هائل على إسرائيل، وليس بمقدور إسرائيل تجاهل مصالح تلك القوى. وما لم تعيد إسرائيل تقديم رؤيتها للإرهاب والفلسطينيين، فمن الممكن أن تعجد نفسها معزولة عن كثير من حلفائها التقليديين، بما في ذلك الولايات المتحدة. ولن يدمر هذا إسرائيل، ولكنه قد يكون شرطاً مسبقاً لدمارها.

كما رأينا، لم يكن الدعم الأمريكي لإسرائيل المحرك الأساسي لعداء المسلمين للولايات المتحدة، ولا يؤثر أي تطور للأحداث في إسرائيل بشكل مباشر على المصالح الأمريكية الجوهرية. وبناء على ذلك، كانت الولايات المتحدة ستكسب القليل بالتباعد عن إسرائيل، أو بإجبار الإسرائيليين على تغيير سياساتهم تجاه الفلسطينيين؛ فالواقع أن الأثر النهائي للتباعد بين الولايات المتحدة قد يكون هو الفرع بين جيران إسرائيل؛ ذلك أنه كما ذكر آنفاً، يزداد الدعم للفلسطينيين كلما زاد ابتعادك عنهم، وذلك الدعم في العالم العربي بلاغي إلى حد كبير.



بخلاف الاشتباكات في لبنان، تحتفظ إسرائيل بميزان قوى مستقر، وتفعل ذلك دون مساعدة من أمريكا، والواقع أن الأردن ومصر يعتمدان على إسرائيل من نواح كثيرة، وكذلك بلدان عربية أخرى. ولن يكتسح الفلسطينيون الإسرائيليون، وعليه فسيظل توازن القوى الإقليمي المعقد في شرق المتوسط كما هو، بغض النظر عما تفعله الولايات المتحدة أو لا تفعله؛ فهو كله يؤدي إلى نتيجة مفادها أنه مادام الصراع الإسرائيلي الفلسطيني قائماً، فإنه ينبغي ترك الأمور على ما هي عليه.

أفضل خيار للرئيس الأمريكي هو تهميش الصراع باعتباره همّاً، دون القيام بالفعل بأي شيء يدل على التغيير؛ إذ ينبغي على الولايات المتحدة أن تتبنى في السر سياسة فك ارتباط مع إسرائيل، الأمر الذي كان سيبدو أنه يعني ببساطة قبول عدم توازن القوى الحالي. ومع ذلك، فإن غرضه على المدى الطويل كان سيصبح إعادة بناء توازن القوى واحتواء إسرائيل داخل إطاره، دون الإضرار بوجود إسرائيل، وهو مع ذلك كان سيجبر إسرائيل على إعادة النظر فيما هي مصالحها القومية.

لن يبدو ابتعاد الولايات المتحدة عن إسرائيل بشكل علني أنه يتيح الفرص لمصر وسوريا فحسب، بل ستحدث كذلك مشكلات سياسية محلية داخل الولايات المتحدة. من الصحيح أن عدد الأصوات اليهودية صغير، ولكن النفوذ السياسي اليهودي حجمه أكبر بسبب جهود الضغط المنظمة والممولة بدقة. وينضم إلى ذلك المحافظون المسيحيون، الذين ينظرون إلى مصالح إسرائيل على أنها مهمة لاهوتياً ويواجه الرئيس كتلة قوية، لا يريد معاداتها. ولهذه الأسباب، ينبغي على الرئيس مواصلة إرسال المبعوثين لوضع خرائط الطريق للسلام، وينبغي له الاستمرار في إدانة كل الأطراف على أية إساءات يرتكبونها. كما ينبغي أن يظل يلقي الخطابات المؤيدة لإسرائيل، ولكن يجب ألا تكون لديه طموحات لتحقيق «سلام دائم»؛ لأن أي جهد نحو تحقيق ذلك الهدف يمكن في واقع الأمر أن يزعزع استقرار المنطقة.

الأشياء التي كانت الولايات المتحدة تريدها من إسرائيل في الماضي لم تعد موجودة؛ فالولايات المتحدة لا تحتاج من إسرائيل أن تتعامل مع الأنظمة الموالية للСовет في مصر وسوريا بينما الولايات المتحدة مشغولة في أماكن أخرى. ومع ذلك، فإسرائيل لها قيمتها بالنسبة للمشاركة في المعلومات الاستخباراتية، وفي العمل كقاعدة إمدادات لدعم القتال الأمريكي في المنطقة، ولا تواجه إسرائيل احتمال حرب تقليدية كبيرة في أي وقت قريب، ولا يحتاج الأمر إلى توصيل واسع ومفاجئ للدبابات أو الطائرات كما حدث في عام 1973، كما أنه لا يحتاج إلى المساعدة المالية التي تقدمها الولايات المتحدة منذ عام 1974؛ فاقتصاد إسرائيل قوي ومتنامٍ.

تعني المساعدات الخارجية لإسرائيل ما هو أقل بكثير، مما تعنيه العلاقات الوثيقة مع صناديق التحوط<sup>(\*)</sup> الأمريكية. وإسرائيل قادرة على الاهتمام بنفسها من الناحية المالية، وما تعنيه المساعدات الخارجية لإسرائيل، التي لا تربطها معاهدة رسمية بالولايات المتحدة، هو أنها التزام علني من الولايات المتحدة تجاه إسرائيل، وتستخدم إسرائيل ذلك كورقة في المنطقة ولطمأنة الرأي العام الإسرائيلي. وما حصلت عليه الولايات المتحدة ذات يوم مقابل تلك المساعدات، هو شريك مستقر في المنطقة، لم يكن يمكنها إدارته بلا مال. والآن لدى الولايات المتحدة شريك بغض النظر عن المساعدات. وعلى الجانب السلبي، توفر المساعدات أسساً للرجح الإسلامية على أن الولايات المتحدة هي مصدر مشكلاتهم كلها، بما في ذلك السلوك الوحشي من جانب الإسرائيليين. ومع أن المساعدات هامشية من حيث أهميتها، فالشمن مرتفع جداً، والتخلي عن هذا الالتزام بتقديم المساعدات كان سيساعد إسرائيل - في واقع الأمر - بالقضاء على الحجة الأساسية للوبي المعادي لإسرائيل في الولايات المتحدة.

(\*) صندوق التحوط هو أحد أشكال صناديق الاستثمار المشتركة. وتكون غالباً خاضعة لأساليب التحوط، وهو التنوع في الأدوات المالية التي يكون بينها ارتباط عكسي في حركة الأسعار؛ للحد من مخاطر السوق. وبالإضافة إلى ذلك، قد تخضع صناديق التحوط لشروط خاصة، كأن يكون الحد الأدنى للمشاركة في الصندوق مبالغ لا تقل عن مليون دولار للمشارك الواحد (المترجم).

بطبيعة الحال، هذا تجميل للسياسة الجهرية، الخاصة بمجرد السماح بإعادة تشكيل توازن القوى. فقد كانت إسرائيل ذات قيمة كبيرة للولايات المتحدة، خلال الجزء الثاني من الحرب الباردة. وبعد الحرب الباردة، قل ما تحصل عليه الولايات المتحدة من هذه العلاقة، بينما ازدادت التكاليف. ولا تدعو المعادلة إلى قطع العلاقات مع إسرائيل، بل تدعو إلى إعادة معايرة على أساس من الواقع الحالي؛ فإسرائيل ليست بحاجة إلى المساعدات الأجنبية، وليست في خطر استراتيجي من القوات التقليدية. وهناك حاجة متبادلة إلى المشاركة في المعلومات الاستخباراتية وتطوير الأسلحة، ولكن هذا في حد ذاته تطور هادئ إلى حد ما.

ليس هناك تحد أخلاقي في هذا الأمر؛ إذ لا يتم التخلي عن حليف ديمقراطي، وبقاء إسرائيل ليس موضع خلاف. وفي الوقت نفسه، مع أن الاستيطان في الضفة الغربية قد يكون مصلحة قومية أساسية بالنسبة لإسرائيل؛ فهو ليس من مصلحة الولايات المتحدة. فهناك دولتان ذواتا سيادة، وهو ما يعني أن كلاتهما عليها تحديد العلاقة. ولا بد من النظر إلى كل علاقة من ناحية قيمتها لأوسع معنى للمصلحة القومية، وما كانت تحتاجه الولايات المتحدة من إسرائيل قبل خمسة وثلاثين عامًا، ليس هو ما تحتاجه اليوم.

من الجانب الإسرائيلي، يأتي الضغط الأساسي للتوصل إلى اتفاق مع الفلسطينيين من المخاوف من أنهم سيجدون أنفسهم مبعدين عن الولايات المتحدة، وبشكل خاص الولايات المتحدة بشأن معاملتهم للفلسطينيين. والعلاقات الاقتصادية مهمة لإسرائيل، ولكن العلاقات الثقافية مهمة كذلك. ولكن الإسرائيليين لديهم ضغوط داخلية؛ ففي ظل التشتت الفلسطيني، تحظى فكرة التوصل إلى تسوية مع الفلسطينيين بتأييد محدود. وسوف تتطلب أية تسوية تقديم تنازلات للفلسطينيين لن يرغب الإسرائيليون في تقديمها، وهم في ظل ضعف الفلسطينيين لا يميلون إلى تقديمها.

إن توازن القوى العربي الإسرائيلي ليس على ما يُرام، فقد خرجت مصر والأردن من التوازن، وإسرائيل حرة في خلق الواقع على الأرض. وليس من مصلحة الولايات المتحدة أن يكون لدى إسرائيل، أو أي بلد، حرية العمل في المنطقة. وكما قلت من قبل، لا بد أن يكون توازن القوى هو مبدأ الولايات المتحدة الحاكم، ولا بد أن تعيد الولايات المتحدة صياغة توازن القوى الإقليمي بالاقتراب أكثر من الدول العربية، من ناحية، والابتعاد عن إسرائيل، من ناحية أخرى. ولا يمثل هذا تهديدًا وجوديًا لإسرائيل، التي ستمثل تحديًا أخلاقيًا؛ فإسرائيل ليست معرضة لخطر السقوط ولا تعتمد على الولايات المتحدة في البقاء، فقد كانت كذلك في الماضي، وليس هذا هو الحال في العقد المقبل. والولايات المتحدة بحاجة إلى مسافة - وسوف تحصل عليها - وسوف تكون هناك مقاومة داخلية. وسوف يكون هناك كذلك دعم سياسي داخلي، وليس هذا تخليًا عن إسرائيل، ولكن العلاقات بين الدولتين لا يمكن تجميدها في نمط عفا عليه الزمن.

العامل المعقّد في هذا التحليل هو بقية العالم الإسلامي. خاصةً إيران وتركيا؛ إذ تهدد الأولى بأن تصبح دولة نووية، وسوف تصبح الثانية قوة ذات بأس في المنطقة؛ حيث تتخلى عن العلاقات الوثيقة مع إسرائيل. وبعد أن بدأنا بتركيز ضيق على إسرائيل، لا بد لنا من الانتقال إلى رؤية أوسع، وهذه هي الطريقة التي يعمل بها توازن قوى الإمبراطورية باعتبارها دراسة حالة.

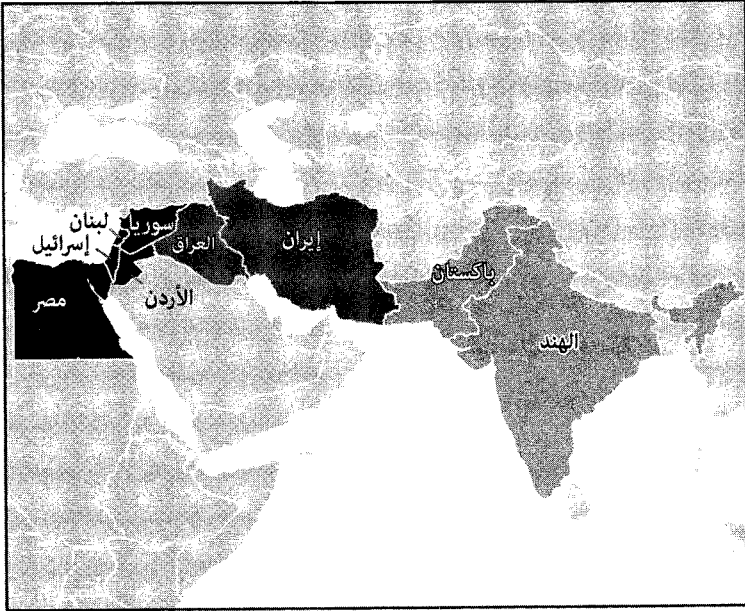
## الفصل السابع

### انقلاب استراتيجي:

#### الولايات المتحدة وإيران والشرق الأوسط

بخلاف حالة إسرائيل الخاصة، مازالت المنطقة بين شرق المتوسط وجبال هندكوش مركز الاهتمام الحالي للسياسة الأمريكية. وكما أشرنا من قبل، فإن للولايات المتحدة ثلاثة اهتمامات أساسية هناك، هي: الحفاظ على توازن القوى الإقليمي، والتأكد من عدم تعطيل تدفق النفط، وهزيمة الجماعات الإسلامية المتمركزة هناك، التي تهدد الولايات المتحدة. وأية خطوة تتخذها الولايات المتحدة لمعالجة أي من هذه الأهداف، لا بد أن تأخذ في حساباتها الهدفين الآخرين؛ الأمر الذي يزيد درجة صعوبة حتى واحد منها بشكل كبير.

ما يُضاف إلى هذا التحدي، هو تحدي الحفاظ على توازن القوى في ثلاثة أماكن من المنطقة، وهي: العرب والإسرائيليون، والهنود والباكستانيون، والعراقيون والإيرانيون. وكل من هذه التوازنات في حالة تشتت، ولكن التوازن الأكثر أهمية هو ذلك الذي بين الإيرانيين والعراقيين، الذي انهار تمامًا مع تفكك الدولة العراقية والجيش العراقي في أعقاب الغزو الأمريكي في عام 2003. وتشوه التوازن الهندي الباكستاني ليس متأخرًا إلى حد بعيد؛ ذلك أن الحرب في أفغانستان مازالت ترزعزع استقرار باكستان.



خريطة) ثلاثة توازنات إقليمية

كما رأينا في الفصل السابق، خلق ضعف الجانب العربي وضعًا، لم يعد الإسرائيليون فيه يشغلون أنفسهم بردود أفعال خصومهم. وفي العقود المقبلة، سوف يحاول الإسرائيليون الاستفادة من ذلك؛ لخلق واقع جديد على الأرض، بينما ستحاول الولايات المتحدة تقييد التحركات الإسرائيلية، بما يتماشى مع بحثها عن التوازن الاستراتيجي.

التوازن الهندي الباكستاني تجري زعزحته في أفغانستان، وهي منطقة حرب معقدة؛ حيث تسعى القوات الأمريكية لتحقيق هدفين متضاربين، على الأقل طبقًا لما يُقال بشكل رسمي. والهدف الأول هو منع القاعدة من استخدام أفغانستان كقاعدة عمليات، والثاني هو خلق حكومة ديمقراطية مستقرة. ولكن حرمان الإرهابيين من ملاذ في أفغانستان يحقق القليل؛ لأن الجماعات التي تتبع مبادئ

القاعدة (القاعدة الأصلية، تلك الجماعة التي قامت حول أسامة بن لادن، لم تعد تعمل بشكل كامل) يمكن أن تنمو في أي مكان من اليمن إلى كليفلاند. وهذا عامل على قدر كبير من الأهمية، عندما تتطلب محاولة زعزعة استقرار البلاد، وتدريب الجيش الأفغاني الوليد، وإدارة قوة الشرطة من المجندين الأفغان، والتدخل في السياسة الأفغانية. وليست هناك طريقة لاستقرار البلاد بشكل فعال، يكون عليك فيها القيام بهذا الدور التدخلية.

يبدأ حل هذا التعقيد بالاعتراف بأنه ليس لدى الولايات المتحدة مصلحة حيوية في نوع الحكومة التي توجد في أفغانستان، وأنه مرة أخرى لا يمكن للرئيس السماح بأن تكون محاربة الإرهاب هي القوة الأساسية في تشكيل الاستراتيجية القومية.

لكن الاعتراف الأكثر أهمية اللازم لضمان التوازن، على مدى السنوات العشر القادمة، هو أن أفغانستان وباكستان كيان واحد في واقع الأمر؛ حيث يشتركان في الجماعات العرقية والقبائل المختلفة، ولا تعني الحدود السياسية بينهما الكثير. ويزيد مجموع سكان البلدين معاً على 200 مليون نسمة، ولن تستطيع الولايات المتحدة بحوالي 100 ألف جندي فحسب، في المنطقة، فرض إرادتها بشكل مباشر وإقامة النظام على النحو الذي ترضاه.

علاوة على ذلك، ليست القضية الاستراتيجية الأساسية هي أفغانستان في واقع الأمر، وإنما باكستان. وتوازن القوى المهم بحق في المنطقة هو بالفعل بين باكستان والهند؛ فمنذ الاستقلال يحتفظ هذان البلدان اللذان انفصلا عن الجزء نفسه من الإمبراطورية البريطانية بعلاقات غير مريحة وعنيفة في بعض الأحيان، وكلاهما قوة نووية، وكل منهما مشغول بالآخر. ومع أن الهند هي الأقوى، فإن لدى باكستان تضاريس يمكن الدفاع عنها، رغم أن أراضيها الداخلية أكثر انكشافاً للهند. ومع ذلك، فقد أبقى على البلدين في حالة معارضة ساكنة، - وهو على وجه الدقة ما تريد الولايات المتحدة أن يكونا عليه.

من الواضح أن التحديات الكامنة في هذا التوازن المعقد على مدى السنوات العشر المقبلة هائلة، وإذا بلغ الأمر حد تفكك باكستان تحت الضغط الأمريكي للمساعدة في محاربة القاعدة والتعاون مع القوات الأمريكية في أفغانستان، فسوف تفشل المواجهة مع الهند، تاركة إياها القوة المهيمنة في المنطقة. ولا بد حتمًا من امتداد الحرب في أفغانستان إلى باكستان؛ الأمر الذي يثير صراعات داخلية، يكون من المحتمل أن تضعف الدولة الباكستانية. وليس هذا مؤكدًا، ولكنه ممكن جدًا على نحو لا يمكن استبعاده. ومع عدم وجود أعداء مهمين غير الصينيين، المنعزلين على الجانب الآخر من جبال الهيمالايا، ستكون الهند حرة في استخدام مواردها؛ للهيمنة على حوض المحيط الهندي، ومن المرجح إلى حد كبير أن تزيد من حجم أسطولها البحري لتحقيق ذلك. وسوف تدمر الهند المتصرفة التوازن الذي ترغب الولايات المتحدة في وجوده بشدة، وبذلك تكون قضية الهند - في واقع الأمر - أبرز من قضية الإرهاب، أو بناء الدولة في أفغانستان.

هذا هو السبب في ضرورة أن تكون الاستراتيجية الأمريكية الأساسية في المنطقة على مدى السنوات العشر المقبلة؛ للمساعدة في خلق باكستان قوية وقابلة للبقاء. وستكون أهم خطوة في ذلك الاتجاه، هي تخفيف الضغط عن باكستان بإنهاء الحرب في أفغانستان، ولا تهتم الأيديولوجيا المحددة للحكومة الباكستانية، ولا يمكن - كذلك - للولايات المتحدة فرض آرائها على باكستان بحال من الأحوال.

لن تساعد تقوية باكستان على استعادة التوازن مع الهند فحسب، بل استعادة باكستان باعتبارها مغايرًا لأفغانستان كذلك؛ ففي هذين البلدين المسلمين جماعات ومصالح كثيرة مختلفة مع بعضها، ولا يمكن للولايات المتحدة إدارة ترتيباتها الداخلية. غير أنه يمكنها اتباع الاستراتيجية نفسها، التي اختيرت بعد سقوط الاتحاد السوفيتي؛ فهي بإمكانها السماح بالتوازن الطبيعي، الذي كان قائمًا قبل الغزو



الأمريكي لأفغانستان بالعودة، إلى الحد الممكن. وحينذاك يمكن للولايات المتحدة إنفاق مواردها؛ للمساعدة في بناء جيش باكستاني قوي للحفاظ على سلامة الوضع. من المحتمل أن تعاود القوات الجهادية في باكستان الظهور، ولكن من المرجح أن يحدث ذلك سواء أكانت الولايات المتحدة متورطة في أفغانستان أم خرجت منها. الأمر ببساطة هو أن الحرب لا أثر لها على هذه الديناميكية، فهناك فرصة ضئيلة لأن يكون الجيش الباكستاني أكثر نجاحًا في قمع الإرهابيين، ولكن هذا ليس مؤكدًا وغير مهم على الإطلاق. ومرة أخرى، فإن الهدف الرئيسي التي يتحرك قُدّمًا، هو الحفاظ على توازن القوى الهندي الباكستاني.

كما في حالة التباعد عن إسرائيل، لن يتمكن الرئيس من التعبير عن استراتيجيته للتعامل مع أفغانستان وباكستان والهند علنًا. ومن المؤكد أنه ما من سبيل أمام الولايات المتحدة كي تبدو متصرة، وسوف تُحل الحرب الأفغانية كما حُلّت حرب فيتنام، من خلال اتفاقية سلام، يتم التفاوض عليها تسمح للقوات المتمردة - وهي في هذه الحالة طالبان - بالسيطرة. ولن يكون للجيش الباكستاني الأقوى مصلحة في سحق طالبان، ولكنه سوف يقبل السيطرة عليها، وسوف تبقى الدولة الباكستانية، التي ستوازن الهند، وبذلك تسمح للولايات المتحدة بالتركيز على نقاط توازن أخرى في المنطقة.

#### قلب المنطقة: إيران والعراق

كان توازن القوى بين إيران والعراق لا يزال قائمًا حتى عام 2003، عندما دمر غزو الولايات المتحدة كلاً من حكومة العراق وجيشه. ومنذ ذلك الحين، كانت الولايات المتحدة هي القوة الأساسية التي تقيد حركة الإيرانيين، ولكنها أعلنت أنها تعتزم سحب قواتها من العراق؛ الأمر الذي سيترك إيران - في ظل حالة الحكومة

العراقية والجيش العراقي - القوة المهيمنة في الخليج الفارسي، ويمثل هذا تحديًا أساسيًا لكل من الاستراتيجية الأمريكية والمنطقة شديدة التعقد، ولناخذ في اعتبارنا التحالفات التي يمكن أن تحدث في غياب الولايات المتحدة.

سكان العراق عددهم حوالي 30 مليون نسمة، وسكان المملكة العربية السعودية عددهم حوالي 27 مليون نسمة، وإجمالي عدد سكان جزيرة العرب حوالي 70 مليونًا، ولكن هذا العدد مقسم على دول متعددة، وبشكل خاص بين المملكة العربية السعودية واليمن، والتي بها حوالي ثلث هذا العدد من السكان، وهو يقع بعيدًا جدًا عن حقول نفط المملكة العربية السعودية. وفي المقابل، يبلغ عدد سكان إيران وحدها 70 مليون نسمة، وتركيا بها حوالي 70 مليون نسمة. وبالمعنى الأوسع، فسوف تحدد هذه الأرقام، وكيفية تجمع هذه الأعداد من السكان في تحالفات محتملة الواقع الجيوبوليتيكي لمنطقة الخليج الفارسي، الذي يمضي قُدُمًا؛ إذ يمكن لسكان المملكة العربية السعودية - وئروتها - مجتمعة مع سكان العراق أن يكونوا ثقلاً موازنًا لأي من تركيا أو إيران وليس لكليهما. وأثناء الحرب العراقية الإيرانية في الثمانينيات، كان دعم المملكة العربية السعودية للعراق، هو ما أدى إلى أي نجاح تمتع به ذلك البلد.

مع أن تركيا قوة صاعدة به عدد كبير من السكان، فهي لا تزال قوة محدودة غير قادرة على مد نفوذها حتى الخليج الفارسي، وهي يمكنها الضغط على العراق وإيران في الشمال؛ حيث تصرف انتباههما عن الخليج، ولكن لا يمكنها التدخل مباشرة لحماية حقول النفط العربية. وعلاوة على ذلك، فالاستقرار في العراق، والأمر كذلك، في أيدي إيران إلى حد كبير، وقد لا تستطيع إيران فرض نظام موالٍ لها في بغداد، إلا أن لديها القدرة على زعزعة استقرار بغداد كذلك.

مع تحييد العراق بشكل كبير، وبينما يحارب شعبه البالغ عدده 30 مليونًا بعضه، بدلاً من أن يكون ثقلاً موازنًا لأحد، تصبح إيران لأول مرة منذ قرون متحررة من تهديد خارجي كبير من جيرانها. فالحدود الإيرانية التركية جبلية إلى حد كبير؛ الأمر

الذي يجعل العمليات الحربية الهجومية هناك صعبة. وفي الشمال، تفصل إيران عن القوة الروسية أرمينيا وأذربيجان وجورجيا، وفي الشمال الشرقي تركمانستان. وفي الشرق تقع أفغانستان وباكستان، وكلتاها في فوضى، وإذا انسحبت الولايات المتحدة من العراق، فسوف تكون إيران خالية من أي تهديد مباشر من تلك القوة الهائلة كذلك. وعليه فإن إيران، في الوقت الحالي على الأقل، في وضع غير عادي آمنة من الاجتياحات البرية، وحررة في أن تستكشف في اتجاه الجنوب الغربي.

لأن العراق يعيش حالة من الفوضى، فقد لا تقاوم دول جزيرة العرب إيران، حتى وإن عملوا بشكل متناغم. ولنتذكر أن الأسلحة النووية ليست مناسبة لمقتضى هذا الواقع، وسوف تظل إيران القوة المهيمنة في الخليج الفارسي، حتى وإن دُمرت أسلحتها النووية. والواقع أن توجيه ضربة لمنشآت العراق النووية وحدها قد يثبت أن له أثرًا مضافًا إلى حد كبير، حيث يجعل إيران ترد بطرق غير لطيفة. وبينما لا يمكن لإيران فرض حكومتها على العراق، فهي قد تمنع - إن استُفِزت - أية حكومة أخرى من الظهور بخلق الفوضى هناك، حتى مع وجود القوات الأمريكية على الأرض، وقد علق في جولة جديدة من الحرب الداخلية، ولكن مع توافر عدد أقل من الجنود.

سيكون رد إيران النهائي على الضربة الموجهة إلى منشآتها النووية، هو محاولة غلق مضيق هرمز، حيث يتدفق حوالي 45 بالمائة من صادرات نفط العالم المحمولة بحرًا عبر هذه القناة الضيقة. ولدى إيران صواريخ مضادة للسفن، والأهم من ذلك أن لديها ألغامًا، وإذا لغمت إيران المضيق، ولم تستطع الولايات المتحدة تطهير ذلك الممر المائي بدرجة معقولة من الثقة، فقد يُغلق خط الإمداد. وسوف يسبب هذا ارتفاعًا كبيرًا في أسعار النفط، ومن المؤكد أنه سيجهض التعافي الاقتصادي العالمي.

أي هجوم منفرد على منشآت إيران النووية - كذلك النوع من الهجوم الذي يمكن أن تقوم به إسرائيل بنفسها - سيكون ضارًا لمن يقوم به؛ حيث سيجعل إيران أكثر خطورة من أي وقت مضى. والطريقة الوحيدة لتحديد تلك المنشآت دون إحداث

ضرر مصاحب، هي مهاجمة قدرات إيران البحرية كذلك، واستخدام القوة الجوية لتدمير قدرات إيران التقليدية، وسوف يستغرق هذا الهجوم شهرًا (إن كان يستهدف جيش إيران) وفاعليته غير مؤكدة، شأن فاعلية كل الحروب الجوية.



(خريطة) شبه الجزيرة العربية، الخليج الفارسي

لكي تحقق الولايات المتحدة أهدافها الاستراتيجية في المنطقة، فإنه لا بد لها من العثور على طريقة لموازنة ثقل إيران، دون الإبقاء على نشر قواتها الحالي (الذي تم تخفيضه بالفعل إلى 50 ألف جندي) في العراق، ودون زيادة القوة العسكرية المخصصة للمنطقة. وليست الحملة الجوية الكبيرة ضد إيران توقعًا مرغوبًا فيه، ولن يمكن للولايات المتحدة الاعتماد على عودة القوة العراقية للظهور كثقل موازن؛ لأن إيران لن تسمح بذلك. ولا بد للولايات المتحدة من الانسحاب من العراق كي تدير مصالحها الاستراتيجية، ولكن مع هذا الانسحاب، لا بد أن تفكر أفكارًا أصيلة.

في العقد المقبل، فإن الخيار الأكثر مرغوبة مع إيران سيتم توصيله من خلال خطوة، تبدو غير متصورة في الوقت الراهن. وهذا هو الخيار الذي اختاره روزفلت ونيكسون، عندما واجهتهما أوضاع استراتيجية تبدو مستحيلة. إنه إقامة تحالفات مع بلدان، كان يُنظر إليها من قبل على أنها تهديدات استراتيجية وأخلاقية؛ فقد عقد روزفلت تحالفًا بين الولايات المتحدة وروسيا الستالينية، وتحالف نيكسون مع الصين الماوية، في كل مرة للتصدي لقوة ثالثة، كانت تُرى على أنها أكثر خطورة. وفي الحالتين، كانت هناك منافسة أيديولوجية شديدة بين الحليف الجديد والولايات المتحدة، وهي المنافسة التي اعتبرها كثيرون مفرطة ومتشددة بالمرّة. ورغم ذلك، فإنه عندما كانت الولايات المتحدة تواجه بدائل غير مقبولة كانت المصلحة الاستراتيجية تتغلب على النفور الأخلاقي على الجانبين؛ إذ كان بديل روزفلت انتصارًا ألمانيًا في الحرب العالمية الثانية. وبالنسبة لنيكسون، كان السوفيت سيستغلون الضعف الأمريكي، الذي سببته حرب فيتنام لتغيير توازن القوى العالمي.

جعلت الظروف على الأرض الولايات المتحدة في وضع مشابه الآن في مواجهة إيران؛ فهذان البلدان يمقت أحدهما الآخر، ولا يمكن لأحدهما القضاء على الآخر بسهولة، وللحق.. فإن لهما مصالح مشتركة، فالأمر ببساطة هو أنه لكي يحقق الرئيس الأمريكي أهدافه الاستراتيجية، لا بد له من السعي إلى تسوية الخلافات مع إيران.

الوضع الاستراتيجي الذي يبدو مستحيلًا ويدفع الولايات المتحدة إلى هذه اللفتة هو - كما قلنا من قبل - الحاجة إلى الحفاظ على تدفق النفط عبر مضيق هرمز، وتحقيق ذلك في وقت يتعين فيه على البلاد تخفيض قواتها المخصصة لهذا الجزء من العالم.

السبب الذي يمكن معه لإيران قبول عقد اتفاق، هو أن ترى الولايات المتحدة على القدر نفسه من الخطورة وعدم التوقع. وحقيقة الأمر أنه خلال أقل من عشر سنوات، وجدت إيران نفسها وقد أحاط بها الجنود الأمريكيون على حدودها الشرقية

والغربية. إن مصلحة إيران الأساسية هي بقاء النظام، ولا بد أن تتحاشى تدخلًا أمريكيًا ساحقًا، مع ضمان ألا يصبح العراق تهديدًا مرة أخرى. وفي الوقت نفسه، لا بد أن تزيد إيران من سلطتها داخل العالم الإسلامي في مواجهة المسلمين السنة الذين ينافسونها، بل ويهددونها في بعض الأحيان.

عند محاولة تخيل الوفاق الأمريكي الإيراني، ليكن في حساباتكم التداخلات في أهداف هذين البلدين؛ فالولايات المتحدة تخوض حربًا ضد بعض السنة، وليس كلهم، وهؤلاء السنة هم كذلك أعداء لإيران الشيعية. ولا تريد إيران أن يكون هناك جنود أمريكيون على طول حدودها الشرقية والغربية (واقع الأمر أن الولايات المتحدة لا تريد أن تكون هناك كذلك). وكما تريد الولايات المتحدة رؤية النفط يواصل تدفقه عبر مضيق هرمز، فإن إيران تريد الاستفادة من التدفق وليس تعطيله. وأخيرًا، يفهم الإيرانيون أن الولايات المتحدة بمفردها تمثل التهديد الأكبر لأمنهم: حلوا المشكلة الأمريكية وسيكون بقاء النظام الحاكم مضمونًا. وتفهم الولايات المتحدة - أو ينبغي أن تفهم - أن بعث الثقل الموازن العراقي لإيران ليس خيارًا على المدى القصير فحسب، وأنه ما لم ترغب الولايات المتحدة في تقديم تعهد ضخم طويل المدى بتواجد القوات البرية في العراق - الأمر الذي من الواضح أنها لا تريده - فالحل الواضح للمشكلة في المنطقة، هو تسوية الخلاف مع إيران.

التهديد الكبير الذي يمكن أن ينشأ عن استراتيجية تسوية المشكلات هذه، هو أن تتجاوز إيران حدودها، وتحاول احتلال البلدان المنتجة للنفط في الخليج الفارسي بشكل مباشر. وفي ظل القيود اللوجستية المفروضة على الجيش الإيراني، سيكون من الصعب تحقيق ذلك. وبما أن هذا سيؤدي كذلك إلى تدخل أمريكي سريع، فسيكون هذا العمل العدواني على جزء من الإيرانيين بلا معنى وضارًا للذات؛ فإيران بالفعل قوة مهيمنة في المنطقة، والولايات المتحدة ليست مضطرة إلى التصدي للنفوذ الإيراني غير المباشر على جيرانها. وسوف تتراوح جوانب نفوذ إيران من المشاركة المالية في

المشروعات الإقليمية، إلى التأثير القوي على حصص أوبك، إلى درجة من التأثير في السياسات الداخلية لبلدان جزيرة العرب. وبمجرد بيان قدر صغير من ضبط النفس، قد يكسب الإيرانيون تفوقاً لا شك فيه وميزة اقتصادية، وهم يرون نفعهم يشق طريقه إلى السوق. وقد يرون كذلك استثماراً كبيراً، يبدأ في التدفق إلى اقتصادهم من جديد.

حتى عند التفاهم مع الولايات المتحدة، ستكون للهيمنة الإيرانية على المنطقة حدود. وسوف تتمتع إيران بمنطقة نفوذ تعتمد على تحالفها مع الولايات المتحدة بشأن قضايا أخرى، وهو ما يعني عدم عبورها أي خط يدفع إلى التدخل الأمريكي المباشر. وبمرور الزمن، سوف يفيد نمو القوة الإيرانية، داخل إطار هذه التفاهات الواضحة، كلاً من الولايات المتحدة وإيران. وكشأن الترتيبات مع ستالين وماو، سيكون هذا التحالف الأمريكي الإيراني كريهاً لكنه ضروري، وسيكون مؤقتاً كذلك.

سيكون الخاسرون الكبار في هذا التحالف بطبيعة الحال، هم الشُّنة في جزيرة العرب، بمن في ذلك آل سعود؛ فهم دون العراق عاجزون عن الدفاع عن أنفسهم، ومادام النفط يتدفق ولا تسيطر قوة واحدة بشكل مباشر على المنطقة بكاملها، لن يكون للولايات المتحدة اهتمام طويل المدى بمصلحتهم الاقتصادية والسياسية، وبذلك سوف يعيد الوفاق الأمريكي الإيراني كذلك تحديد العلاقات التاريخية للولايات المتحدة مع السعوديين، وسوف يتعين على السعوديين النظر إلى الولايات المتحدة على أنها ضامن لمصالحها، بينما تحاول التوصل إلى تسوية سياسية مع إيران، وسوف تتغير الديناميكية الجيوبوليتيكية للخليج الفارسي بالنسبة للجميع.

سوف يكون الإسرائيليون كذلك مهددين، وإن لم يكن ذلك بقدر تهديد السعوديين والإمارات الأخرى على الخليج الفارسي؛ فعلى مر السنين كان خطاب إيران المعادي لإسرائيل بالغاً، لكن أفعالها اتسمت بالحدز، ومارست إيران لعبة انتظار مستخدمة البلاغة لتغطية الجمود، وفي النهاية، سوف يوقع قرار أمريكي

الإسرائيليين في الفخ. وتفتقر إسرائيل إلى القدرة التقليدية اللازمة لذلك النوع من الحملة الجوية الموسعة اللازمة لتدمير البرنامج النووي الإيراني. ومن المؤكد أن إسرائيل تفتقر إلى القوة العسكرية اللازمة لتشكيل التحالفات الجيوبوليتيكية لمنطقة الخليج الفارسي. وعلاوة على ذلك، فإن إيران - المقدمة بحلمها الخاص بالحدود الغربية الآمنة والهيمنة على الخليج الفارسي - قد تصبح تصالحية إلى حد كبير. ومقارنة بتلك الفرص، فإنهم يرون إسرائيل قضية صغيرة وبعيدة ورمزية.

حتى الآن، مازال لدى الإسرائيليين الخيار المحتمل الخاص بضرب إيران من جانب واحد، أملاً في توليد رد إيراني في مضيق هرمز، وبالتالي جزر الولايات المتحدة إلى الصراع. وإذا تحرك الأمريكيون والإيرانيون نحو التفاهم، فلن تكون لدى إسرائيل تلك السطوة على السياسة الأمريكية، ويمكن أن تتسبب الضربة الإسرائيلية في رد أمريكي غير مرحب به بالكامل، وليس رد الفعل المتسلسل، الذي كان يمكن أن تأمل فيه إسرائيل ذات يوم.

سوف تكون أكبر صدمة للوفاق الأمريكي الإيراني سياسية على الجانبين، فأثناء الحرب العالمية الثانية، صدمت الاتفاقية الأمريكية السوفيتية الأمريكيين بشدة (كانت صدمة السوفيت أقل؛ لأنهم كانوا قد استوعبوا بالفعل معاهدة عدم الاعتداء، التي وقعها ستالين قبل الحرب مع هتلر). وصدمة وفاق نيكسون ماو - الذي نُظر إليه في ذلك الحين، على أنه أمر لا يمكن تصوره - الجانبين معاً، غير أنه ما إن حدث حتى اتضح أنه أمر يمكن تصوره تماماً، بل يمكن إدارته.

عندما قام روزفلت بترتيبه مع ستالين، كان معرضاً للخطر من جانب يمينه، الذي اعتبرته العناصر الأكثر تطرفاً منه اشتراكياً، يميل بالتأييد نحو السوفيت. أما نيكسون - وهو معارض يميني للشيوعية - فكانت ظروفه أفضل، وسوف يكون الرئيس أوباما في موضع روزفلت، دون التهديد الكاسح للشر الأكبر بكثير نسبياً؛ أي ألمانيا النازية.



سوف تعزز الضربة الجوية موقف الرئيس أوباما السياسي، أكثر من الاتفاق القائم على المصالح؛ إذ سوف تكون التسوية مع إيران بالغة الصعوبة بالنسبة له، لأنه سوف يُنظر إليها على أنها نموذج للضعف وليس الشدة والمكر. ويعيش الرئيس الإيراني أحمددي نجاد وقتاً أفضل حيث يبيع هذا الترتيب لشعبه - لكن مقارنةً بالخيارات - إيران النووية، والضربات الجوية الممتدة مع كل ما لها من عواقب، والوجود متعدد الوحدات طويل المدى غير المرغوب فيه إلى حد كبير للقوات الأمريكية في العراق، ويبدو هذا التحالف معقولاً بشكل مثالي.

أظهر نيكسون والصين أن التغييرات الدبلوماسية الكبيرة يمكن أن تحدث بشكل مفاجئ إلى حد كبير، وغالباً ما تكون هناك فترة طويلة من مفاوضات القنوات الخلفية، يعقبها إنجاز تحرك الظروف المتغيرة أو المفاوضات الماهرة.

سوف يحتاج الرئيس الحالي إلى قدر كبير من المهارة السياسية؛ لجعل التحالف مُعيّناً على الحرب على القاعدة، وهو ما يوضح أن إيران، التي يهيمن عليها الشيعة معادية للشنة مثلما هي معادية للأمريكيين. وسوف تعارضه جماعة ضغظ ذاتا بأس، هما: المملكة العربية السعودية والإسرائيليون - وسوف تغضب المناورة إسرائيل - ولكن المملكة العربية السعودية سوف يصيها الفزع، وهو إحدى المزايا الكبيرة للمناورة، حيث يزيد القطر الأمريكي بشأن سياساتها. ويمكن التعامل مع الإسرائيليين على نحو أكثر سهولة؛ فقط لأن الجيش الإسرائيلي وأجهزة الاستخبارات الإسرائيلية ينظرون منذ فترة طويلة إلى الإيرانيين، على أنهم حلفاء طارئين ضد التهديدات العربية، حتى عندما يؤيد الإيرانيون حزب الله ضد إسرائيل. وسوف يدين السعوديون هذه الخطوة، ولكن الضغظ الذي تمارسه على العالم العربي سيكون جذاباً لإسرائيل. ومع ذلك فليست الجالية اليهودية الأمريكية مثل ما عليه إسرائيل من تعقيد وتشاؤم، فيما يتعلق بهذه الأمور، وسوف يعبر أفرادها عن أنفسهم. بل إن ما ستكون إدارته أصعب، هو جماعة الضغظ السعودية، بما تحظى به

من مساندة الشركات الأمريكية، التي تقوم بأعمال في المملكة.

سوف تكون هناك مزايا عديدة للولايات المتحدة، أولاً: ما لم تهدد الخطوة المصالح الإسرائيلية بشكل أساسي، فسوف تبين أن الولايات المتحدة لا تسيطر عليها إسرائيل، وثانياً: كما أنها سوف تنبه بلداً غير محبوب بصورة عامة، وهو المملكة العربية السعودية - تلك الدولة التي أُنهِمَتْ بأنها تحقق ما تريد في واشنطن - إلى أن للولايات المتحدة خيارات أخرى. ومن جهتهم، ليس أمام السعوديين من سبيل آخر، وسوف يتشبثون بأية ضمانات، توفرها الولايات المتحدة في مواجهة الوفاق الأمريكي الإيراني.

عند تذكر ثلاثين عاماً من العداة مع إيران، سوف يغضب الجمهور الأمريكي، وسوف يتعين على الرئيس صياغة مناورته بتقديم خطاب، يتعلق بحماية البلاد من التهديد الأكبر. وسوف يستخدم الصين بطبيعة الحال كنموذج للمصالحة الناجحة مع من لا يمكن التصالح معه.

وسوف يتعين على الرئيس التعامل مع المعارك العامة الملتوية لجماعات الضغط الأجنبية وتقديم الحجة المؤيدة للتفاهم، غير أنه سيكون عليه الحفاظ على مواقفه الأخلاقية؛ حيث يتذكر أن إيران في نهاية الأمر ليست صديقة أمريكا على نحو يزيد على ما كان عليه ستالين أو ماو.

إذا كانت هناك حاجة، في يوم ما، إلى تفاهات سرية تم التوصل إليها في الخفاء، فقد قُضي الأمر، وسيظل هذا الترتيب مسكوتاً عنه؛ إذ لن يرغب أي من البلدين في إحداث ضرر سياسي داخلي نتيجة للاجتماعات والمصافحات العامة المفرطة. ولكن في النهاية لا بد للولايات المتحدة من الخروج من الفخ، ولا بد لإيران من تجنب المواجهة الحقيقية مع الولايات المتحدة.

إيران بلد دفاعي بطبعه؛ فهي ليست قوية لما يكفي لأن تكون أساس السياسة

الأمريكية في المنطقة أو القضية طويلة المدى الحقيقية - فسكانها مركزون في الجبال المحيطة بحدودها، بينما جزء كبير من وسط البلاد قليل السكان أو غير مأهول بالمرّة - ويمكن لإيران إظهار القوة في ظل ظروف خاصة بعينها، كذلك المقبولة حالياً، ولكنها تكون على المدى الطويل إما ضحية للقوى الخارجية أو معزولة.

سوف يمنح التحالف مع الولايات المتحدة ميزة مؤقتة لإيران في العلاقات مع العرب، ولكن بعد بضع سنوات، سوف يتعين على الولايات المتحدة أن تعيد تأكيد توازن القوى - فباكستان عاجزة عن مدفوذها غرباً - وإسرائيل أصغر وأبعد كثيراً من أن تُوازن ثقل إيران. وجزيرة العرب على قدر كبير من التشظي، ونفاق الولايات المتحدة في تشجيعها على زيادة سلاحها، أو ضح من أن يكون ثقلاً موازناً بديلاً. والبديل الأكثر واقعية هو تشجيع روسيا على مدفوذها إلى الحدود الإيرانية، وهذا يمكن أن يحدث بطريقة ما، ولكنه سوف يسفر هذا - كما سنرى - عن مشكلات كبيرة في أماكن أخرى.

البلد الوحيد القادر على أن يكون ثقلاً موازناً لإيران، وقوة محتملة طويلة المدى في المنطقة هو تركيا. وسوف تصل إلى هذه المكانة خلال السنوات العشر المقبلة؛ بغض النظر عما تفعله الولايات المتحدة، فتركيا تحتل المركز السابع عشر بين أكبر اقتصادات العالم، وهي صاحبة أكبر اقتصاد في الشرق الأوسط، وهي كذلك لديها أقوى جيش في المنطقة - وباستثناء الروس، وربما البريطانيين - قد يكون أقوى جيش في أوروبا. وكشأن معظم البلدان في العالم الإسلامي، فإن تركيا منقسمة حالياً بين العلمانيين والإسلاميين داخل حدودها، ولكن صراعهم مقيد على نحو أكبر، مما يجري في أنحاء أخرى من العالم الإسلامي.

الهيمنة الإيرانية على جزيرة العرب ليست في مصلحة تركيا؛ لأن لتركيا شهيتها الخاصة بنفط المنطقة، مما يقلل اعتمادها على النفط الروسي، وكذلك لا تريد تركيا

أن تصبح إيران أكثر نفوذاً منها. ومع أن إيران بها عدد صغير من السكان الأكراد، فإن جنوب شرق تركيا موطن لعدد كبير جداً من الأكراد، وهي الحقيقة التي يمكن لإيران استغلالها. وتستخدم القوى الإقليمية والعالمية الدعم المقدم للأكراد للضغط على العراق وتركيا وإيران أو زعزعة استقرارها، وهذه لعبة قديمة ونقطة ضعف دائمة.

خلال العقد المقبل، سوف يتعين على الإيرانيين تغيير مسار موارد كثيرة؛ كي يتعاملوا مع تركيا. وفي الوقت نفسه، سوف يبحث العالم العربي عن بطل في مواجهة إيران الشيعية، ورغم التاريخ المرير للنفوذ التركي في العالم العربي أثناء الدولة العثمانية، فإن تركيا الشنئية هي الأفضل على الإطلاق.

في السنوات العشر المقبلة، لابد للولايات المتحدة من التأكد من أن تركيا لن تصبح معادية للمصالح الأمريكية، وأن إيران وتركيا لن تشكلا تحالفاً، من أجل السيطرة على العالم العربي واقتسامه، وكلما زاد خوف إيران وتركيا، كان احتمال حدوث ذلك أكبر. وسوف تتم ترضية الإيرانيين على المدى القصير بوفاقهم مع الأمريكيين، لكنهم سيكونون على علم تام بأن هذا تحالف مصلحة، وليس تحالفاً لصداقة طويلة المدى. والأترك هم المستعدون لتحالف ذي مدى أطول مع الولايات المتحدة، ويمكن أن تكون تركيا ذات قيمة للولايات المتحدة في أماكن أخرى؛ خاصة في البلقان والقوقاز؛ حيث تكون بمثابة حائل أمام التطلعات الروسية.

مادامت الولايات المتحدة محافظة على الشروط الأساسية لاتفاقها مع إيران، فسوف تمثل إيران تهديداً لتركيا. ومهما كانت ميول الأترك، فسوف يتعين عليهم حماية أنفسهم، ولكي يفعلوا ذلك، لابد لها من القضاء على النفوذ الإيراني في جزيرة العرب والبلدان العربية الواقعة إلى الشمال من جزيرة العرب - أي العراق وسوريا ولبنان - وسوف يدخلون في ذلك ليس لتحجيم إيران فحسب، بل كذلك لتحسين قدرتها على الوصول إلى النفط الواقع إلى الجنوب منها؛ لأنها سوف تحتاج ذلك النفط، ولأنها سوف ترغب في تحقيق أرباح منه.

بينما تتنافس تركيا وإيران في العقد المقبل، فسوف تكون إسرائيل وباكستان معنيتين بتوازن القوى المحلي. وعلى المدى الطويل، لا يمكن لإيران احتواء تركيا - فتركيا حتى الآن بلد أكثر ديناميكية من الناحية الاقتصادية؛ ولذلك يمكنها دعم جيش أكثر تقدماً - والأمر الأهم هو أنه بينما لدى إيران خيارات محدودة من الناحية الجغرافية، فإنه يمكن لتركيا الوصول حتى القوقاز والبلقان ووسط آسيا، وفي النهاية إلى البحر المتوسط وشمال إفريقيا؛ الأمر الذي يوفر فرصاً وتحالفات محروم منها الإيرانيون؛ فلم تكن إيران قط قوة بحرية مهمة منذ القدم، وبسبب موقع موانئها لا يمكنها أن تكون كذلك مستقبلاً في واقع الأمر. وفي المقابل، كانت تركيا باستمرار القوة المهيمنة في البحر المتوسط، وسوف تكون كذلك مرة أخرى. وعلى مدى العقد المقبل، سوف نرى بداية صعود تركيا إلى الهيمنة في المنطقة. واللافت للنظر ملاحظة أنه بينما لا يمكننا التفكير في القرن خالياً من قيام تركيا بدور شديد الأهمية، فسوف يكون هذا العقد عقد الإعداد. وسوف يتعين على تركيا تسوية صراعاتها الداخلية وتنمية اقتصادها، وسوف تستمر السياسة الخارجة الحذرة التي اتبعتها تركيا مؤخراً، وهي لن تغرق في الصراعات وسوف تؤثر بالتالي على المنطقة، غير أنها لن تحددها. ولا بد أن تكون للولايات المتحدة رؤية طويلة المدى لتركيا، وتحاشي الضغط الذي قد يقضي على تطورها.

كحل لمشكلات الشرق الأوسط، فإنه لا بد للرئيس الأمريكي من اختيار تفاهم مؤقت مع إيران، يعطي إيران ما تريد، ويتيح الولايات المتحدة مساحةاً للتسحاب، وهذا كذلك أساس لعلاقة العداء المشترك للأصوليين السُّنَّة. وبعبارة أخرى، لا بد للرئيس من وضع جزيرة العرب داخل مجال نفوذ الإيرانيين، بينما يحجم سيطرتهم المباشرة، وبينما يجعل السعوديين، ومعهم آخرون، في وضع بائس.

سوف تواجه هذه الاستراتيجية واقع القوة الإيرانية وتحاول تشكيله. وسواء تم تشكيله أم لا، فسوف يكون الحل الأطول مدى لتوازن القوى في المنطقة هو صعود

تركيا؛ فتركيا القوية سوف تكون ثقلًا موازنًا لإيران وإسرائيل، بينما تؤدي إلى استقرار جزيرة العرب. وفي الوقت المناسب، سوف يبدأ الأترك التفاعل بتحدي الإيرانيين، وبذلك سيتم إحياء توازن القوى الأساسي؛ الأمر الذي يؤدي إلى استقرار المنطقة، وسوف يخلق هذا توازنًا إقليميًا جديدًا قويًا، ولكن هذا ليس من أجل هذا العقد.

أرى أن هذا خيار سياسي مفضل في ظل الظروف، ولكنني أرى كذلك أن هذه هي النتيجة الأكثر منطقية، فالبدائل غير مقبولة من الجانبين، وهناك الكثير جدًا من المخاطرة. وعندما لا تكون البدائل غير مرغوب فيها، فإن ما يتبقى - رغم ما يبدو عليه من عبثية - هو النتيجة الأكثر احتمالاً.

ولكي نرى ما سيؤثر على دوائر النفوذ الأوسع وتوازنها، نتجه إلى الهم التالي، وهو التوازن بين أوروبا وروسيا.

## الفصل الثامن

### عودة روسيا

بدا انهيار الاتحاد السوفيتي وكأنه يشير إلى موت روسيا كلاعب دولي، لكن خبر موتها كان متسرّعًا، فدولة بهذا الحجم الكبير، وعلى هذا القدر من الموارد الكثيرة، ولها ذلك الموقع الاستراتيجي، لا تذوب في الهواء. ففي التسعينيات من القرن الماضي، حطم سقوط اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية الإمبراطورية الشاسعة التي جمّعها القيصر وأبقى الشيوعيون على تماسكها، حيث أبقى موسكو سيطرة على جزء مما كان بحوزتها في عام 1989. وبقيت موسكو في<sup>(\*)</sup> وحدها (وسيبيريا)، تلك المنطقة التي كانت نواة الإمبراطورية، في الأيدي الروسية. ومع ذلك فمادام النواة قد بقيت، فاللعبة لم تنته؛ إذ لا يزال الاتحاد الروسي، الذي ضعف بشدة، باقيا، وسيقوم بدور على قدر كبير من الأهمية في العقد المقبل.

بينما عانت روسيا من انفصال المناطق واقتصاد مدمر، ظهرت الولايات المتحدة باعتبارها القوة العالمية الوحيدة، القادرة على السيطرة على الكوكب بطريقة عارضة ودون مجهود تقريبا. لكن انهيار الاتحاد السوفيتي منح الولايات المتحدة إطارًا زمنيًا تقضي فيه على منافسها القديم، بما يضمن ألا تقوم له قائمة. وكان يمكن للولايات المتحدة الضغط على النظام الروسي بتأييد الحركات

(\*)منطقة تاريخية وإمارة قديمة في الغرب الأوسط من روسيا، تمركزت حول موسكو، وتأسست في عام 1280 ككيان مستقل حتى القرن السادس عشر، عندما توحدت مع إمارة أخرى ليشكلا معا نواة الإمبراطورية الروسية الأولى. وبعد ذلك استُخدم الاسم للمنطقة الممتدة (المترجم).

الانفصالية، أو بزيادة الضغط الاقتصادي؛ فتلك الخطوات كان يمكن أن تؤدي إلى تداعي الاتحاد الروسي بالكامل؛ مما يمكن الشركاء الصغار السابقين من استيعاب ما تبقى، ويشكلون توازن قوى جديدًا في أوراسيا.

ومع ذلك، ففي الوقت الذي لم يبذ فيه الجهد أنه يستحق المخاطرة، في الغالب لأنه بدا أنه من غير المرجح أن تخرج روسيا من الفوضى التي تعيشها لأجيال، بل لم يبذ تدمير ما تبقى من القوة الروسية ضروريًا، لأن الولايات المتحدة كان يمكنها خلق توازن القوى الإقليمي الذي تريده فقط، من خلال مد الناتو ونظام التحالف شرقًا.

لكن الولايات المتحدة كانت معنية بشدة كذلك بمستقبل الترسانة النووية السوفيتية، التي كانت أضخم من الترسانة النووية الأمريكية - وكان المزيد من الفوضى في المنطقة سيجعل الأسلحة في متناول الإرهابيين والسوق السوداء، وغير ذلك من مخاطر - وكانت الولايات المتحدة تريد أن تكون الأسلحة النووية داخل الاتحاد السوفيتي السابق تحت سيطرة دولة يمكن مراقبتها وتشكيلها، وكانت تلك هي روسيا، وليس أوكرانيا أو روسيا البيضاء أو أي من بقية الدول. وهكذا فبينما لم تحفظ الترسانة النووية الروسية الاتحاد السوفيتي، فقد أنقذت الاتحاد الروسي، على الأقل من التدخل الأمريكي.

خلال التسعينيات من القرن الماضي، كانت الدول الروسية الأعضاء في الاتحاد السوفيتي السابق - مثل كازاخستان وأوكرانيا - بحاجة شديدة إلى التنظيم. ومن خلال الاندماج بسرعة وجرأة في الناتو، كان يمكن للولايات المتحدة زيادة قوة تلك الدول المحيطة وتماسكها؛ للحيلولة دون تقدم روسيا وجمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق كذلك، وسوف تكون روسيا عاجزة عن وقف العملية.

ومع ذلك، فبينما كانت لدى الولايات المتحدة خطط لتحقيق ذلك على وجه الدقة، فهي لم تتحرك بالسرعة الكافية؛ إذ جرى استيعاب شرق أوروبا ودول البلطيق في الناتو فحسب، وهو تغير استراتيجي مهم يصبح أكثر أهمية، عندما تأخذ



هذه الحقيقة في الحسبان: عندما كان الاتحاد السوفيتي لا يزال يسيطر على ألمانيا الشرقية، كانت المسافة بين قوات الناتو وسان بطرسبورج حوالي ألف ميل، ولكن بعد انضمام دول البلطيق إلى الناتو، أصبحت المسافة حوالي مائة ميل، وبشكل هذا الإحساس بالمحاصرة والتلاشي والاجتياح السلوك الروسي من الآن فصاعدًا.

### المخاوف الروسية

مع وجود الناتو على الأعتاب، أصبح الروس مفزوعين على نحو مفهوم؛ فقد كان هذا التحالف في رأيهم عسكريًا أولاً وقبل كل شيء، ومهما كان ما عليه نزوعه من طيبة في ذلك الوقت، فإن نواياه المستقبلية لم يكن بالإمكان توقعها؛ إذ كان الروس يعرفون جيدًا مدى سهولة تأرجح الأمزجة، حيث تذكروا بألم كيف تحول الألمان من بلد يتسم بالفوضى والفقر ومسلح تسليحًا ضعيفًا في عام 1932 إلى القوة العسكرية المهيمنة في أوروبا، بعد ست سنوات. ولم تر روسيا سببًا لأن يوسع الغرب حلف الناتو، ما لم يكن يرغب آجلًا أو عاجلاً في أن يكون في وضع توجيه ضربة. وقال الروس إنه من المؤكد - على أية حال - أنهم ليسوا على وشك غزو أوروبا.

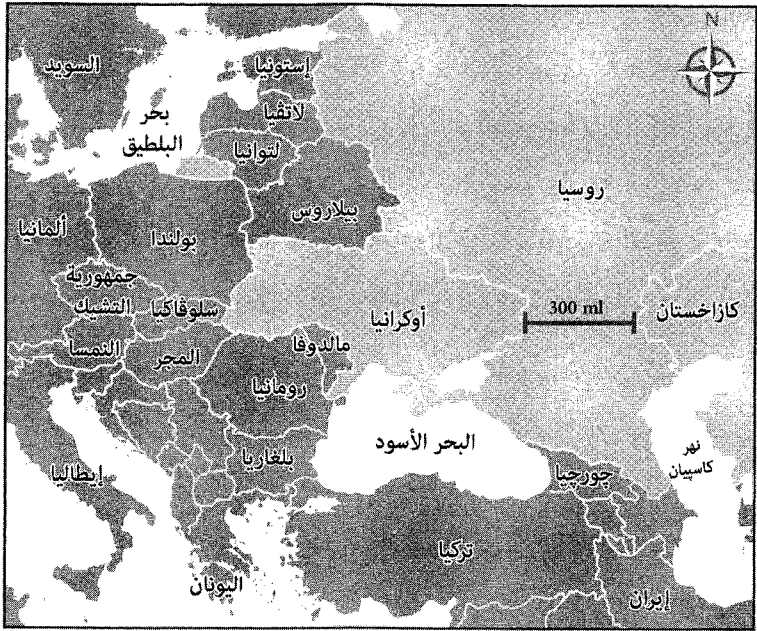
كان هناك في الناتو - وبشكل خاص الولايات المتحدة والدول التي كانت تابعة للاتحاد السوفيتي السابق - من يرغب في انتهاز الفرصة للتوسع لأسباب استراتيجية. ولكن آخرين - وبالأخص الأوروبيون - بدأوا التفكير في الناتو بطريقة مختلفة؛ فبدلاً من رؤية الناتو على أنه تحالف عسكري يركز على الحرب، رأوه أمماً متحدة إقليمية، تقصد إلى دمج الديمقراطيات الليبرالية الصديقة في منظمة، وظيفتها الأساسية الحفاظ على الاستقرار.

كان ضم دول البلطيق أكبر توسع للناتو؛ إذ بدأت بعده الأحداث في التدخل، فقد خلق صعود فلاديمير بوتين إلى السلطة روسيا مختلفة عن تلك التي كانت موجودة في عهد يلتسين في التسعينيات. وفي الوقت نفسه، كانت المؤسسة التي لم

تتوقف عن أداء وظيفتها هي الاستخبارات؛ فبعد أن حافظت على تماسك روسيا وإمبراطوريتها لأجيال، عملت أثناء التسعينيات - من القرن الماضي - كدولة مستقلة تقريباً أو منظمة للجريمة. وكان بوتين قد تلقى تدريبه في الكي جي بي، ونتيجة لذلك كان يرى العالم من الناحية الجيوبوليتيكية وليس الأيدولوجية، وكان يرى - كذلك - أن الدولة القوية ضرورية لاستقرار روسيا، ولذلك فمنذ اللحظة التي تولى فيها السلطة عام 2000، بدأ عملية استعادة القوة الروسية.

طوال ما يزيد على القرن، كانت روسيا تحاول أن تصبح قوة صناعية، يمكنها منافسة الغرب. وعندما رأى بوتين أن روسيا لا يمكنها اللحاق بالغرب، غيّر الاستراتيجية الاقتصادية للدولة إلى التركيز على تطوير الموارد الطبيعية، كالمعادن والحبوب وبشكل خاص الطاقة، وتصديرها. وكانت الاستراتيجية رائعة لخلقها اقتصاداً يمكن لروسيا استدامته ويستديم هو روسيا. وقد عزز الدولة الروسية بجعله شركة جازبروم Gazprom ذراعاً للحكومة الروسية مع احتكارها للغاز الطبيعي، كما خلق اعتماداً أوروبياً على الطاقة الروسية، وبالتالي جعل سعي الأوروبيين - وبشكل خاص الألمان - إلى المواجهة أو تأييدها أقل ترجيحاً.

جاءت نقطة التحول في العلاقات بين الولايات المتحدة وروسيا في عام 2004، عندما أقيمت الأحداث في أوكرانيا الروس بأن الولايات المتحدة تعتزم تدميرهم، أو على الأقل إحكام السيطرة عليهم. وتغطي أوكرانيا - الدولة كبيرة الحجم - حدود روسيا الجنوبية الغربية كلها، وهي من وجهة نظر روسيا مفتاح الأمن القومي الروسي.



(خريطة) فجوة أوكرانيا كازاخستان

يبلغ عرض الأراضي الروسية الواقعة بين أوكرانيا وكازاخستان ثلاثمائة ميل فقط، وكل نفوذ روسيا في القوقاز - إلى جانب قدر كبير من النفط في خطوط الأنابيب المتجهة إلى الجنوب - يتدفق عبر هذه الفجوة، ووسط الفجوة تقع فولجا جراد، ستالينجراد سابقاً. وأثناء الحرب العالمية الثانية، ضحى الروس بمليون نفس في المعركة؛ لمنع الألمان من إغلاق هذه الفجوة.

أُتهم الفائز الأول في الانتخابات الأوكرانية عام 2004، الرئيس فيكتور يانوكوفيتش Viktor Yanukovich بتلاعب انتخابي واسع المدى، كان مذنباً فيه بلا شك، ووقعت مظاهرات مطالبة بإلغاء الانتخابات، وبتنحي يانوكوفيتش، وإجراء انتخابات جديدة. ورأت موسكو هذه الاحتجاجات، المعروفة بالثورة البرتقالية،

على أنها انتفاضة مؤيدة للغرب، ومعادية لروسيا، ويقصد بها إدخال أوكرانيا الناتو. وقال الروس كذلك إنها بدلاً من أن تكون انتفاضة شعبية، كانت انقلاباً منظماً بعناية برعاية وكالة الاستخبارات المركزية والاستخبارات البريطانية M16. وطبقاً لما يقوله الروس، فقد تدفقت المنظمات غير الحكومية والجماعات الاستشارية الغربية على أوكرانيا؛ لتنظيم المظاهرات، والإطاحة بالحكومة الموالية لروسيا، وتهديد الأمن القومي الروسي بشكل مباشر.

من المؤكد أن الأمريكيين والبريطانيين كانوا يؤيدون تلك المنظمات غير الحكومية، والاستشاريين الذين كانوا حينذاك يديرون حملات بعض المرشحين المؤيدين؛ للغرب في أوكرانيا سبق أن أداروا الانتخابات في الولايات المتحدة. ومن الواضح أن المال الغربي من مصادر متعددة كان يدخل البلاد، ولكن من وجهة النظر الأمريكية، لم يكن هناك شيء سري أو يمثل خطورة في أي من هذا؛ فقد كانت الولايات المتحدة تفعل فحسب ما كانت تفعله، منذ سقوط حائط برلين، وهو العمل مع الجماعات الديمقراطية لبناء الديمقراطيات.

كانت تلك هي النقطة التي اختلفت عندها الولايات المتحدة وروسيا بشدة؛ إذ كانت أوكرانيا منقسمة بين الفصائل المؤيدة لروسيا وتلك المعادية لروسيا، لكن الأمريكيين كانوا يرون أنفسهم على أنهم مؤيدون للديمقراطيين فحسب. وكون الفصائل التي ينظر إليها الأمريكيون على أنها ديمقراطية هي كذلك، تلك الفصائل التي يُنظر إليها على أنها معادية للروس محض مصادفة.

كان الروس يرون أنها ليست مصادفة؛ فهم لديهم ذكريات حية لسياسة الاحتواء التي طالما مارسها الولايات المتحدة في مواجهة الاتحاد السوفيتي، وحينذاك فقط بدا الوعاء أصغر حجماً وأضيق وأشد خطورة بكثير. ونظروا إلى الأعمال الأمريكية على أنها محاولة متعمدة لجعل الدفاع عن روسيا صعباً، وإغارة على

المصالح الروسية الحيوية في القوقاز، تلك المنطقة التي كان للولايات المتحدة فيها بالفعل اتفاقية ثنائية مع جورجيا.

الواقع أن الاحتواء كان استراتيجية أمريكية بطبيعة الحال - بغض النظر عن الطريقة الودية التي جرى التعبير بها عنه - فالمصلحة الأمريكية الأساسية هي باستمرار توازن القوى، وبعد الامتناع عن محاولة تدمير الاتحاد الروسي في التسعينيات، انتقلت الولايات المتحدة إلى خلق توازن إقليمي في عام 2004 أساسه أوكرانيا، مع عزم واضح على ضم معظم بلدان الاتحاد السوفيتي السابق في هذا الثقل الموازن للقوة الروسية.

تضاعفت مخاوف روسيا، عندما رأوا ما تفعله الولايات المتحدة في وسط آسيا. ومع ذلك فإنه عندما قررت الولايات المتحدة، في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر، الإطاحة بحكومة طالبان في أفغانستان بسرعة، تعاون الروس بطريقتين، أولاً: وفروا القدرة على الوصول للتحالف الشمالي، وهو فصيل موال لروسيا يعود إلى أيام الاحتلال الروسي والحرب الأهلية التي أعقبته، وثانياً: استغلت روسيا نفوذها للحصول على قواعد جوية وبرية في ثلاثة بلدان على حدود أفغانستان، هي: أوزبكستان وطاجيكستان وتركمانستان، يمكن للولايات المتحدة دعم قوات غزوها منها، ومنحت روسيا كذلك مزايا طيران فوق أراضيها؛ الأمر الذي كان بالغ الفائدة مقارنة بالسفر من الساحل الغربي أو أوروبا.

كان فهم روسيا أن هذه القواعد في البلدان المجاورة مؤقتة، لكن بعد ثلاث سنوات لم يُبدِ الأمريكيون ما يدل على أنهم سيرحلون في أي وقت قريب. وأثناء ذلك وقع غزو العراق، رغم الاعتراضات الروسية، وغرقت الولايات المتحدة فيما كان من الواضح أنه احتلال طويل المدى، كما أنها كانت متورطة بشدة في أوكرانيا وجورجيا، وكانت تقيم تواجدًا كبيرًا في وسط آسيا. ومع أن تلك الأعمال قد

لا تبدو شديدة الضرر لمصالح موسكو - عند النظر إليها بشكل منفرد - فهي عند النظر إليها مجتمعة تبدو وكأنها جهد منسق لخنق روسيا.

بشكل خاص، قد يُرى الوجود الأمريكي في جورجيا فقط باعتباره استفزازًا متعمدًا، لأن جورجيا تقع على الحدود مع روسيا عند منطقة الشيشان الروسية، وكان الروس يخشون من أنه إذا انفصلت الشيشان عن الاتحاد الروسي، فسوف يتفكك البناء كله، حين يحذو الآخرون حذوها. وتقع الشيشان كذلك على المنحدر الشمالي الأقصى لجبال القوقاز، وكانت القوة الروسية قد تراجعت بالفعل مئات الأميال، عند حدودها الأصلية الواقعة بعمق في تلك الجبال. وإذا ما تراجع الروس لمسافة أبعد، فسوف يكونون خارج جبال القوقاز بالكامل، على أرض منبسطة يصعب الدفاع عنها. وعلاوة على ذلك، كان هناك خط أنابيب مهم يمر عبر جروزني، العاصمة الشيشانية، وسوف يكون لفقدانه أثر كبير على استراتيجية تصدير الطاقة الروسية (وإن كان الآن لا يعمل بسبب التخريب الشيشاني).

إذا عدنا إلى التسعينيات من القرن الماضي، فسنجد أن الروس كان يعتقدون أن الجورجيين كانوا يسمحون بتدفق الأسلحة إلى الشيشان، من خلال ما كان يسمى مضيق بانكيسي، كما كانوا يعتقدون أن الولايات المتحدة، التي كان لها - بصفة خاصة - مستشارون عسكريون في جورجيا، كانت في أفضل الأحوال لا تفعل شيئًا لوقف التهريب، وكانت في أسوأها تشجعه.

انطلاقًا من سياستها الجهرية، كانت الولايات المتحدة تحاول بناء صداقات في المنطقة، وخاصة مع جورجيا، إلا أنه كان من الواضح للجميع أن الولايات المتحدة لم تعد قادرة على التلويح بالخطير بالقوة؛ إذ كان لا تزال لديها قوة جوية احتياطية، غير أنه على الأرض استنفدت طاقة قواتها في العراق وأفغانستان.

كان ذلك مهمًا من الناحية النفسية، ولكن في ذلك الحين خلقت حرب العراق أثرًا سياسيًا ضخمًا كذلك؛ فالصدع الذي نشأ بين الولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا

بشأن العراق، وكانت الجفوة الأوروبية العامة تجاه إدارة بوش، تعني أن ألمانيا على وجه الخصوص أقل ميلاً بكثير مما كانت عليه من قبل في تأييد للخطط الأمريكية الخاصة بتوسيع الناتو، أو المواجهة مع روسيا. بالإضافة إلى ذلك، جعل الروس ألمانيا تعتمد على الغاز الطبيعي الروسي، من خلال تلبيتهم لنصف احتياجات ألمانيا تقريباً، وبذلك لم يكن الألمان في وضع يسمح لهم بالمواجهة. وحددت توليفة الاختلال العسكري والتوتر الدبلوماسي الخيارات الأمريكية بشدة، غير أن الولايات المتحدة واصلت بحكم العادة، محاولة زيادة نفوذها.

في خطاب حالة الاتحاد الذي ألقاه بوتين في 25 أبريل من عام 2005، أعلن أن سقوط الاتحاد السوفيتي «أكبر كارثة جيوبوليتيكية في القرن». كان ذلك إعلانه العام الذي قصد به العمل على إصلاح بعض نتائج ذلك السقوط. ومع أن روسيا لم تعد قوة عالمية، فقد كانت داخل المنطقة - في غياب الولايات المتحدة - قوية على نحو ساحق؛ ففي ظل الحروب في العراق وأفغانستان، كانت الولايات المتحدة غائبة حينذاك. وفي ضوء ذلك، تحرك بوتين لزيادة قدرة جيشه، كما تحرك لتعزيز نظامه بزيادة العائدات من صادرات السلع، وهو قرار عَرَضي في ظل ارتفاع أسعار السلع. كما استخدم القدرات الاستخباراتية لـ «إف إس آر» و«إس في آر»، وهما وريثا «كي جي بي»، لتحديد الشخصيات الأساسية في الاتحاد السوفيتي السابق والسيطرة عليهم، وبما أن معظمهم كانوا ناشطين سياسياً في عهد النظام السوفيتي الحاكم، فقد كانوا إما شيوعيين سابقين أو على الأقل معروفين لـ «إف إس آر» من ملفاتهم، وكانت للجمع نقاط ضعف، واستخدم بوتين أقوى موارده لاستغلال نقاط الضعف تلك.

في أغسطس من عام 2008، هاجمت الحكومة الجورجية أوستيا الجنوبية لأسباب لم تتضح بالمرّة. وكانت هذه المنطقة - التي كانت في يوم من الأيام جزءاً من جورجيا - قد انفصلت وأصبحت مستقلة بالفعل منذ التسعينيات، وكانت

متحالفة مع روسيا. ورد بوتين وكان روسيا كانت تتوقع الهجوم؛ إذرد الضربة خلال ساعات وهزم الجيش الجورجي، واحتل جزءاً من ذلك البلد.

كان الهدف الأساسي من الهجوم بيان أن روسيا مازال بإمكانها التلويح باستخدام القوة؛ ذلك أن الجيش الروسي انهار في التسعينيات، وكان بوتين بحاجة إلى تبديد تصور أنه لم يعد مناسباً لمقتضى الحال. غير أنه أراد كذلك أن يبين لبلدان الاتحاد السوفيتي السابق أن الصداقة والضمانات الأمريكية لا معنى لها. ورغم أنه كان هجوماً صغيراً ضد دولة صغيرة، إلا أنه كان ضربة موجهة لدولة اقتربت كثيراً من الولايات المتحدة. وأدهشت العملية المنطقة وشرق أوروبا، كما أدهشها عدم الرد الأمريكي، إلى جانب اللامبالاة الفعلية من جانب الأوروبيين. وأكد التقاعس الأمريكي، الذي اقتصر على الرسائل الدبلوماسية، حقيقة أن أمريكا بعيدة وروسيا قريبة جداً، ومادامت الولايات المتحدة تواصل التزامها بوجود قواتها البرية في الشرق الأوسط، فإن عجزها عن العمل سوف يستمر، وبدأ مؤيدو روسيا في أوكرانيا، بمساعدة من الاستخبارات الروسية، عملية نقض نتائج الثورة البرتغالية. وفي عام 2010 أبدلت الحكومة الموالية للغرب بالرجل الذي أطاحت به الثورة البرتغالية.

سمحت الولايات المتحدة بتحركها شديد البطء للروس أن يستعيدوا توازنهم، بينما كانت الولايات المتحدة تفقد توازنها الاستراتيجي في العراق. وفي اللحظة ذاتها التي كان يتعين عليها فيها تركيز القوة على الهامش الروسي؛ لتفعيل نظام الاحتواء الخاص بها، كان للولايات المتحدة قوات في أماكن أخرى، وكان حلفاؤها في أوروبا أضعف من أن تكون لهم أهمية. ولتجنب تلك الخطوات الخاطئة والفرصة الضائعة، سوف يتعين على الرئيس الأمريكي تبني استراتيجية جديدة وأكثر ثباتاً في العقد المقبل.

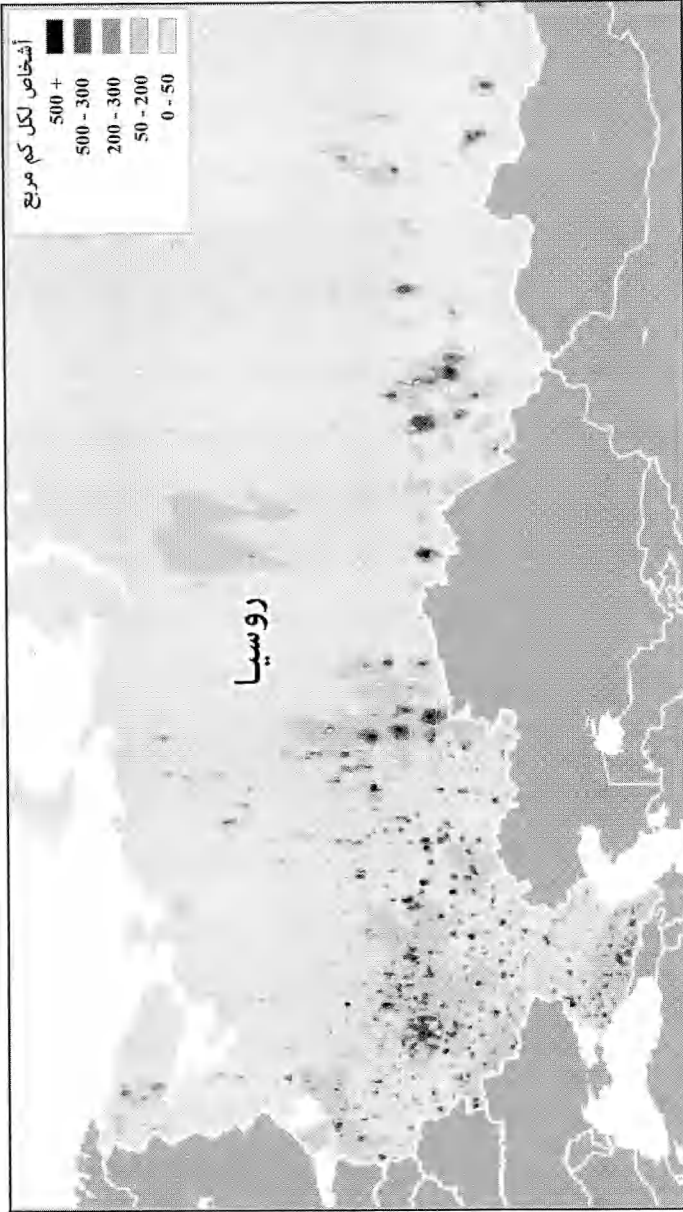


## ظهور روسيا من جديد

على المدى الطويل، روسيا بلد ضعيف. واستراتيجية بوتين الخاصة بالتركيز على إنتاج الطاقة وتصديرها أداة رائعة قصيرة المدى، ولكنها تفلح فقط إن هي شكلت أساس توسع اقتصادي كبير. ولتحقيق هذا الهدف الأكبر، لا بد لروسيا من التعامل مع نقاط ضعفها الأساسية، غير أن نقاط الضعف هذه متأصلة في المشكلات الجغرافية، التي لا يمكن التغلب عليها بسهولة.

على عكس جزء كبير من العالم الصناعي، فإن روسيا لديها عدد سكان صغير نسبيًا مقارنة بمساحتها وسكانها متناثرين بشكل كبير، يربطهم ببعضهم ما لا يزيد كثيرًا على جهاز أمني وثقافة مشتركة. بل إن المدن الكبرى كموسكو وسان بطرسبرج ليست مراكز لمجمعات حضرية عملاقة؛ إذ إنها كيانات قائمة بذاتها تفصلها عن بعضها مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية والغابات. وبغض النظر عن حقيقة أن عدد سكان روسيا يتناقص، فالتوزيع الحالي للسكان يجعل الاقتصاد الحديث، أو حتى التوزيع الكفء للغذاء، صعبًا إن لم يكن مستحيلًا؛ ذلك أن البنية التحتية التي تربط المناطق الزراعية بالمدينة سيئة، وكذلك حال البنية التحتية التي تربط المراكز الصناعية والتجارية.

تنبع المشكلة المتعلقة بالاتصال من حقيقة أن أنهار روسيا تسير في الاتجاه الخطأ؛ فهي على عكس أنهار أمريكا- التي تربط الريف الزراعي بالموانئ حيث يمكن توزيع الغذاء- تخلق حدودًا فحسب. لم يحدث قط أن اقترب القياصرة وسندات سكك حديدهم ولا ستالين بتجويعه من التغلب على المشكلة، وما زال بناء نسيج رابط للاقتصاد الروسي- أنظمة سكك حديدية وطرق- متعثراً. إن لدى روسيا باستمرار قوة عسكرية تفوق اقتصادها، ولكنها لا يمكن أن تواصل ذلك.



(خريطة) كثافة السكان الروس

لابد لروسيا من التركيز على المدى القصير بينما لديها الميزتان التوأم، وهما: اعتماد ألمانيا على طاقتها وتشتت أمريكا في الشرق الأوسط، ولا بد أن تحاول خلق الهياكل الدائمة: بعضها محلي والبعض الآخر أجنبي، والتي يمكن أن تظل متماسكة مع بعضها حتى في مواجهة القيود الاقتصادية.

الهيكل الداخلي في سبيله بالفعل إلى الظهور مع توصل روسيا وروسيا البيضاء وكازاخستان إلى اتفاق على اتحاد اقتصادي، وتناقشان الآن العملة الموحدة. وعبر الأرمن والطاجيك عن اهتمامهم بالانضمام إليهما، وسربت روسيا فكرة انضمام أوكرانيا كذلك، وهذه علاقة سوف تتطور إلى اتحاد سياسي من نوع ما، كالاتحاد الأوروبي، وهو تحالف سوف يقطع شوطًا بعيدًا في بعث الملامح الأساسية للاتحاد السوفيتي السابق.

أما الهيكل الدولي الذي تحتاجه روسيا فربما يكون أكثر أهمية وإشكالية، وهو يبدأ بأوروبا، وبخاصة ألمانيا. وتحتاج روسيا إلى الوصول إلى التكنولوجيا الموجودة بوفرة لدى ألمانيا، بينما تحتاج ألمانيا إلى الوصول إلى الموارد الطبيعية الروسية؛ فقد خاضت ألمانيا حربين للحصول على تلك الموارد ولكنها فشلت، ولم يتلاش اهتمامها بهذه الموارد، لكن وسائله الآن دبلوماسية وليست عسكرية. إن الرغبة في استغلال هذه العلاقة التكاملية ستكون في قلب الاستراتيجية الروسية خلال السنوات العشر المقبلة.

ألمانيا هي قوة الاتحاد الأوروبية المحركة التي تحمل معها - كما سنرى - أعباء غير متوقعة؛ فالألمانيا اهتمام قليل بالعمليات الأمريكية في الشرق الأوسط، وليس لها أي اهتمام كان بمد نفوذ الناتو، ومع النفوذ الأمريكي، إلى الهامش الروسي؛ إذ إنها تريد تحاشي الولايات المتحدة، وتريد خيارًا آخر غير الاتحاد الأوروبي.

والتعاون الأوثق مع روسيا ليس فكرة سيئة من وجهة نظر ألمانيا، وهي فكرة ممتازة من وجهة نظر روسيا. ويعرف بوتين الألمان على نحو جيد، يكفي لفهم خوفهم من الروس وعدم الثقة فيهم. ولكنه يعرفهم كذلك على نحو جيد يكفي لإدراك أنهم تجاوزوا عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، ويواجهون مشكلات اقتصادية خطيرة خاصة بهم، ويحتاجون إلى الموارد الروسية.

إعادة بناء مجال النفوذ الذي يهيمن عليه الروس وخلق علاقات هيكلية مع ألمانيا في آن واحد، فكرة يحتاجها الروس كي ينطلقوا، وينطلقوا بسرعة؛ ذلك أن الزمن ليس في صالحهم، ولا بد لروسيا من أن تقنع ألمانيا بأنه يمكنها أن تكون شريكاً يُعتمد عليه، دون اتخاذ أية خطوات لتعطيل علاقات الاتحاد الأوروبي أو ألمانيا معها. وسوف تكون هذه التطورات بالية تساندها قوة حقيقية، وإن كانت انتقالية.

لكي تكون لروسيا أية فرصة للمناورة في السنوات المقبلة، لا بد لها من فصل الولايات المتحدة عن أوروبا. وفي الوقت نفسه سوف تفعل أي شيء يمكنها لإبقاء الولايات المتحدة غارقة في العراق وأفغانستان، وإن أمكن في إيران. ومن وجهة النظر الروسية، فإن الحرب الجهادية الأمريكية تشبه فيتنام؛ فهي تخفف عن روسيا عبء التعامل مع الجيش الأمريكي، كما أنها في واقع الأمر تجعل الأمريكيين معتمدين على التعاون الروسي في إجراءات مثل فرض عقوبات على بلدان كإيران. ويمكن للروس أن يجهدوا الأمريكيين إلى ما لا نهاية بالتهديد بشحن الأسلحة إلى الجماعات المعادية للولايات المتحدة وبلدان كإيران وسوريا. وهذا أمر يقيد الولايات المتحدة؛ حيث تحاول إغواء الروس، بينما الشيء الوحيد الذي يريد الروس أن يفعله الأمريكيون هو أن يظلوا غارقين دوماً في الحرب.

تكشف هذه الاستراتيجية الروسية ثمن مبالغه أمريكا في التزاماتها نحو الحرب على الإرهاب، كما تبين أنه من الضروري أن تجد الولايات المتحدة رداً فعالاً على

الإسلام المتشدد، وكذلك ردًا فعالاً على الروس، والاختفاء وراء كل خطوة روسية كابوس جيوبوليتيكي محتمل بالنسبة للأمريكيين.

### الاستراتيجية الأمريكية

الاهتمام الأمريكي بأوراسيا - المفهوم أنها روسيا وشبه الجزيرة الأوروبية - مثله مثل الاهتمام الأمريكي بأي مكان؛ كي لا تهيمن قوة واحدة أو تحالف واحد. وسوف يخلق توحيد روسيا وأوروبا قوة ستكون قدرتها السكانية والتكنولوجية والصناعية ومواردها الطبيعية مساوية على أقل تقدير لقدرة أمريكا ومواردها الطبيعية، ومن المحتمل إلى حد كبير أن تفوقها.

خلال القرن العشرين، تصرفت الولايات المتحدة ثلاث مرات؛ لمنع حدوث الوفاق الروسي الألماني الذي يمكن أن يوحد أوراسيا ويهدد المصالح الأمريكية الأساسية. وفي عام 1917 قلب سلام روسيا المنفرد مع الألمان الموازين ضد الإنجليز والفرنسيين في الحرب العالمية الأولى، وتدخلت الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية، حيث بعثت بإمدادات إلى البريطانيين، وبشكل خاص إلى السوفيت، الذين استنزفوا القوات المسلحة الألمانية، ومنعوا الألمان من الاستيلاء على أراضٍ روسية شاسعة. وفي عام 1944 غزت الولايات المتحدة غرب أوروبا، حيث لم تصد الألمان فحسب، بل السوفيت كذلك. ومن عام 1945 إلى 1991 خصصت الولايات المتحدة موارد ضخمة لمنع السوفيت من الهيمنة على أوراسيا.

لا بد أن يكون رد الولايات المتحدة على الوفاق الروسي الألماني، خلال السنوات العشر المقبلة، ردها نفسه في القرن العشرين. ولا بد أن تواصل الولايات المتحدة عمل كل شيء يمكنها؛ لمنع الوفاق الروسي الألماني، والحد من الأثر الذي يمكن أن يكون لمجال تأثير روسيا على أوروبا؛ لأن وجود روسيا القوية عسكريًا نفسه يغير الطريقة التي تتصرف بها أوروبا.

ألمانيا مركز الجاذبية الأوروبية، وإذا غيرت وضعها فسوف تُضطر البلدان الأوروبية الأخرى للتغيير بالتبعية، حيث من المحتمل أن يتحرك ما يكفي من البلدان؛ لجعل ميزان المنطقة كلها يميل. وبما أن روسيا تعيد تشكيل قبضتها على بلدان الاتحاد السوفيتي السابق وتُخكِّمها، فسوف تأخذ معها معظم تلك البلدان. ورغم كون العلاقة غير رسمية في البداية، فسوف تقوى بمرور الزمن لتصبح شيئاً أكثر أهمية؛ لأن الأجزاء تتطابق مع بعضها بدقة، يستحيل معها أن يكون الأمر خلاف ذلك. وسوف يكون هذا إعادة تعريف تاريخي للعلاقات الأمريكية الأوروبية، وهو تغيير ليس في ميزان القوى الإقليمي فحسب، بل في ميزان القوى العالمية كذلك، ومع نتائج لا يمكن التنبؤ بها إلى حد بعيد.

بينما أرى أن اتحاداً كونفيدرالياً بين روسيا البيضاء وروسيا أمراً مرجحاً، فإن تلك الخطوة سوف تأتي بالجيش الروسي إلى حدود أوروبا. والواقع أن روسيا بالفعل بينها وبين روسيا البيضاء تحالف عسكري. أضف إلى ذلك أن أوكرانيا والقوات الروسية ستكون على حدود رومانيا والمجر وسلوفاكيا وبلدان البلطيق، وجميعها كانت دولاً تابعة لروسيا. وبذلك تعيد خلق الإمبراطورية الروسية، وإن كان ذلك بشكل مؤسسي مختلف.

ومع ذلك فالبلدان التي وراء خط الجبهة أكثر اهتماماً بشأن الولايات المتحدة منها بشأن روسيا. وهي تنظر إلى الأمريكيين على أنهم منافسون اقتصاديون أكثر منهم شركاء، وكقوة تجرهم إلى صراعات لا يريدون المشاركة فيها. ومن ناحية أخرى، يبدو أن الروس متعاونون اقتصادياً مع الدول الأوروبية المتقدمة اقتصادياً. كذلك ترى الدول الأوروبية البلدان التابعة لروسيا سابقاً على أنها حاجز مادي أمام موسكو، يضمن بشكل أكبر أن تعمل مع روسيا وتظل آمنة داخل منطقتها. وهي تفهم القلق الذي لدى الأوروبيين الشرقيين، ولكنها تعتقد أن الفوائد الاقتصادية

للعلاقات، وكذلك اعتماد الأوروبيين الشرقيين على اقتصاد بقية أوروبا، سوف يحافظ على توافق الروس. وقد يقلص الأوروبيون علاقتهم بالأمريكيين، وقيمون علاقة جديدة ذات منفعة متبادلة مع الروس، وتظل لديهم فائدة الحاجز الاستراتيجي كسياسة تأمين، وسوف يمثل هذا مخاطرة كبيرة للولايات المتحدة. ولهذا السبب، لابد للرئيس الأمريكي من العمل لاحتواء روسيا، مع السماح لنقاط ضعف تلك الدولة المتأصلة بأن تلحق بها الضرر، ولا يمكنه الانتظار حتى انتهاء الحرب بين أمريكا والجهاديين. بل لابد له من العمل على ذلك فوراً.

إذا واصلت ألمانيا وروسيا التحرك نحو التحالف، فحينئذ البلدان الواقعة بين بحر البلطيق والبحر الأسود - ما كان يُسمى بلدان ما بين البحرين - لا يمكن الاستغناء عنها بالنسبة للولايات المتحدة وسياستها. ومن بين هذه البلدان، بولندا هي الأكبر وذات الموقع الأكثر استراتيجية، كما أنها البلد الذي لديه أكثر ما يمكن خسارته، ووعي شديد باحتمال الخسارة هذا. وعضوية الاتحاد الأوروبي بالنسبة للبولنديين شيء، لكن أن يعلقوا في وفاق روسي ألماني شيء آخر، فهم وغيرهم من الأوروبيين الشرقيين مرعوبون من جرهم مرة أخرى إلى مجالات النفوذ الخاصة بأحد عدوهم التاريخيين أو كليهما.

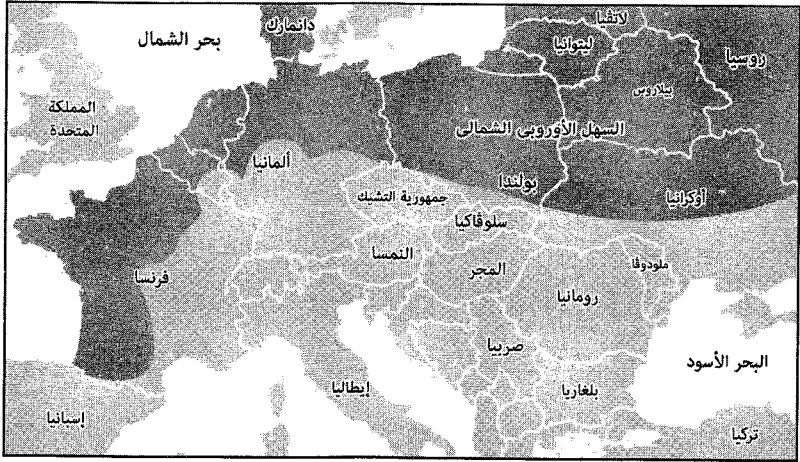
لم يكن معظم هذه البلدان مستقلاً حتى أدت الحرب العالمية الأولى إلى انهيار الإمبراطوريات النمساوية المجرية والروسية والعثمانية والألمانية، وبصورة عامة، كانت مقسمة وخاضعة ومستغلة. وفي حالات مثل المجر، كان القمع معتدلاً، وفي حالات أخرى كان وحشيًا. ولكن هذه الدول كافة تذكر الاحتلال بواسطة النازيين ومن بعدهم السوفييت، وكانت تلك احتلالات بشعة. صحيح أن النظامين الألماني والروسي الآن مختلفان، ولكن بالنسبة للأوروبيين الشرقيين لم يكن الاحتلال منذ زمن بعيد، وشكلت ذكرى ما كان يعنيه أن تعلق في ميدان القوة الألمانية الروسية شخصيتهم الوطنية، وسوف تظل تشكل سلوكهم في العقد المقبل.

يصدق هذا بشكل كبير على بولندا، التي كانت في مرات عديدة مستوعبة في ألمانيا وروسيا والنمسا. وكانت التسوية التاريخية، عندما كانت هناك تسويات يتم عملها، هي تقسيم بولندا، وهو مازال كابوس بولندا الذي يمضي قدمًا. وعندما أصبحت بولندا مستقلة بعد الحرب العالمية الأولى، كان عليها أن تخوض حربًا لمنع الزحف السوفيتي. وبعد عشرين عامًا، غزاها الألمان والسوفيت في وقت واحد، بناء على معاهدة سرية للقيام بذلك. وفي نصف القرن التالي من الحرب الباردة كانت الشيوعية كابوسًا مطلقًا.

عانى البولنديون في علاقة مباشرة بالأهمية الاستراتيجية لموقعهم؛ حيث تتجاوز حدودهم مع ألمانيا وروسيا، وتشغل السهل الأوروبي الشمالي الذي يمتد كطريق من ساحل الأطلسي الفرنسي إلى سان بطرسبرج. وتشارك البلدان الأوروبية الأخرى في الرؤية البولندية، ولكنها أكثر أمنًا من الناحية الجغرافية وراء جبال الكاربات.

لن يكون لبولندا - المكشوفة على الجانبين - من اختيار، سوى المضي تبعًا لما يقرره الألمان والروس، وهو ما يمكن أن يكون مفاجئًا للولايات المتحدة؛ لذلك فمن مصلحة الولايات المتحدة ضمان استقلال بولندا عن روسيا وألمانيا، ليس بشكل رسمي فحسب، وإنما بخلق اقتصاد بولندي قابل للبقاء يتسم بالحيوية، وجيش يمكن أن يكون بمثابة نموذج ومحرك لبقية شرق أوروبا. فبولندا عظمة تاريخية في حلق كل من ألمانيا وروسيا، ومن مصلحة أمريكا التأكد من وجودها بقوة فيه. وبولندا المتحالفة مع ألمانيا تهدد لروسيا، والعكس صحيح كذلك. ولا بد أن تظل بولندا تهديدًا لكليهما؛ لأنه لا يمكن أن تدع الولايات المتحدة أيا منهما يشعر بقدر كبير من الأمان.





### خريطة) السهل الأوروبي الشمالي

على مدى السنوات العشر المقبلة، سوف تؤدي العلاقة الأمريكية مع بولندا وظيفتين؛ فهي يمكن أن تمنع الوفاق الروسي الألماني أو تحد منه، غير أنه إذا لم يحدث ذلك، فسوف تخلق ثقلاً موازناً. وتحتاج الولايات المتحدة بالحاح إلى بولندا؛ لأنه ليس هناك بديل استراتيجي، لموازنة التحالف بين روسيا وألمانيا. ومن وجهة نظر بولندا، فإنها يمكن أن تحمي صداقتها مع الأمريكيين من جيرانها، غير أن هناك مشكلة خاصة في هذه النقطة؛ فقد اكتوت العقليّة الوطنية البولندية بنار عدم مجيء بريطانيا وفرنسا للدفاع عن بولندا ضد ألمانيا في بداية الحرب العالمية الثانية، رغم الضمانات، وحساسية بولندا المفرطة للخيانة سوف تجعلها تفضل التوافق مع القوى المعادية على التحالف مع شريك، لا يمكن الاعتماد عليه. ولهذا السبب، لا بد للرئيس أن يتجنب الظهور متردداً في مقاربتة، وهذا ويعني اتخاذ قرار استراتيجي غير محمي بشكل ما - وهذا موقف غير مريح باستمرار؛ لأن الرؤساء الصالحين يهتمون بجعل خياراتهم مفتوحة. لكن الإصرار على مساحة أكبر من اللازم للمناورة يمكن أن يقضي على الخيار البولندي في الحال.

عندما شرعت إدارة جورج و. بوش في خلق نظام دفاع ضد الصواريخ الباليستية لشرق أوروبا، تحوطت الولايات المتحدة؛ فقد قررت بناء نظام يتصدى لأعداد صغيرة من الصواريخ التي تطلقها البلدان المارقة، وبشكل خاص إيران. واعتمت وضع نظام رادار في جمهورية التشيك، ووضعت خططاً لنصب الصواريخ في بولندا. وكان ذلك إضافة إلى إرسال أسلحة متطورة مثل الطائرة المقاتلة F-16 وصواريخ باتريوت Patriot إلى البولنديين. وكان يمكن وضع النظام في أي مكان، ولكنه وُضع في بولندا لتوضيح أن بولندا مهمة للمصالح الاستراتيجية الأمريكية، ولتعميق التعاون الأمريكي البولندي خارج سياق الناتو، وفهم الروس ذلك وجربوا كل ما يمكنهم لمنعه.

عارض الروس نصب الصواريخ في بولندا، حتى وإن كان النظام سيدافع فقط عن بضع صواريخ، وكانت لدى الروس أعداد هائلة. والواقع أن القضية بالنسبة للروس لم تكن قط الدفاع الصاروخي، بل كانت حقيقة إقامة الولايات المتحدة لأنظمة استراتيجية على الأرض البولندية. وكان لا بد من الدفاع عن نظام استراتيجي، وفهم الروس أن نظام الدفاع ضد الصواريخ الباليستية مجرد بداية التزام أمريكي كبير تجاه بولندا.

عندما جاءت حكومة أوباما، أراد قادتها «إعادة ضبط» علاقاتهم مع الروس. وأوضح الروس أنهم بينما لا يرغبون في العودة إلى عداءات الحرب الباردة، فمن الممكن أن تمضى الأمور قدماً فقط، إذا سُحب نظام الدفاع ضد الصواريخ الباليستية من بولندا. وفي ذلك الحين، كان البولنديون ينظرون إلى النظام على أنه رمز للالتزام أمريكا تجاههم، رغم أن نظام الدفاع ضد الصواريخ الباليستية لم يكن يحمي بولندا في واقع الأمر من أي شيء، بل ربما يجعلها هدفاً. وذلك، كان البولنديون، الذين لديهم حساسية من الخيانة، يرغبون بشدة في العلاقة مع واشنطن. وعندما قرر أوباما

نقل نظام الدفاع ضد الصواريخ الباليستية من بولندا إلى سفن قبالة الساحل، أصيب البولنديون بالذعر، اعتقادًا منهم بأن الولايات المتحدة في سبيلها لأن تعقد صفقة مع الروس، ولم تغير الولايات المتحدة مواقفها بشأن بولندا بحال من الأحوال، ولكن البولنديين كانوا مقتنعين بأنها غيرتها.

إذا كانت بولندا تعتقد أنها ورقة مساومة، فسوف تصبح ورقة غير موثوق بها، وبذلك فإنه خلال العقد المقبل قد تفلت الولايات المتحدة بخيانة بولندا مرة واحدة فحسب، وهذه الخطوة يمكن التفكير فيها فقط، إذا كانت ستوفر ميزة كاسحة. ومن الصعب رؤية ما يمكن أن تكونه تلك الميزة في ظل كون الإبقاء على إسفين بين ألمانيا وروسيا أمرًا في غاية الأهمية للولايات المتحدة.

حالة دول البلطيق أمر مختلف؛ فهي تمثل قدرة دفاعية رائعة بالنسبة للولايات المتحدة، لكونها مشهورة كحربة في وجه سان بطرسبرج، ثاني كبرى المدن الروسية، وحيث تبعد حدود لتوانيا الشرقية حوالي مائة ميل فقط من منسك عاصمة روسيا البيضاء.

رغم ذلك، ليس لدى الولايات المتحدة القوة أو الرغبة في غزو روسيا. وبما أن الموقف الأمريكي عدواني من الناحية الاستراتيجية ودفاعي من الناحية التكتيكية، تصبح دول البلطيق التزامًا؛ فهي بطولها البالغ حوالي ثلاثمائة ميل، ولا يزيد عرضها في أي مكان عن مائتي ميل، من المستحيل الدفاع عنها. ومع ذلك فهي يمكن أن تعوق حركة الأسطول الروسي في سان بطرسبرج. وبذلك تظل دول البلطيق ميزة، ولكنها ميزة يمكن أن يكون الحفاظ عليها باهظ التكلفة. ولذلك يجب على الرئيس الأمريكي أن يبدو ملتزمًا تمامًا تجاه دول البلطيق بردع الروس، بينما يتزعززع أقصى تنازلات من الروس بالنسبة لاتفاقية أمريكية للانسحاب من المنطقة. وفي ظل توتر بولندا، ينبغي تأخير هذه المناورة أطول وقت ممكن. ومما يؤسف له أن الروس

سيكونون واعين بهذه الحقيقة، ومن المحتمل أن يمارس الروس ضغطًا على دول البلطيق - عاجلاً وليس آجلاً - مما يجعل هذا نقطة احتجاج واضحة ومبكرة.

مهما حدث لألمانيا، فمن المهم جدًا للولايات المتحدة أن تحافظ على علاقة ثنائية قوية مع الدنمارك، التي تمنع مياهها المطلعات من بحر البلطيق. وكذلك مع النرويج، التي توفر رأس الشمال فيها تسهيلات لمنع تحرك الأسطول الروسي في مورمانسك، قيمة لدى الولايات المتحدة، مثلها مثل آيسلندا، باعتبارها منصة رائعة، يتم منها البحث عن الغواصات الروسية. وليس أي منهما عضوًا في الاتحاد الأوروبي، وآيسلندا مستاءة من ألمانيا بسبب الإجراءات الاقتصادية؛ التي أُتخذت أثناء الأزمة المالية في عام 2008، وبذلك يمكن ضمهما بتكلفة منخفضة نسبيًا.

سوف تكون بقية الحدود مع روسيا جبال الكريات التي تقع وراءها سلوفاكيا والمجر ورومانيا، وهناك ضرورة استراتيجية لمحافظة الولايات المتحدة على علاقات ودية مع هذه البلدان الثلاثة، ومساعدتها في تطوير قدرتها العسكرية. لكن في ظل العقبة التي تمثلها جبال الكريات أمام الغازي، تكون القدرة العسكرية المطلوبة أقل ما يمكن. ولأن هذه البلدان معرضة للخطر على نحو أقل من بولندا، وبالتالي لديها حرية مناورة أكبر؛ فسوف تكون هناك درجة أكبر من التعقد السياسي. لكن مادام الروس لا يتجاوزون جبال الكريات، ولا يهبط الألمان بهذه البلدان إلى التبعية الاقتصادية التامة، فسيمكن للولايات المتحدة إدارة الوضع باستراتيجية بسيطة، وهي تقوية تلك الاقتصادات والجيش، وجعل بقاءها موالية لأمريكا أمرًا مفيدًا، والانتظار - ولا تفعلوا ما يستفز الروس في منطقة نفوذهم - ولا تفعلوا ما يخرب العلاقات الاقتصادية مع بقية أوروبا، ولا تفعلوا ما يثير قلق بقية الأوروبيين؛ لأن الولايات المتحدة سوف تجرهم إلى الحرب.

في القوقاز، الولايات المتحدة متحالفة الآن مع جورجيا، وهي بلد مازال خاضعًا للضغوط الروسية، لا يمكن التنبؤ بسياسته الداخلية على المدى الطويل، على أقل

تقدير. وخط البُلْدَان التالي، وهو أرمينيا وأذربيجان، إشكالي كذلك، فالأولى حليف روسي والثانية أقرب إلى تركيا. وبسبب العداء التاريخي لتركيا، فإن ألمانيا أقرب إلى روسيا باستمرار، وتحاول أذربيجان الموازنة بين تركيا وإيران وروسيا.

أن تعلن الولايات المتحدة عن موقف ما في بولندا، ذلك البلد الذي يضم 40 مليون نسمة، أمرٌ، وأن تحافظ على التزامها تجاه جورجيا - وهو بلد يضم 4 ملايين نسمة فحسب وأقل تطوراً بكثير من بولندا - أمرٌ أصعب بكثير. والهزيمة في جورجيا في صورة حكومة موالية لروسيا تطلب من المستشارين الروس والقوات الروسية الرحيل، لن تقضي على مكانة أمريكا في القوقاز فحسب، بل ستخلق كذلك أزمة ثقة في بولندا.

الوضع في القوقاز يمكن أن تعالجه تركيا فحسب. فبينما انتقلت حدود روسيا شمالاً؛ الأمر الذي كشف الدول التاريخية الثلاث، فقد ظلت حدود تركيا ثابتة. وبالنسبة للولايات المتحدة، لا يهم ترتيب روسيا مادام في مكان ما في القوقاز. والنتيجة المفجعة الوحيدة ستكون هي احتلال روسيا لتركيا، وهو أمر لا يمكن تصوره، أو التحالف الروسي التركي، وهو خطر أكثر واقعية.

تركيا وروسيا خصمان تاريخيان، وإمبراطوريتان على البحر الأسود، وتتافس كلتاهما في البلقان والقوقاز. والأمر الأكثر أهمية، هو أن الروس ينظرون إلى مضيق البوسفور على أنه بوابةهم المغلقة المؤدية إلى البحر المتوسط. وربما تتعاون تركيا كذلك مع الروس في العقد المقبل، وبشكل خاص في ظل الاعتماد على النفط الروسي، ولكن فكرة أنها سوف تنقل حدودها في القوقاز جنوباً أو تتخلى عن البوسفور بأي شكل كان أمر غير وارد. فتركيا بوجودها فحسب تخدم المصالح الأمريكية فيما يتعلق بروسيا. وبما أن الولايات المتحدة ليس لها مصلحة في التفاصيل الدقيقة الخاصة بمكان احتواء روسيا في القوقاز، ومادام قد تم احتواؤها، فإنه يترتب على ذلك ألا تكون هناك أهمية كبيرة للالتزام الأمريكي الواسع تجاه

جورجيا؛ فجورجيا عبء على الولايات المتحدة، ولا تحقق فائدة كبيرة لها. ولذلك ينبغي إنهاء الاستراتيجية الأمريكية في جورجيا، فهي من بقايا الفترة التي كان الأمريكيون يعتقدون فيها أن تلك المواقع خالية من المخاطر والتكاليف. وفي وقت تزايد فيه المخاطر والتكاليف، يجب على الولايات المتحدة إدارة انكشافها على نحو أكثر حرصاً، مع الاعتراف بأن جورجيا التزام أكثر منها ميزة.

في العقد المقبل، ستكون هناك فرصة لأن تُخرج الولايات المتحدة نفسها من جورجيا والقوقاز، دون إحداث ضرر نفسي لتحالفها الجديد. ولكن من الأرجح أن يخلق التحلي عن جورجيا شكاً نفسياً في بولندا وفي منطقة ما بين البحرين، وربما يجعل تلك البلدان تعيد النظر - بسرعة كبيرة - في موقفها، وسوف يزيد الانتظار حتى حدوث مواجهة بين بولندا وروسيا، على أساس حجم الضغط فحسب. ولهذا السبب، فإن إعادة التفكير في جورجيا بأسرع ما يمكن له أربع مزايا، أولاً: يمنح الولايات المتحدة الوقت لإعادة الاستقرار إلى نفسية بلدان ما بين البحرين. وثانياً: يوضح أن الولايات المتحدة تتخذ هذه الخطوة لأسباب خاصة بها، وليس بسبب الضغط الروسي، وثالثاً: يوضح للأتراك أنه يمكن للولايات المتحدة تغيير المواقف؛ مما يجعل تركيا التي تتمتع بقدر كبير من الثقة حذرة من الولايات المتحدة، والحذر مفيد أحياناً، ورابعاً: يمكن أن تطالب الولايات المتحدة بامتيازات روسية في وسط آسيا مقابل التراجع في القوقاز.

مادامت الولايات المتحدة مستمرة في القتال في أفغانستان، فإنها تحتاج إلى قدرة غير مقيدة على الوصول إلى البلدان القريبة، التي تعتمد عليها في الدعم اللوجستي، وتحتاج شركات النفط الأمريكية كذلك الوصول إلى مستودعات النفط والغاز في وسط آسيا. وعلى المدى الطويل، سوف ترحل الولايات المتحدة عن أفغانستان، وعلى المدى الطويل لا يمكن للولايات المتحدة أن تكون قوة مهيمنة في المنطقة؛ فالأمر ببساطة هو أن الجغرافيا تمنع الهيمنة الأمريكية، والروس يعرفون ذلك.

قدمت الولايات المتحدة وعودًا لجورجيا لن تفي بها الآن. ولكننا حين ننظر إلى الصورة الأوسع، تزيد هذه الخيانة قدرة الولايات المتحدة على الوفاء بالتزامات أخرى؛ فجورجيا ذات أهمية قليلة للولايات المتحدة، ولكنها ذات أهمية هائلة للروس، حيث تضمن أمن حدودهم الجنوبية. وسوف يكون الروس مستعدين لدفع ثمن ضخيم مقابل جورجيا، وينبغي أن يكون للاستعداد الأمريكي للخروج طواعية وثمان كبير قريبًا.

لن يكون هذا الثمن هو تزويد إيران بالأسلحة والانضمام إلى نظام عقوبات فعال؛ إذا فشل التودد الأمريكي لإيران. وفي حال نجاحه، يمكن أن تطالب الولايات المتحدة بأن توقف روسيا إرسال شحنات الأسلحة إلى المنطقة، وبشكل خاص إلى سوريا. وإذا تم ذلك في وقت واحد مع التودد إلى إيران، فسوف تجعل اتفاقية ما التودد أكثر أهمية؛ ذلك أنه سيعطي الولايات المتحدة قدرًا أكبر من المصداقية والخيارات الموسعة، وقد يُكسب وقتًا في بولندا كذلك لمراكمة المزايا الأمريكية هناك.

باعتبار جورجيا موطن قدم أمريكي في القوقاز، فهي أقل قدرة على البقاء من أذربيجان، التي لا تقع على حدود روسيا وإيران، وتحافظ بعلاقات وثيقة مع تركيا فحسب، بل إنها كذلك مصدر مهم للنفط. وبينما أرمنيا حليف روسي، وجورجيا تفتقر إلى الأساس الاقتصادي القوي، فإن لأذربيجان موارد اقتصادية، ويمكنها أن تكون منصة لانطلاق العمليات الأمريكية، وبذلك ستكون هناك حاجة في العقد المقبل لوجود استراتيجية للانسحاب واستراتيجية للتحالف، وكلتاها ستفلسح؛ أما الاستراتيجية الحالية فلن تفلسح.

إذا أقنعت الولايات المتحدة روسيا بأن انسحابها من جورجيا انتقائي، وعلى مراحل وفوق ذلك يمكن الرجوع فيه، فسيتمكنها انتزاع امتيازات لها معنى حقيقي، وهي تبرر وضعها الاستراتيجي. وإلى حد ما، هذه خدعة، ولكن الرئيس الجيد لا بد أن يكون قادرًا على الخداع، وكذلك على تبرير الخيانة.

## كيفية إدارة روسيا

لا تهدد روسيا وضع أمريكا العالمي، ولكن مجرد احتمال تعاونها مع أوروبا وبشكل خاص ألمانيا يفتح الطريق أمام أكبر تهديد في العقد، وهو التهديد طويل المدى، الذي لا بد من القضاء عليه في مهده. ولا تتوقع الولايات المتحدة من ألمانيا القيام بالدور الذي قامت به في الحرب الباردة، كمنطقة حدودية في مواجهة الإمبراطورية السوفيتية. وفي العقد المقبل، لا بد أن تعمل الولايات المتحدة على جعل بولندا على ما كانت عليه ألمانيا في الخمسينيات، رغم أن التهديد الروسي لن يكون بالأهمية نفسها أو القوة نفسها أو اللون الواحد نفسه، الذي كان عليه حينذاك. وفي الوقت نفسه الذي تستمر فيه المواجهة، سوف تدخل الولايات المتحدة وروسيا في تعاون اقتصادي وسياسي في أماكن أخرى، وليست هذه هي الحرب الباردة التي شهدناها والدك، فقد يتعاون البلدان إلى حد كبير في وسط آسيا أو حتى في القوقاز، بينما تواجه إحداهما الأخرى في بولندا وجبال الكربات.

على المدى البعيد، يعاني الروس من مشكلة، ولا يمكنهم الاحتفاظ بدور كبير في الشؤون الدولية. ويملاً اعتمادهم على السلع خزانهم، ولكنه لا يبيني اقتصادهم. وعدد سكانهم في انخفاض شديد، وبنيتهم الاقتصادية لا تتغير. ولكن في الجيوبوليتيكا ليس العقد مدى طويلاً، وانهيار الاتحاد السوفيتي فقط استغرق عقداً من الزمان ليتم. وبالنسبة لهذا العقد، سوف يظل تهديد روسيا وأوروبا قائماً، وسوف يشغل تفكير الرئيس، وهو يحاول استعادة توازن الاستراتيجية العالمية الأمريكية.



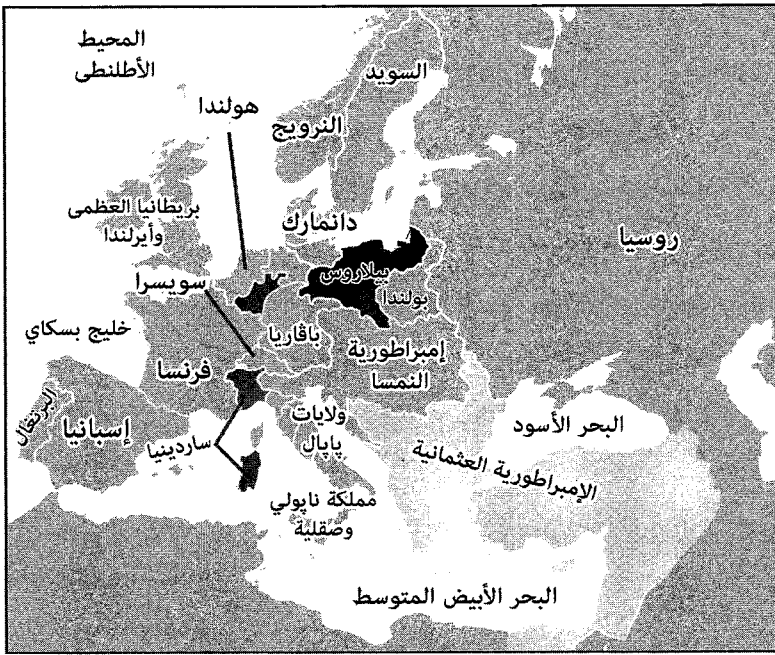
## عودة أوروبا إلى التاريخ

أوروبا المعاصرة بحثٌ عن الخروج من الجحيم، فقد كان النصف الأول من القرن العشرين مجزرة، من فيردن Verdun إلى أوشويتز Auschwitz<sup>(\*)</sup>، وعاشوا النصف الثاني من القرن تحت تهديد الحرب النووية الأمريكية السوفيتية المحتملة، التي تُخاض على أرض أوروبا. وبعد أن أجهدها الدم والفوضى، بدأت أوروبا تخيل العالم الذي كل الصراعات فيه اقتصادية ويديرها البيروقراطيون في بروكسل. بل إنهم بدأوا الحديث عن «نهاية التاريخ»؛ بمعنى أن كل الصراعات الهيكلية الخاصة بالأيديولوجيا تم حلها. وبالنسبة للعشرين عاما التي أعقبت انهيار الاتحاد السوفيتي، فقد بدا لهم أنهم وجدوا المدينة الفاضلة الخاصة بهم، ولكن المستقبل الآن أقل ضمانًا. وعند التطلع قُدماً إلى السنوات العشر المقبلة، لا أرى عودة إلى الخنادق ومعسكرات الاعتقال، لكنني أرى التوترات الجيوبوليتيكية على القارة تتزايد، ومعها جذور صراع أشد خطورة.

هناك مشكلتان تصنعان المأزق الأوروبي في العقد المقبل، الأولى: هي تحديد نوع العلاقة التي ستكون لأوروبا مع روسيا الناهضة، والثانية هي تحديد الدور الذي ستقوم به ألمانيا، ذلك الاقتصاد الأكثر ديناميكية في أوروبا. وسوف تظل مفارقة

(\*) فيردن مدينة شمال شرقي فرنسا، شهدت معركة في الحرب العالمية الأولى، صدت فيها القوات الفرنسية هجومًا ألمانيًا ضخمًا وفاق عدد الخسائر 700 ألف قتيل. أما أوشويتز فهي مدينة جنوب غربي بولندا، كانت موقع أحد معسكرات الاعتقال التي احتجز فيها النازيون اليهود إبان الحرب العالمية الثانية (المترجم).

روسيا - الاقتصاد الضعيف والقوة العسكرية الكبيرة - قائمة، وكذلك ديناميكية ألمانيا. ولا بد أن تحدد بقية دول أوروبا علاقتها مع هاتين القوتين كشرط لتحديد علاقتها مع بعضها البعض، وسوف يؤدي توتر هذه العملية إلى ظهور نوع مختلف جدًا من أوروبا في العقد المقبل، وسوف يمثل تحديًا كبيرًا للولايات المتحدة. ولفهم ما يجب عمله فيما يتعلق بسياسة الولايات المتحدة، علينا أولاً التفكير في التاريخ، الذي أوصلنا إلى هذه الفترة الحاسمة.



أوروبا في عام 1815 م

كانت أوروبا مكانًا دموياً باستمرار، فبعد عام 1492، عندما أذكت الاكتشافات الجديدة نار المنافسة على الإمبراطوريات البعيدة، شهدت القارة صراعاً من أجل السيطرة على العالم شمل إسبانيا والبرتغال وفرنسا وهولندا وبريطانيا، وهي تلك البلدان الواقعة على المحيط الأطلسي أو بحر الشمال. وبقيت النمسا والمجر

وروسيا خارج السباق على الإمبراطوريات الاستعمارية، بينما ظلت ألمانيا وإيطاليا تجمعات من الإمارات الإقطاعية المتشظية والضعيفة.

خلال القرنين التاليين، كانت أوروبا تضم أربعة أقاليم: أوروبا الأطلسية، وإسكندنافيا، وجنوب شرق أوروبا وروسيا، مع وجود حاجز في الوسط، يمتد من الدنمارك إلى صقلية. وكان هذا الحاجز إقليمًا ممزقًا إلى ممالك ودوقيات صغيرة، غير قادرة على الدفاع عن نفسها، ولكنها كانت توفر دون قصد درجة من الاستقرار لأوروبا. بعد ذلك، أعاد نابليون تحديد أوروبا. فعندما انطلق شرقًا إلى ألمانيا وجنوبًا إلى إيطاليا، حطم التوازن المعقد الذي كان قائمًا في هاتين الدولتين الناشئتين. والأسوأ، من وجهة نظره، أنه استحث بروسيا بتحفيظها على أن تصبح قوة أوروبية كبرى؛ فقد كان البروسيون - أكثر من أي قوم آخرين - هم من خططوا لهزيمة نابليون في معركة واترلو. وبعد نصف قرن، بعد حرب قصيرة وناجحة مع فرنسا في عام 1871، وحدت بروسيا بقية ألمانيا في دولة متماسكة، واكتمل توحيد إيطاليا بصورة عامة في الوقت نفسه تقريبًا.

فجأة كان هناك واقع جيوبوليتيكي جديد من بحر الشمال إلى البحر المتوسط. وكانت ألمانيا على وجه الخصوص مثيرة للمتعاب، بسبب القدرة الإنتاجية الضخمة والنمو السريع؛ وكذلك لأن جغرافيتها جعلتها غير آمنة بشكل كبير. ووضع التاريخ ألمانيا في شمال السهل الأوروبي الشمالي، وهو منطقة بها أنهار قليلة لتكون بمثابة دفاعات، ولكن بعض الأجزاء الأكثر إنتاجية من هذه الدولة القومية الجديدة كان على الضفة الأخرى من نهر الراين، حيث كانت غير محمية بالمرّة. وفي الغرب كانت فرنسا، وفي الشرق روسيا، وكلتاها تمتعت بالقرون التي كانت فيها ألمانيا متشظية وضعيفة، لكن الآن هناك ألمانيا جديدة مخيفة، هي من الناحية الاقتصادية البلد الأكثر ديناميكية في أوروبا، ولديها جيش قوي وإحساس قوي بعدم الأمان.

في المقابل، كانت ألمانيا ترعبها مخاوف جيرانها؛ فقد كان قادة ألمانيا يعلمون أن دولتهم لا يمكن أن تبقى إذا هاجمتها فرنسا وروسيا في وقت واحد. كما كانوا يعتقدون أن هذا الهجوم سيقع في وقت ما؛ لأنهم كانوا يدركون كم هم مخيفون لجيرانهم. وما كانت ألمانيا لتسمح لفرنسا وروسيا ببدء الحرب في الزمان والمكان اللذين تختارانهما، وبذلك وضعت ألمانيا - بدافع من خوفها - استراتيجية استباقية مقرونة بتحالفات.

كانت أوروبا في القرن العشرين تحددها تلك المخاوف، التي كانت معقولة ولا يمكن تجنبها لكون الجغرافيا هي ما تفرضها. ومن غير المستغرب أن بعض الجغرافيا قائل الآن. وقد حاول الأوروبيون إلغاء نتائج الجغرافيا بالقضاء على النزعة القومية، ولكن كما بدأنا نرى، فإنه ليس من السهل كبت النزعة القومية، ولا بد للجغرافيا من الحصول على ما تستحقه. وما زالت هذه القضايا تفرض نفسها في حالة ألمانيا، التي هي مرة أخرى، كما كان الحال في القرن الخامس عشر، المحرك الاقتصادي لأوروبا، وتشعر بشدة بعدم الأمان وتحيط بها دول ذات مصالح، يُحتمل أن تكون مختلفة. والسؤال المطروح هو ما إذا كان المنطق الجيوبوليتيكي الذي أدى إلى حروب الماضي سوف تكون له النتائج نفسها أم لا، أو إذا كان يمكن أن تجتاز أوروبا، في السنوات المقبلة، اختبار مجاملة الدول بعضها لبعض، والذي غالباً ما فشلت فيه من قبل أم لا.

سُنت الحريان العالميتان بناء على سيناريو واحد، فقد اجتاحت ألمانيا التي لا تشعر بالأمان، بسبب موقعها الجغرافي، فرنسا في هجوم خاطف. وكان الهدف في الحالتين هو هزيمة فرنسا بسرعة، ثم التعامل مع روسيا. وفي عام 1914، فشل الألمان في هزيمة فرنسا بسرعة، وحفر الجنود الخنادق، وأصبح الصراع حرباً موسعة؛ إذ وجد الألمان أنفسهم يحاربون فرنسا وبريطانيا وروسيا في وقت واحد في الشرق والغرب. وفي الوقت ذاته، الذي بدا فيه أن الثورة البلشفية ستنتقد ألمانيا بإخراج

روسيا من الحرب، أرسلت الولايات المتحدة جنودًا إلى أوروبا؛ حيث قامت بأول دور كبير لها على المسرح العالمي، ووقفت في وجه الطموحات الألمانية.

في عام 1940، نجحت ألمانيا في التغلب على الفرنسيين، لتكتشف فحسب أنها لم تنزل عاجزة عن هزيمة الاتحاد السوفيتي. وأحد أسباب ذلك، هو الفصل الثاني من ظهور أمريكا الدرامي؛ إذ قدمت الولايات المتحدة للسوفيت المساعدة، التي جعلتهم يبقون في الحرب؛ حتى تمكن الغزو الأنجلو أمريكي لفرنسا بعد ثلاث سنوات من المساعدة في تدمير ألمانيا للمرة الثانية خلال ربع قرن.

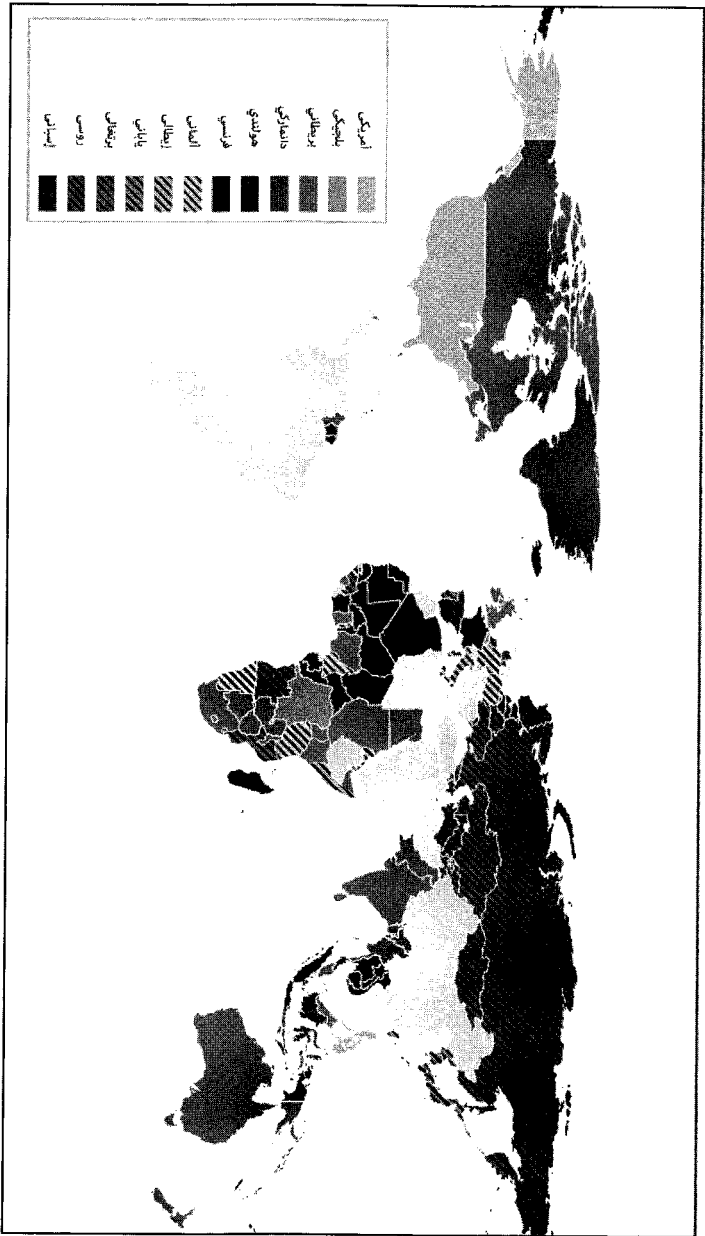
خرجت ألمانيا من الحرب العالمية الثانية وقد أذلتها الهزيمة، ولكن ببريتها غير المسبوقة أذلتها أخلاقًا كذلك؛ إذ ارتكبت فظائع لا علاقة لها بضروريات الجيوبوليتيكا، وقُسمت ألمانيا واحتلها المنتصرون.

دُمرت ألمانيا من الناحية المادية، ولكن أعمالها أدت إلى تدمير شيء أهم بكثير، فطوال خمسمائة عام كانت أوروبا تسيطر على العالم. وقبل بدء موجة التدمير الذاتي التي بدأت في أغسطس من عام 1914، كانت أوروبا تسيطر - بشكل مباشر - على مساحات شاسعة من آسيا وإفريقيا، وسيطرت بشكل غير مباشر على جزء كبير من بقية المعمورة، وسيطرت بلدان صغيرة كبلجيكا وهولندا على مساحات في اتساع الكونغو أو إندونيسيا الحالية.

دمرت الحروب التي أعقبت خلق ألمانيا هذه الإمبراطوريات. وبالإضافة إلى ذلك، تركت مذابح الحربين وتدمير أجيال من العمال ومبالغ غير عادية من رأس المال أوروبا منهكة؛ إذ حُلَّت إمبراطورياتها إلى شذرات، تحارب عليها البلدان الوحيددان، اللذان خرجا من الصراع بالقوة والرغبة في التنافس من أجل ما تبقى، وهما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. ومع ذلك، فقد سعيًا في المقام الأول وراء شذرات الإمبراطورية كنظام للتحالفات والعلاقات التجارية، وليس كهيمنة إمبراطورية رسمية.

انتقلت أوروبا من كونها مركزًا لإمبراطورية عالمية إلى كونها أرض المعركة المحتملة للحرب العالمية الثالثة. ففي قلب الحرب الباردة، كان هناك خوف من أن يستولي السوفيت، الذين ساروا إلى وسط ألمانيا، على بقية القارة. وبالنسبة لغرب أوروبا، كان الخطر واضحًا. وبالنسبة للولايات المتحدة، كان التهديد الأكبر هو أن القوة البشرية والموارد السوفيتية سوف يتم الجمع بينها وبين النزعة الصناعية والتكنولوجية الأوروبية؛ لخلق قوة من المحتمل أن تكون أكبر من الولايات المتحدة. وخوفًا من تهديد مصالحها، ركزت الولايات المتحدة على احتواء الاتحاد السوفيتي حول هامشه، بما في ذلك أوروبا.

تجمعت قضيتان لتعد المسرح للأحداث، التي ستقع على مدى السنوات العشر المقبلة: الأولى، كانت مسألة دور ألمانيا في أوروبا، التي كانت تثير الحروب منذ توحيدها في القرن التاسع عشر. والثانية هي انكماش القوة الأوروبية. ومع نهاية الستينيات، لم يكن بلد غربي واحد، ماعدا الاتحاد السوفيتي، عالميًا بحق؛ إذ تم اختزال بقية الدول إلى قوى إقليمية، في منطقة تضاءلت فيها قوتهم الجماعية إلى جانب قوة الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة. وإذا كان على ألمانيا العثور على مكان جديد في أوروبا، فقد كان على أوروبا أن تجد لها مكانًا جديدًا في العالم.



(خريطة) الامبراطوريات - 1900

كان للحريين العالميتين والتخفيض الكبير للمكانة الذي أعقبهما أثر نفسي عميق على أوروبا؛ إذ دخلت ألمانيا فترة من كراهية الذات، وبدا بقية أوروبا ممزقاً بين الحنين إلى الماضي حيث مستعمراتها المفقودة، والارتياح لأن أعباء الإمبراطورية - وحتى السيادة الحقيقية - رُفعت عنها. وإلى جانب الاستنزاف الأوروبي كان هناك الضعف الأوروبي، ولكن بعض مظاهر وضع القوة العظمى بقيت؛ حيث كانت ترمز إليها المقاعد الدائمة لبريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، غير أنه حتى امتلاك بعض تلك الدول للأسلحة النووية لم يعن الكثير، فقد عُلِّقَت أوروبا في ميدان القوة الذي خلقته القوتان العظميان.

كان رد ألمانيا على وضعها المتضائل في العالم المصغر هو الرد الأوروبي؛ حيث اعترفت ألمانيا بمشكلاتها الأساسية، باعتبارها مشكلة فاعل مستقل عالق بين قوى معادية. وكان التهديد السوفيتي على ما هو عليه. ومع ذلك فإنه إذا استطاعت ألمانيا إعادة تجديد علاقتها مع فرنسا، ومن خلال ذلك مع بقية أوروبا، فلن تكون عالقة في الوسط بعد ذلك، وكان الحل بالنسبة لألمانيا هو أن تصبح مندمجة مع بقية أوروبا، ومع فرنسا بشكل خاص.

كان الاندماج بالنسبة لأوروبا ككل خاتمة لا بد منها؛ حيث فرضه التهديد السوفيتي من ناحية، والضغط من الولايات المتحدة من ناحية أخرى. وكانت الاستراتيجية الأمريكية لمقاومة السوفيت هي تنظيم حلفائها الأوروبيين للدفاع عن أنفسهم إذا لزم الأمر، مع ضمان أمنها بالقوات المنشورة بالفعل في القارة. وكان هناك كذلك وعد بمزيد من القوات إن اندلعت الحرب، وفي النهاية وعد باستخدام الأسلحة النووية إذا كانت ضرورية بشكل مطلق. ومع ذلك ستبقى الأسلحة النووية تحت السيطرة الأمريكية، وسوف تنظَّم القوات التقليدية في شكل قيادة مشتركة داخل منظمة



معاهدة شمال الأطلسي (الناتو)، وخلقت تلك المنظمة قوة دفاع موحدة متعددة الأطراف لأوروبا، كانت تسيطر عليها الولايات المتحدة في واقع الأمر.

كانت للأمريكيين مصلحة مكتسبة في الرخاء الأوروبي، فمن خلال مشروع مارشال وغيره من الآليات، خلقت الولايات المتحدة بيئة مواتية، يتم فيها إحياء الاقتصاد الأوروبي، بينما تخلق كذلك أساسًا لقدرة عسكرية أوروبية. وكلما زادت من الرخاء المولّد من خلال التعاون مع الولايات المتحدة، أصبحت عضوية الناتو أكثر جاذبية. وكلما كان التناقض بين ظروف المعيشة في الكتلة السوفيتية وغرب أوروبا، كان احتمال أن يولّد هذا التناقض قلاقل أكبر في الشرق. وكانت الولايات المتحدة تؤمن أيديولوجيًا وعمليًا بحرية التجارة، ولكنها بالإضافة إلى ذلك كانت تريد أن تربي اندماجًا أكبر بين الاقتصادات الأوروبية، من أجلها هي، ولربط التحالف المحتمل أن يكون صعب المراس في بعضه.

كان الأمريكيون يرون الاتحاد الاقتصادي الأوروبي حصنًا للناتو، وكان الأوروبيون يرونه سيلاً ليس فقط للتعافي من الحرب، بل كذلك للعثور على مكان لأنفسهم في عالم، هبط بهم إلى مكانة القوى الإقليمية على أحسن تقدير. وكان لابد من العثور على القوة، إذا كان هناك ما يمكن استعادته منها، في نوع من الاتحاد الفيدرالي، وكانت تلك هي الطريقة الوحيدة للموازنة بين أوروبا والقوتين العظيمين. وكان ذلك الاتحاد الفيدرالي سيحل كذلك المشكلة الألمانية بدمج ألمانيا مع أوروبا؛ حيث يجعل الآلة الاقتصادية الألمانية غير العادية جزءًا من النظام الأوروبي. وإحدى القضايا الرئيسية في السنوات العشر المقبلة، هي ما إذا كانت الولايات المتحدة ستستمر في رؤية الاندماج الأوروبي بالطريقة نفسها أم لا.

في عام 1992، أنشأت معاهدة ماستريخت Maastricht الاتحاد الأوروبي، ولكن المفهوم كان في واقع الأمر حلمًا أوروبيًا قديمًا. تعود سوابقه إلى أوائل

خمسينيات القرن العشرين والجماعة الأوروبية للصلب والفحم، وهي كيان ذو مركز اهتمام ضيق تحدث قاده عنه، حتى في ذلك الحين، على أنه أساس لاتحاد فيدرالي أوروبي.

من المصادفة، ولكنها مصادفة شديدة الأهمية، أنه بينما وُلدت فكرة الاتحاد الأوروبي إبان الحرب العالمية، فقد خرج إلى النور ردًا على انتهاء الحرب الباردة. وفي الغرب، تراخى الوجود الكاسح للنااتو وضوابطه بشأن الدفاع والسياسة الخارجية بشكل كبير. وفي الشرق، وجد سقوط سور برلين وانهيار الاتحاد السوفيتي دولاً ذات سيادة تخرج من الظل، وتلك هي اللحظة التي استعادت فيها أوروبا السيادة، التي كانت قد فقدتها، ولكنها تكافح الآن لتحديدها.

كان متصورًا أن يخدم الاتحاد الأوروبي غرضين، الأول: هو اندماج غرب أوروبا في اتحاد فيدرالي محدود يحل مشكلة ألمانيا من خلال ربطها بفرنسا، وبالتالي يحد من تهديد الحرب. أما الثاني، فهو خلق وسيلة لإعادة دمج شرق أوروبا في الجماعة الأوروبية.. وتحول الاتحاد الأوروبي من إحدى مؤسسات الحرب الباردة، التي تخدم غرب أوروبا في سياق التوترات الشرقية الغربية إلى إحدى مؤسسات ما بعد الحرب الباردة، المقصود بها ربط أجزاء أوروبا ببعضها. وبالإضافة إلى ذلك، كان يُنظر إليه على أنه خطوة نحو إعادة أوروبا إلى موقعها السابق كقوة عالمية - فإن لم يكن ذلك كدول فرادي، فكجماعة مساوية للولايات المتحدة، وفي هذا الطموح وقع الاتحاد الأوروبي في مشكلات.

### مشكلة الاتحاد الأوروبي

في أواخر القرن الثامن عشر، عندما شكلت ثلاث عشرة مستعمرة بريطانية، حُرِّزَت حديثًا الكونغريدالية الأمريكية الشمالية، كانت حلاً عمليًا للقضايا الاقتصادية والسياسية. ولكن الولايات المتحدة الأمريكية - وهي ما باتت تُعرَف به

تلك الكونفيدرالية - كان يُنظر إليها على أنها مهمة أخلاقية تفرضها حقائق أعلى، بما في ذلك فكرة «أن البشر خلقوا متساوين، وأن خالقهم جابهم بحقوق معينة، لا يمكن نكرانها والتصرف بها». وكانت الولايات المتحدة راسخة كذلك في فكرة أنه مع فوائد المجتمع الليبرالي، تأتي مخاطر الالتزامات. وقال بينيامين فرانكلين Benjamin Franklin: «هؤلاء الذين يتخلون عن الحرية الأساسية؛ ليحصلوا على القليل من الأمان المؤقت لا يستحقون الحرية ولا الأمان.» وفي الولايات المتحدة - ومع وجود تلك الآراء في جوهرها - سارت أفكار الرفاهية المادية والغرض الأخلاقي جنبًا إلى جنب.

خُلقت الولايات المتحدة كذلك باعتبارها اتحادًا فيدراليًا، يضم ما يمكن تسميتها بالدول المستقلة، التي تشترك في اللغة المشتركة لكنها مختلفة بشكل كبير في نواح أخرى. وعندما أدت تلك الاختلافات إلى الانفصال، شنت معظم دول الولايات المتحدة حربًا للحفاظ على الاتحاد. وكان ذلك الاستعداد للتضحية سيصبح مستحيلًا، ما لم يُنظر إلى الولايات المتحدة على أنها مشروع أخلاقي مثلما هو عملي.

في الولايات المتحدة، أكدت الحرب الأهلية أن الحكومة الفيدرالية ذات سيادة معتبرة في الشؤون الداخلية، وذات سيادة مطلقة في الشؤون الخارجية. ووضع الانتصار الفيدرالي حدًا لادعاءات الدول الكونفيدرالية بأن السيادة مسئولية كل منها على حدة.

في المقابل، مازال النموذج الكونفيدرالي في الاتحاد الأوروبي قائمًا، والسيادة مسئولية كل دولة قومية على حدة. وحتى على مستوى افتراضيته الأكثر أساسية، يضع الاتحاد الأوروبي حدودًا صارمة على مطالباته بالسلطة وحقه في قيادة التضحية. وهذا الاتحاد مازال غريبًا؛ لعدم كون أوروبا بكاملها جزء منها - ويشترك

بعض أعضائه في العملة، ولا يشترك آخرون - وليست هناك سياسة دفاعية موحدة، ناهيك عن عدم وجود جيش أوروبي. وعلاوة على ذلك، كان لكل دولة من الدول المشاركة فيه تاريخها وهويتها الفريدة، وعلاقتها الفردية بفكرة التضحية، والسلطة العسكرية للعمل على المستوى الدولي، وهي جزء لا يمكن الاستغناء عنه من القوة العالمية، تحتفظ بها الدول المفردة كذلك. وما زال الاتحاد الأوروبي علاقة انتقائية، خُلقت من أجل مصلحة أعضائه، وإذا أصبح مثيراً للمشكلات، فإنه يمكن للدول الرحيب، فليس هناك حظر على الانسحاب.

الاتحاد الأوروبي في أساسه اتحاد اقتصادي، والاقتصاد، على عكس الدفاع، وسيلة لتعظيم الرخاء. ويعني هذا التقييد أن التضحية بالأمان من أجل غرض أسمى تناقض في اللغة؛ لأن الاتحاد الأوروبي جمع بين الأمان والرفاهية كغرض أخلاقي. والأمر ببساطة هو أنه ليس هناك أساس لذلك النوع من الخطاب الملهم، الذي يمكن أن يحث أي شخص على القتال والموت للحفاظ على مثل الاتحاد الأوروبي.

بينما نتطلع إلى العقد المقبل، يتداعى التوازن الدقيق الذي وُضِع لاحتواء ألمانيا؛ ليس لأن ألمانيا تريد أن يتداعى، وإنما لأن الظروف تغيرت تغيراً كبيراً.

بدأ الانحلال أثناء أزمة 2008 المالية. وكانت ألمانيا واحدة من القوى الاقتصادية الرئيسية منذ ستينيات القرن العشرين، عندما خرج القسم الغربي بنجاح من دمار الحرب العالمية الثانية. وأجبر انهيار الشيوعية في عام 1989 الغرب المزدهر على استيعاب الشرق الفقير، وهو عبء اقتصادي. ومع أن ذلك كان مؤلماً، فقد استوعبت ألمانيا على مدار العقد التالي بقيتها الفقيرة، وظلت البلد الأقوى في أوروبا، راضية بترتيبات الاتحاد الأوروبي الاقتصادية والسياسية. وكانت ألمانيا قوته الرائدة، ولكنها مع ذلك واحدة من كثير، ولم تكن تطمح في مزيد من الهيمنة، ولم تكن بحاجة إليها.

عندما وقعت أزمة 2008 المالية عانت ألمانيا، كما عانى الآخرون، ولكن اقتصادها كان قويًا بما يكفي لامتصاص الصدمة. وكانت الموجة الأولى من الدمار أشد ما تكون في شرق أوروبا، وهي المنطقة التي خرجت منذ فترة قريبة فحسب من الهيمنة السوفيتية، وكان النظام المصرفي هناك قد أنشأته أو استحوذت عليه بلدان غرب أوروبا، وبشكل خاص بنوك من النمسا والسويد وإيطاليا، بل وكذلك البنوك الألمانية. وفي أحد البلدان، وهو جمهورية التشيك، كان 96 بالمائة من النظام المصرفي مملوكًا لبلدان أوروبية أخرى، وبما أن الاتحاد الأوروبي قَبِل الكثير من تلك البلدان - جمهورية التشيك وبولندا وسلوفاكيا والمجر ورومانيا وبلغاريا، وكذلك دول البلطيق القومية لاتفيا وليتوانيا وإستونيا - فقد بدا أنه ليس هناك ما يدعو للانزعاج من ذلك. ولكن رغم كون بلدان شرق أوروبا تلك جزءا من الاتحاد الأوروبي، فقد كانت لا تزال لها عملاتها الخاصة، ولم تكن تلك العملات أضعف من اليورو فحسب، بل كانت أسعار فائدها أعلى.

ناقشنا في فصل سابق المشكلة التي خلقها انتعاش الإسكان وقروض الرهن العقاري في شرق أوروبا المقومّة باليورو والفرنك السويسري، بل والين. وكانت البنوك في بلدان الاتحاد الأوروبي الأخرى تمتلك الكثير من بنوك شرق أوروبا، التي كانت تستخدم اليورو، وكانت تحت الإشراف المالي للبنك المركزي الأوروبي والنظام المصرفي للاتحاد الأوروبي، وكانت بلدان شرق أوروبا في الوضع الغريب الخاص بعدم امتلاك أنظمتها المصرفية المحلية. وبدلا من أن تشرف عليها حكوماتها، كانت بنوكها تخضع للإشراف الأجنبي وإشراف الاتحاد الأوروبي. والدولة التي لا تسيطر على نظامها المالي، تكون قد قطعت شوطًا طويلاً نحو فقدان سيادتها، ويشير هذا إلى مشكلة الاتحاد الأوروبي المستقبلية. واحتفظ الأعضاء الأقوى، كألمانيا، بسيادتها وعززتها أثناء الأزمة المالية، بينما شهدت الدول الأضعف تدني سيادتها، وسوف يتعين معالجة هذا الاختلال في العقد المقبل.

بما أن الاتحاد الأوروبي كان كيانًا اقتصاديًا واحدًا، وبما أن بلدان أوروبا الشرقية كانت لديها موارد قليلة وسيطرة محدودة على بنوكها، كان التوقع هو أن تنفذ دول الاتحاد الأصح البنوك الشرقية. ولم يكن ذلك هو التوقع في الشرق فحسب، بل كذلك في البلدان الأوروبية التي كانت تستثمر هناك. وكان لدى ألمانيا أقوى اقتصاد ونظام مصرفي، ولذلك كان متوقعًا أن تأخذ بزمام المبادرة.

أبت ألمانيا أن تفعل ذلك، فهي لم تكن ترغب في تولي المسؤولية المالية الخاصة بإنقاذ شرق أوروبا؛ إذ كان ذلك ينطوي على مبالغ كبيرة جدًا من المال، ولم تكن ألمانيا تريد تحمل العبء. وبدلاً من ذلك، شجع الألمان بلدان شرق أوروبا على الذهاب إلى صندوق النقد الدولي من أجل الإنقاذ، وكان ذلك سيقبل العبء الألماني والأوروبي، ويخفف مسئولياتهما بإسهامات من الأمريكيين وفاعلي الخير الآخر في صندوق النقد الدولي.

أكد هذا الأثر الجانبي لأزمة 2008 مدى بُعد أوروبا عن كونها بلدًا واحدًا، كما أنه لفت الانتباه إلى حقيقة أن ألمانيا هي متخذ القرار الرئيسي في أوروبا. وإذا كانت ألمانيا تريد إنقاذًا، فسوف يكون لدى أوروبا إنقاذ.

لكن التداعيات الاقتصادية لم تنته عند هذا الحد؛ إذ أصاب الركود أوروبا، وهبطت متحصلات الضرائب، وزاد الاقتراض من أجل الخدمات الاجتماعية. وعلقت بعض البلدان في ضائقة مالية ضخمة، وضاعف الضغط السياسي المحلي مشكلاتها. وبالنسبة لهؤلاء الذين كانوا يستخدمون اليورو، لم يكن هناك وجود للأدوات الأساسية لإدارة مشكلة كهذه؛ فعلى سبيل المثال، يؤدي تدني سعر العملة إلى جعل الواردات أعلى سعرًا والصادرات أرخص سعرًا وأكثر قدرة على المنافسة. ويؤثر ذلك على الجانب الاستهلاكي، ولكنه يساعد على خلق فرص العمل وزيادة عائدات الضرائب. وضبط قيمة عملتك هو الآلية الجوهرية لإدارة الركود، لكن بلدانًا كالإيونان لا تسيطر على عملتها؛ بل إنها لم تكن لها عملتها الخاصة بها. وحول

عدم تماثل القوى الاتحاد الأوروبي إلى أرض معركة؛ فلم تكن ألمانيا تريد تحمل المسؤولية عن إنقاذ البلدان الأضعف، ولكن البلدان الأضعف لم تكن لها سيطرة تامة على اقتصادياتها، ولذلك لم يمكنها التحكم في مصيرها. والسؤال المطروح، هو: هل يمكن للاتحاد الأوروبي - خاصة في ضوء التاريخ الأوروبي - الصمود أمام هذه القوة المركزية أم لا؟ وتكمن الإجابة إلى حد ما فيما تختار ألمانيا عمله.

يخدم اليورو مجموعة من البلدان في مراحل مختلفة من التنمية، وفي أجزاء مختلفة من دائرة الأعمال، والعملية التي تساعد بلداً ما لا تساعد آخر بالضرورة. ومن الواضح أن قلق البنك المركزي الأوروبي على حالة الاقتصاد الألماني كان أكثر من قلقه على اقتصاد دولة أصغر، وهو ما يؤثر على قرارات التقييم.

منذ تأسيس الاتحاد الأوروبي في عام 1993، وهو يتمتع بفترة غير مسبقة من الرخاء، وغطى ذلك الرخاء لبعض الوقت على كل القضايا، التي لم تُحل حلاً كاملاً، ومقياس أي كيان سياسي، هو كيف يعالج الشدائد. ومع أزمة 2008 ظهرت كل المشكلات التي لم تُحل، وظهرت معها النزعة القومية التي كان الاتحاد الفيدرالي يعتزم دفنها. وفي بعض الأحيان، أصبحت تلك النزعة القومية قوية إلى حد كبير من الناحية السياسية؛ إذ عارض أغلبية الألمان تقديم العون لليونان، وفضل أغلب اليونانيين الإفلاس على الخضوع لشروط الاتحاد الأوروبي، التي كانوا يرونها شروطاً ألمانية. وهذا الوضع بعد أن خفت المسألة المالية، غير أنه في عام 2010 كان هناك ما يدل على وجود قلاقل، تحت سطح الهدوء الأوروبي.

لن يختفي الاتحاد الأوروبي، ومن المؤكد أن هذا لن يحدث خلال السنوات العشر المقبلة؛ فقد تأسس باعتباره منطقة تجارة حرة، وسوف يظل كذلك. ولكنه لن يتطور إلى دولة متعددة الجنسيات، يمكن أن تكون لاعباً كبيراً على المسرح العالمي. وليس هناك اهتمام مشترك كاف بين الدول بالمشاركة في قوة عسكرية، ودون القوة العسكرية، لن يكون لأوروبا ما أسميته «القوة العميقة»، وعاش

الأوروبيون صراعًا بين السيادة القومية والحل الأوروبي للأزمة الاقتصادية. ويمنع التحدي الذي يمثله التمويل للوحدة الأوروبية التكامل العسكري على نحو أشد. وفي النهاية، هناك بيروقراطية أوروبية، غير أنه لا توجد دولة أوروبية.

من ناحية أخرى، ليس واضحًا بالمرّة أن كثيرًا من القيود الاقتصادية للاتحاد الأوروبي الآن سوف تبقى بعد هذا العقد. وكما اكتشفت البلدان الصغيرة، تلك القيود أضرت بها بشدة، فهي تُدار بنظام تسيطر عليه البلدان الكبيرة. ويرى مواطنو البلدان الكبيرة أن العمل لبناء علاقات سياسية لمساعدة بلدان أخرى يقع في مشكلات أمر يصعب تسويقه، ويعد تخفيض سعر العملة طريقة أسهل بكثير لجعل الصادرات أرخص والواردات أعلى، وبالتالي تحسّن الاقتصاد. ولكن مرة أخرى لم تأخذ ألمانيا - على سبيل المثال - بهذا الخيار؛ لأنه ليست لديها العملة الخاصة بها.

في السنوات المقبلة القريبة جدًا، لا شك في أن القيود الاقتصادية الخطيرة ستبقى، وأن الضائقة الاقتصادية لن تكون غير مسبوقّة أو غير قابلة للإدارة، ولكنها ستظل عاملاً فعالاً، حيث تمثل مشكلات مختلفة لدول مختلفة، ومن المؤكد أن الضغط الاقتصادي سوف يبدق أسافين بين تلك الدول، ويشير أسئلة خطيرة خاصة بمنافع العملة الموحدة. وليس لديّ شك في أن الاتحاد الأوروبي سيبقى، ولكنني سأفاجأ بشدة إذا لم يتسرب بعض أعضاء منطقة اليورو، بينما يضع آخرون محاذير على درجة تخليهم عن السيطرة لجهاز بروكسل البيروقراطي.

### ظهور ألمانيا مجددًا

وُلدت ألمانيا من الحرب مع فرنسا، وسُحقت مرتين بعد غزو فرنسا. وكان قرارها بعد الحرب هو التحالف الوثيق مع فرنسا من الناحية الاقتصادية، وأن تصبح محور أوروبا الجديد. لكن بينما يبدو أن دافع ألمانيا العسكري قد طُرِح جاتبًا، فما زالت مشكلة ديناميكية القوة قائمة. إذا وقفت ألمانيا وفرنسا معًا فستظلان مركز الجاذبية



الأوروبية، وإذا تصادمت ألمانيا وفرنسا فسوف يمزق التصادم نسيج أوروبا، تاركًا الدول المشاركة في الاتحاد الفيدرالي تنفصل وتحالف في شكل ما جديد.

أستبعد بريطانيا من هذه المسألة لأسباب تاريخية وجغرافية واقتصادية؛ فالقنال الإنجليزي سمح لبريطانيا بالاستمرار في التراجع، ومشاركة أوروبا على نحو انتقائي. ولكن بخلاف هذا الواقع الجغرافي، من الأرمادا الإسبانية إلى الحرب الخاطفة الألمانية، كانت بريطانيا ترى قوى القارة على أنها تهديد لبقائها واختارت الابتعاد، وكان جزء من دافعها إلى الإمبراطورية، هو رغبتها في تجنب أن تكون معتمدة بالكامل على أوروبا. فالمعتاد أن بريطانيا لم تقم سورًا في مواجهة أوروبا (رغم أنها فعلت ذلك في حالات متطرفة)، ولكنها حدّت من المشاركة، وجعلت الجغرافيا ذلك ممكنًا.

بينما لا تزال أوروبا ككل أكبر شريك تجاري لبريطانيا، فإن أكبر هدف لصادراتها بين الدول هو الولايات المتحدة. وعندما تُجر بريطانيا بعمق إلى داخل أوروبا، يكون السبب في الأغلب هو الحرب أكثر منه الاقتصاد. والاستراتيجية البريطانية باستمرار هي الحيلولة دون أوروبا الموحدة باعتبارها تهديدًا لأمنها القومي، وأحد الأسباب المهمة لذلك، هو أن فكرة أوروبا الخاضعة لهيمنة فرنسا وألمانيا لا يمكن التغاضي عنها، وترى بريطانيا أن كونها شريكًا صغيرًا في مثل هذا التحالف، ليس بالأمر الحكيم أو الضروري.

رغم هذه الأسباب كلها، فإن الاستراتيجية البريطانية الرئيسية لا تتوافق مع الالتزام المفتوح نحو أوروبا. وبدلاً من ذلك كان لا بد للاستراتيجية البريطانية من التحالف مع الولايات المتحدة؛ فلم تكن لبريطانيا قط القدرة على التصدي للسوفيت بمفردها، ولا على إدارة الأحداث في أوروبا، ويسمح لها تحالفها مع الولايات المتحدة، بالتأثير على القوة الإمبراطورية الكبيرة بتكلفة قليلة نسبيًا. وعلى امتداد العقد المقبل،

ستواصل بريطانيا حماية نفسها من القيام باختيار خطأ على كل الجوانب، مع الميل إلى الكتلة والثقافة الأنجلو ساكسونيتين، كما يقول الفرنسيون والألمان.

للتحالف الفرنسي الألماني مشكلاته، فهناك مجالان للتوتر الآن بين فرنسا وألمانيا، أولهما اقتصادي؛ ذلك أن ألمانيا أكثر تنظيمًا بكثير من فرنسا من الناحية المالية، وهو ما يعني أن البلدين نادرًا ما يتوافقان، عندما يتعلق الأمر بالتعاون المالي. ويدور التوتر الثاني حول سياسة الدفاع؛ إذ كان الفرنسيون - وبشكل خاص الديجوليون - ينظرون إلى أوروبا الموحدة على أنها ضد الولايات المتحدة، وكان ذلك سيطلب التكامل الدفاعي الأوروبي، الذي كان سيعني حتمًا قوة تحت السيطرة الفرنكو ألمانية.

بطبيعة الحال، يقدر الألمان ما يحققه الاندماج مع فرنسا وأوروبا، غير أنه ليست لديهم الرغبة في تحمل مشكلات فرنسا الاقتصادية أو خلق قوة عسكرية أوروبية، تتسبب في معاداة الأمريكيين؛ فهم ببساطة لا يريدون الأعباء المحتملة للأولى ولا مخاطر الثانية.

المشكلة الأخرى التي تواجه الألمان هي أنه مرة أخرى - إلى حد كبير - بسبب الأزمة المالية والحرب الأمريكية في العراق، تددت علاقتهم مع الولايات المتحدة؛ فألمانيا دولة مصدرة، والولايات المتحدة عميل غير أوروبي كبير. وخلقت إدارة أوباما حزمة حوافز لإخراج الاقتصاد الأمريكي من الركود، ولكن الألمان لم يتخذوا تلك الإجراءات. وبدلاً من ذلك، اعتمدوا على الحافز الأمريكي لتوليد الطلب على المنتجات الألمانية، وكان ذلك يعني أن تستدين الولايات المتحدة لإنعاش اقتصادها، بينما تحصل ألمانيا على معاملة خاصة (على الأقل من وجهة النظر الأمريكية). كان الألمان يريدون كذلك مشاركة الأمريكيين في إنقاذ البلدان الأوروبية، من خلال صندوق النقد الدولي. ولكن بالإضافة إلى هذه الخلافات الاقتصادية الكبيرة بين البلدين، كان هناك صدع جيوبوليتيكي حقيقي؛ فالأمريكيون

- كما رأينا - لديهم قضايا مهمة مع الروس، ولكن الألمان لم يكونوا يريدون شيئاً له علاقة بجهود الولايات المتحدة لاحتوائهم. وبخلاف كراهية الألمان لتشجيع حرب باردة أخرى، فهم يعتمدون - كما رأينا من قبل - على روسيا في جزء كبير من حاجاتهم من الطاقة، والواقع أن حاجتهم إلى الطاقة الروسية أكثر من حاجة الروس إلى المال الألماني.

سوف تتفاوت علاقات أمريكا مع روسيا وألمانيا بشكل كبير على مدى العقد المقبل، ولكننا يمكن أن نتوقع تغيراً أساسياً. ومهما كانت الأعمال المقصود بها خلق جو معين، فإن وجود روسيا المتنامي في شرق شبه الجزيرة الأوروبية يهدد المصالح الأمريكية. وبالمثل، فكلما ازدادت رؤية الولايات المتحدة لمصالحها العالمية - وهي تجرّها إلى حروب في أماكن كأفغانستان - ازدادت رغبة ألمانيا في النأي بنفسها عن حليف الحرب الباردة. وكلما عظم المستوى الأمريكي للاهتمام بروسيا، عظمت المسافة بين الألمان والولايات المتحدة. ولن تبقى العلاقة التي دامت خمسة وستين عاماً منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، دون تغيير بعد العقد المقبل.

يمكن أن تتحمل ألمانيا أعباء النأي بنفسها عن أمريكا، من ناحية لأن مشكلتها التقليدية الخاصة بالضغط عليها من الجانبين اختفت، كما أن لها علاقات وثيقة وودية مع فرنسا. ولم تعد لألمانيا حدود مع روسيا، ولكن لديها الآن بولندا كحاجز. وتحتاج ألمانيا إلى الغاز الطبيعي الموجود بوفرة لدى الروس، ويحتاج الروس إلى التكنولوجيا والخبرة، وكلتاهما متوافرة لدى ألمانيا.

بالإضافة إلى ذلك، سرعان ما سيؤثر تدني عدد السكان الكبير على مصانع ألمانيا، حيث يخلق نقص العمالة، مقروناً بالسكان الشائخين، تركيبة لكارثة اقتصادية. وحتى مع تدني عدد سكانها، سيظل لدى روسيا فائض عمالة، يمكن أن تستفيد منه ألمانيا، باستيراد العمال الروس ونقل الإنتاج إلى روسيا. والطريقة

الوحيدة لمجابهة تدني عدد السكان تتم من خلال تشجيع الهجرة، ولكن الهجرة والهوية القومية في أوروبا على طرفي نقيض.

إذا كانت ألمانيا لا تريد جلب عمال لمصانعها؛ فهي بإمكانها نقل مصانعها إلى حيث يوجد العمال. وتعاني روسيا كذلك من تدني عدد السكان، ولكن بما أن لديها ذلك الاقتصاد الضعيف الذي يركز على السلع الأولية، فلا يزال لديها فائض من القوة العاملة، وهو ما يعني الأشخاص غير الموظفين أو العاطلين. وإذا أراد الروس الانتقال إلى ما بعد تصدير الطاقة والحبوب وخلق صناعة حديثة، فهم بحاجة إلى التكنولوجيا ورأس المال، وكلاهما لدى الألمان؛ فألمانيا تريد العمال لتشغيل مصانعها، وتريد الموارد الطبيعية لتغذية اقتصادها. والأعمال الألمانية من الأحجام كافة مشاركة بالفعل بقوة في روسيا؛ حيث تضيف إلى الواقع الجديد لعلاقة موسكو - برلين، التي ستكون عما قريب محور أوروبا الأكثر ديناميكية، إن لم يكن أهم من العلاقات الأخرى، التي لكل من البلدين.

مع دعم فرنسا لألمانيا - تربطها في ذلك مصالحها - سوف تقترب روسيا أكثر من القلب الأوروبي؛ لتطلق بذلك ديناميكية جديدة في الاتحاد الأوروبي، والتوتر بين القلب والهامش سائد بالفعل. والقلب هو ألمانيا وفرنسا وهولندا وبلجيكا، وهو قلب أوروبا الصناعي المتقدم، أما الهامش فهو أيرلندا وإسبانيا والبرتغال وإيطاليا واليونان وشرق أوروبا. وبما أن هذه البلدان الصغيرة مازالت في مراحل مبكرة من التطور الاقتصادي، فإنها بحاجة إلى سياسات مالية فضفاضة على نحو أكبر من جاراتها المتقدمة، وسوف تكون لديها تآرجحات اقتصادية أوسع، ولذلك ستكون أكثر عرضة لعدم الاستقرار.

في الوقت نفسه حمت فرنسا نفسها من الاختيار الخطأ؛ حيث اتخذت لنفسها وضع القوة الأوروبية الشمالية والقوة المتوسطة، إلى حد التفكير في تشكيل اتحاد

متوسطي، إلى جانب الاتحاد الأوروبي. وطبقاً للتفكير الفرنسي، كان ذلك سيشمل بلداناً أوروبية وبلداناً من شمال إفريقيا وإسرائيل وتركيا. وتلك فكرة جذابة من الناحية المجردة، ولكن في الواقع، فإن الفرق في المراحل التنموية بين ليبيا وإيطاليا من العمق بحيث يتضاءل إلى جانبه الفرق بين ألمانيا واليونان. ومع ذلك، يمكننا توقع أن تعمل فرنسا بطريقة غير منتظمة وسطحية في البحر المتوسط، محاولةً التعويض عن كونها شريكاً أصغر لألمانيا في الشمال.

لا تشعر ألمانيا بارتياح في الدور، الذي فُرض عليها أثناء أزمات 2008-2010. وبينما يعيد الألمان النظر في اهتمامهم بهامش الاتحاد الأوروبي، تثير البلدان الهامشية أسئلة بشأن الفائدة الاقتصادية للاندماج مع ألمانيا، فهم مستاءون لفقدهم السيطرة على مجالات واسعة من اقتصاداتهم، كالقطاع المصرفي؛ خاصةً عندما يكون متوقعاً منهم الوقوف بمفردهم حين وقوع أزمة ما. ذلك أنه متوقع ممن هم على الهامش الحفاظ على اقتصاداتهم، من خلال سياسة نقدية مصممة من أجل المركز، تزيد من الضغط على الجانبين.

بريطانيا كذلك غير مرتاحة لهذا التحالف؛ إذ استطاعت المملكة المتحدة العيش مع محور باريس-برلين مادامت الولايات المتحدة تواجهه؛ حيث كانت بريطانيا نقطة التوازن في المنتصف. ولكن ضم موسكو يضع مزيداً من الضغط على البر الرئيسي الأوروبي؛ حيث يمثل تحدياً للمصالح التجارية والاستراتيجية الأوروبية.

بمرور سنوات القرن المقبل، سوف تعود ألمانيا إلى مكانها على السهل الأوروبي الشمالي، ولكنها ستتحالف هذه المرة مع عدويها التاريخيين، فرنسا وروسيا، وسوف تقترب بريطانيا أكثر من الولايات المتحدة، وسوف تُترك بلدان على الهامش القديم؛ لتصرف بطريقتها خلال التعقيدات، ولكن الهامش الجديد

- شرق أوروبا. هو الذي سيكون مركز النشاط، وسوف يستمر الاتحاد الأوروبي في أداء وظيفته، غير أنه سيكون من الصعب على الاتحاد الأوروبي أن يكون المبدأ المنظم لأوروبا، عندما تكون هناك قوى مركزية كثيرة.

### الاستراتيجية الأمريكية

هناك سياسة غريبة بعض الشيء توقفت منذ انهيار الشيوعية؛ حيث لم تضع الولايات المتحدة استراتيجية تجاه أوروبا، وسوف يتغير ذلك عما قريب. فخلال التسعينيات، كانت الولايات المتحدة تفترض فحسب أن هناك تشابهاً في المصالح مع الأوروبيين، ولكن ذلك الافتراض لم يُختبر قط أثناء الظروف الحميدة في ذلك العقد، ولم يُنظر قط إلى ظهور الاتحاد الأوروبي على أنه تحدٍ للولايات المتحدة، بل مجرد تطور طبيعي لا يمثل مشكلة. ومع أن الولايات المتحدة تقدمت ذات مرة بحكم العادة، فسوف يتطلب العقد المقبل إعادة تفكير وتخطيط مُركّزين.

عندما أحدث الرد الأمريكي على الحادي عشر من سبتمبر أول صدع كبير مع الكتلة الفرنسية الألمانية، كشف كذلك عن انقسام خطير داخل أوروبا؛ إذ كانت الولايات المتحدة ترغب في مساعدة عسكرية في أفغانستان أكثر مباشرة مما حصلت عليها، وكانت تريد على أقل تقدير تغطية سياسية للحرب في العراق - وبناء على التصويت في الناتو - كتقديم الدعم لتركيا، إن هي أيدت الولايات المتحدة في العراق - أيدت الأغلبية العظمى من الدول الولايات المتحدة ضمناً، بينما صوتت أربعة بلدان ضد التأييد، وهي: ألمانيا وفرنسا وبلجيكا ولوكسمبورج، وينبغي ملاحظة أن أي إجراء يقوم به الناتو يتطلب الإجماع. ورغم ذلك، أرسل الكثير من الدول التي أيدت القرار على أقل تقدير قوات رمزية إلى العراق، بينما قدمت بريطانيا إسهامات كبيرة.

جغرافياً هذا التأييد مهمة جداً، فقلب أوروبا - باستثناء هولندا - كان يعارض الولايات المتحدة. وأيد معظم الهامش - بلدان ما بين البحرين بشكل خاص -

الولايات المتحدة، في البداية على الأقل. وكثير من البلدان التي وقفت مع الولايات المتحدة، فعلت ذلك؛ ليس لأنها تقر بحق الإجراء الأمريكي، بل بسبب القلق من الكتلة الفرنسية الألمانية؛ فهي لم ترد أن تكون مجرد أعضاء تابعين في أوروبا، وكانت تنظر إلى الولايات المتحدة على أنها ثقل موازن مهم لفرنسا وألمانيا. وكانت هناك مواجهة لافتة للانتباه إلى حد كبير، بين الرئيس الفرنسي جاك شيراك Jacques Chirac، وممثلي بلدان ما بين البحرين، الذين وقَّعوا خطابا يرفضون فيه الموقف الفرنسي الألماني، ويؤيدون الولايات المتحدة، وعندما ظهر الخطاب، لامهم شيراك لأنهم «رُبِّوا تربية سيئة» حسب تعبيره. في تلك اللحظة كان الصدع بين هذه البلدان وفرنسا - وألمانيا في هذا الخصوص - على نحو غير مسبوق من الاتساع، وأظن أن الانقسام داخل أوروبا بشأن الحرب في العراق سوف يصبح إطارًا قاسيًا للخلافات الاستراتيجية في أوروبا، وسوف يعيد تحديد التحالفات الأمريكية في العقد المقبل.

تفاوتت التوتر بين الولايات المتحدة وفرنسا، لكن حتى بعد تولي أوباما الرئاسة، كان الألمان مصرين على موضع المواجهة مع الإسلام. لم تعجبهم إدارة أوباما للصراع، مثلما كانت تعجبهم إدارة بوش له، ولم يكونوا يرغبون في أن يُجروا إليه. وكما ينبغي أن يكون واضحًا الآن، فإن كلاً من الولايات المتحدة والكتلة الفرنسية الألمانية لهما مصالح مختلفة فحسب.

من الصعب تخيل الأمريكيين يقنعون الألمان بالعودة إلى علاقتهم السابقة مع الولايات المتحدة، أو أن تقنع ألمانيا الولايات المتحدة بأن تكون غير مبالية بصعود روسيا. وفي العشر سنوات المقبلة، قد يكون الحل المثالي من وجهة النظر الأمريكية، هو فصم عُرى الكتلة الفرنسية الألمانية. والواقع أنه ينبغي على الرئيس أن يعمل على إحداث صدع، أوسع ما يمكن بين البلدين. ومع ذلك، فلن يكون هذا أساسًا لاستراتيجيته؛ فليس لدى الولايات المتحدة الكثير الذي تقدمه لفرنسا، بينما توفر العلاقة مع ألمانيا لذلك البلد المزايا الأمنية والاقتصادية.

لابد للولايات المتحدة من التركيز على الحد من قوة المركز، بينما تفعل في الوقت نفسه كل ما يمكنها؛ للحيلولة دون تحقيق الوفاق الروسي الألماني. بعبارة أخرى، لابد من تطبيق مبدأ توازن القوى على أوروبا، تمامًا كما فعلت بريطانيا. ومن المفارقة أن المرحلة الأولى من الاستراتيجية الأمريكية، لابد أن تكون للحفاظ على علاقتها الحالية مع بريطانيا؛ فالبلدان يشتركان في مصالح اقتصادية، وكلاهما دولة بحرية تعتمد على المحيط الأطلسي. والموقع الجغرافي الذي أفاد بريطانيا، يمكن أن تستغله الولايات المتحدة الآن مع فوائد مستمرة لبريطانيا. وفي المقابل، توفر بريطانيا للولايات المتحدة حليفًا داخل الاتحاد الأوروبي، وكذلك منصة للتأثير على البلدان الأخرى على الهامش الأطلسي، من إسكندنافيا إلى ليبيريا، التي لبريطانيا فيها علاقات تجارية وسياسية - وسوف يشمل ذلك السويد والدنمارك وهولندا - وفي العقد المقبل، سوف تتوافق الاستراتيجيات القومية الأمريكية والبريطانية إلى حد كبير.

يتطلب إحداث أمريكا للتوازن في أوروبا كذلك أن تنمى الولايات المتحدة علاقاتها مع تركيا. وكما قلنا في الفصل الذي تناول الشرق الأوسط، يمنح التحالف القوي مع تركيا الولايات المتحدة نفوذًا في البحر الأسود، ويواجه أية استراتيجية متوسطة، قد ترغب فرنسا في وضعها. وسيكون أحد الأمور التي سوف تساعد هذا التحالف سياسة الهجرة الأوروبية؛ فسوف يجعل خوف الأوروبيين من الهجرة التركية، يحولون دون دخول أوروبا الاتحاد الأوروبي. ومن المؤكد أن تركيا ستصبح أقوى على مدى العقد المقبل، ولكنها ليست مستعدة للعمل بمفردها. والمنطقة المحيطة بها غير مستقرة، وسوف تجبرها تهديدات روسيا في القوقاز على الحفاظ على علاقات قوية مع الولايات المتحدة، ولن يعجب ذلك الأتراك تمامًا، غير أنه ليست أمامهم اختيارات كثيرة.



مهما كان ما تفعله الولايات المتحدة على هامش أوروبا، فما زالت مسألة ألمانيا هي الأهم، وسوف تهيمن على السياسة الخارجية لدول كثيرة في السنوات المقبلة. ولا بد للولايات المتحدة من تحاشي الظهور باعتبارها معادية لألمانيا أو غير مبالية بأوروبا، ولا يتعين عليها ترك الناتو، بغض النظر عن عدم فاعليته، ولكن يتعين عليها معاملة كل المؤسسات متعددة الأطراف وكل البلدان الأوروبية باحترام، كما لو كانت قوى مهمة. بعبارة أخرى، يجب على الولايات المتحدة خلق إحساس بالاستواء في أوروبا؛ لثلا تدفع بالهامش إلى المعسكر الفرنسي الألماني. وإذا دفعت الولايات المتحدة بالعلاقة في اتجاه الأزمة في وقت قريب جدًا، فإنها لن تفعل سوى تقوية يد ألمانيا في المنطقة. وسوف ينضج التوتر الكامن بين ألمانيا (أو فرنسا وألمانيا) والبلدان الأوروبية الأخرى من تلقاء نفسه، فلا حاجة إلى أن تدفع الولايات المتحدة الأمور دفعا؛ لأن ألمانيا هي التي تتعرض للضغط وليس الأمريكيين.

في الوقت نفسه، لا بد للولايات المتحدة - في هذا السياق الودي نسبيًا - من اتخاذ الخطوات الضرورية؛ للتعامل مع إمكانية حدوث وفاق روسي ألماني. ولكي يتحقق ذلك، على الرئيس التحرك بأن يبدأ بدفع العلاقات الثنائية مع بعض البلدان الأوروبية قُدماً، كما يتعين عليه عمل ذلك خارج إطار العلاقات متعددة الأطراف المعتادة. والنموذج الذي يمكن اتباعه هو بريطانيا، وهي جزء من الناتو والاتحاد الأوروبي، وإن كانت تربطها علاقة قوية بالولايات المتحدة بمفردها. وعلى مدى السنوات القليلة المقبلة، يجب على الولايات المتحدة تأكيد العلاقات الثنائية مع البلدان الواقعة على هامش أوروبا، وتتعدى الناتو، بينما تظهر ولاءها له بالكلام فحسب.

يمكن أن يكون اختيار العلاقات عشوائيًا إلى حد ما؛ حيث تعمل كما يحدث في الغالب على تعزيز صورة الولايات المتحدة باعتبارها طيبة وراضية بما تفعله ألمانيا. ولكن بعض البلدان مهمة بحق للمصالح الأمريكية؛ فالدنمارك تتحكم في وصول روسيا إلى المحيط الأطلسي، بينما تتيح للولايات المتحدة الوصول إلى

البلطيق، وإيطاليا بلد لديه اقتصاد كبير وموقع استراتيجي في منطقة البحر المتوسط. ويمكن للترويج - الأقرب باستمرار إلى بريطانيا من بقية أوروبا - أن توفر مزايا استراتيجية للولايات المتحدة، من قواعد عسكرية إلى الشراكات المحتملة في صناعة النفط النرويجية. وبالطبع توفر العلاقة مع تركيا للولايات المتحدة خيارات في البلقان والقوقاز ووسط آسيا وإيران والعالم العربي، ولكن لا ينبغي للولايات المتحدة التركيز على تلك البلدان المهمة في حد ذاتها؛ بل ينبغي عليها الوصول إلى مجموعة من البلدان، قد يكون بعضها عبئاً أكثر منه مزية، وينظر الألمان والفرنسيون إلى الولايات المتحدة على أنها غير متقدمة. وينبغي أن تستفيد الولايات المتحدة من ذلك - في العقد المقبل - باتخاذ خطوات مقصودة إلى جانب بعض الخطوات التي تبدو عشوائية، ولا بد من عمل كل ما يدفع الألمان وربما الفرنسيين إلى الشعور بأن الولايات المتحدة، ليس لها هدف محدد مما تقوم به.

ليست هذه العلاقات غايات في حد ذاتها - إنها غطاء لجائزة بولندا وبلدان ما بين البحرين (سلوفاكيا والمجر ورومانيا) المهمة التي توفر جغرافيا احتواء روسيا - وفي هذا المقام لا بد أن تكون الاستراتيجية الأمريكية مرة أخرى خادعة بوعي؛ إذ يجب أن تدخل في روع أوروبا إحساساً بأن الولايات المتحدة تقترب فحسب من تلك البلدان التي تريد أن يُقْتَرَبَ منها، وأن من بين هذه البلدان بولندا وبقية دول ما بين البحرين، ودول البلطيق. وأية إشارة إلى أن الولايات المتحدة تسعى بشكل مباشر إلى التصدي لألمانيا، أو خلق أزمة مع روسيا سوف يولد فعلاً مضاداً داخل أوروبا يمكن أن يعيد الهامش إلى ذراعي الوسط، ولا تريد أوروبا - ككل - أن تُجْرَ إلى مواجهة. وفي الوقت نفسه، سوف تكون هناك الرغبة في الحصول على بديل قوي لمحمور باريس - برلين - موسكو، وإذا كان الثمن منخفضاً، فسوف يُجْتَذَب الهامش إلى الولايات المتحدة - أو بريطانيا - كبديل. ومهما كان الثمن؛ لا بد للولايات المتحدة من منع التجمع الجغرافي لروسيا وشبه الجزيرة الأوروبية؛ لأن ذلك سيخلق قوة تجد الولايات المتحدة صعوبة كبيرة في احتوائها.

ستكون المصادقية النقطة الأساسية، خاصة بالنسبة لبولندا، ولا بد للولايات المتحدة من تقديم حجة مزدوجة للتغلب على مخاوف بولندا التاريخية. أولاً: لا بد أن تقول إن البولنديين ضلوا أنفسهم بتصديقهم أن الفرنسيين والبريطانيين، كان يمكنهم الدفاع عنهم ضد الألمان في عام 1939؛ الأمر الذي كان مستحيلًا من الناحية الجغرافية، وثانيًا: لا بد للولايات المتحدة من تقديم الإشعار غير المقبول بأن البولنديين لم يقاوموا الفترة طويلة، تكفي لأن يأتي أحد لمساعدتهم - إذ انهاروا في الأسبوع الأول من الغزو الألماني، الذي استغرق ستة أسابيع فقط ليكتمل. ولا يمكن مساعدة بولندا وبقيّة بلدان الاتحاد الأوروبي، إذا لم يمكنها مساعدة أنفسها. هذا هو التحدي الذي يواجهه الرئيس الأمريكي، ونحن ندخل العقد المقبل؛ فلا بد عليه أن يتحرك في الاتجاه الخطأ، كي لا يسبب قلقًا في موسكو أو برلين، يمكن أن يجعل هاتين الحكومتين تزيدان كثافة علاقتهما، قبل أن تخلق الولايات المتحدة هيكلًا للحد منها. وفي الوقت نفسه، لا بد للولايات المتحدة من طمأنة بولندا والبلدان الأخرى بجدية التزامها بمصالحها، وهذه الأمور يمكن أن تتم، ولكن النجاح سوف يتطلب عدم التقدم المدرس الخاص بشخص كرونالد ريجان، وعدم الأمانة العابرة الخاص بشخص مثل فرانكلين روزفلت، فلا بد أن يبدو الرئيس على غير قدر كبير من الذكاء، ولكنه قادر على الكذب بطريقة مقنعة. ولن يكون هدف هذا التظاهر هو الحلفاء المستقبليون وإنما الأعداء المحتملون؛ فالولايات المتحدة بحاجة لكسب الوقت.

سوف تكون الاستراتيجية الأمريكية المثالية هي تقديم المساعدات لدعم تطوير القوة العسكرية المحلية، التي يمكن أن تردع المهاجمين، أو التي يمكن أن تدوم لوقت طويل يكفي لمواصلة المساعدات. ويمكن أن تخلق المساعدات الأمريكية كذلك بيئة النمو الاقتصادي، وبناء الاقتصاد وبتاحة القدرة على الوصول إلى الأسواق الأمريكية. وخلال الحرب الباردة، كانت هذه هي الطريقة، التي أغرت

بها الولايات المتحدة ألمانيا الغربية واليابان وكوريا الجنوبية، وغيرها، بالمخاطرة بمقاومة الشيوعيين.

ومهما كانت الحجة التي ستقدمها الولايات المتحدة لبولندا في العقد المقبل، فسوف يتوقف استعداد البولنديين على خدمة الأهداف الأمريكية على ثلاثة أمور، الأول: هو الدعم الاقتصادي والفني الأمريكي لبناء القوة العسكرية البولندية الوطنية، والثاني هو نقل التكنولوجيا العسكرية لبناء صناعة محلية، دعمًا للدفاع القومي وللاستخدام المدني، والثالث هو توفير القوات الأمريكية الكافية في بولندا؛ لإقناع البولنديين أن النصيب الأمريكي في بلدهم يمكن الوثوق به بشكل تام.

لابد لهذه العلاقة من التركيز على بولندا، غير أنه لابد - كذلك - من مدها إلى بلدان ما بين البحرين الأخرى، وبخاصة المجر ورومانيا، فكلتاها مهمة للدفاع عن خط الكريات، ويمكن لكتليهما أن تستجيب بفاعلية لأنواع الحوافز، التي تتيحها الولايات المتحدة لهما. وتمثل دول البلطيق حقيبة منفصلة فهي لا يمكن الدفاع عنها، ولكن إذا أمكن تجنب الحرب، فمن الممكن أن تكون دول البلطيق بمثابة عظمة، توضع في حلق الروس.

في هذه المناورة كلها المهم هو البدء بتجنب الحرب، وثانيًا تحجيم العلاقة بين روسيا وألمانيا، التي يمكن أن تخلق في العقود المقبلة قوى تتحدى الهيمنة الأمريكية. وقد تكون نوايا الروس والألمان الحالية أكثر تواضعًا من ذلك بكثير، ولكن لابد للرئيس الأمريكي من التركيز، ليس على ما يفكر فيه الآخرون الآن، ولكن على ما سوف يفكرون فيه لاحقًا، عندما تتغير الظروف.

## الفصل العاشر

### مواجهة غرب الباسيفيكي

غرب الباسيفيكي منطقة لا تمثل أزمة في الوقت الراهن للولايات المتحدة، ولكن هذا الوضع السعيد لن يمضي إلى ما لا نهاية؛ إذ كانت آسيا إحدى مناطق الاضطرابات الرئيسية في العالم في القرن المنصرم، والهدوء النسبي خلال الثلاثين عامًا الماضية استثناء وليس القاعدة، وهذا هو السبب في أن مهمة الرئيس في العقد المقبل، ستكون الاستعداد بعناية وتروٍّ للأزمات الحتمية، التي تلوح في الأفق.

هناك قدر كبير من الاهتمام بشأن توازن القوى الهندي الصيني، ولكن الهند والصين يفصل بينهما جدار - جبال الهيمالايا - يجعل الصراع المستدام والتجارة البرية كبيرة الحجم مستحيلين في واقع الأمر. وتفاعلهما اقتصادي وعن طريق البحر - والمعارضة الأساسية والقديمة في هذه المنطقة هي في واقع الأمر تلك التي بين الصين واليابان، الدولتين المتنافستين على احتلال مركز ثاني أكبر اقتصاد في العالم - وهناك قدر كبير من المنافسة الاقتصادية، ويؤثر الاقتصاد على توازن القوى فقط، عندما تسمح الجغرافيا بأنواع أخرى من المنافسة. وتوجد القوى الإقليمية الأخرى كافة - بما في ذلك كوريا الجنوبية، وهي قوة اقتصادية كبيرة في حد ذاتها - داخل إطار التوازن الصيني الياباني الأمريكي، وسوف تحدد الولايات المتحدة سياستها خلال العقد المقبل في ضوء ذلك التوازن.

من الصعب تخيل دولتين أكثر اختلافًا من الصين واليابان، وقد جعلهما الاحتكاك الاقتصادي معاديتين إحداهما للأخرى منذ حربهما الحديثة الأولى في عام 1895،

عندما هزمت اليابان الأسطول البحري الصيني؛ فاليابان قوة صناعية بحرية تعتمد بالكامل على استيراد المواد الخام في بقائها. ومنذ اللحظة التي بدأت فيها اليابان التصنيع، وهي بحاجة إلى أسواق الصين وموادها الخام وعمالتها، وكانت تريد ذلك كله بأفضل الشروط. وكان الصينيون يريدون رأس المال والخبرة الأجنبية، ولكنهم لم يُردوا قط الوقوع تحت سيطرة اليابان. وهذا الاعتماد المتبادل الحذر بين الاقتصاديين، قادهما إلى حرب وحشية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين، احتلت خلالها اليابان قدرًا كبيرًا من البر الرئيسي الصيني. ولم تتعافَ العلاقة قط بين هذين البلدين من تلك الحرب، وظل العداء وعدم الثقة تحت السيطرة إلى حد ما، من خلال وجود الولايات المتحدة.

أثناء الحرب الباردة، حافظت الولايات المتحدة على علاقات معقدة مع كل من البلدين؛ إذ كانت بحاجة إلى قوة اليابان الصناعية لدعم الولايات المتحدة في الحرب الكورية وما بعدها، وكذلك جغرافيتها لمنع الأسطول السوفيتي من دخول الباسيفيكي - وقدمت اليابان الاثنيتين طوعًا - وفي المقابل منحت الولايات المتحدة اليابان حق وصول منتجاتها الصناعية إلى الأسواق الأمريكية، ولم تطلب من اليابان تقديم تعهد عسكري للمشروعات الأمريكية في أنحاء العالم.

خلال الفترة نفسها، أمضت الولايات المتحدة ثلاثين عامًا في عداء واضح للصين الشيوعية. وبعد ذلك، عندما شتت قوتها العالمية في فيتنام، وكانت بحاجة إلى موازنة ثقل السوفيت، تحولت إلى الصين. وقبلت الصين، التي كانت تخشى الاتحاد السوفيتي، وتنتظر إلى الولايات المتحدة على أنها ضمان لأمنها، ذلك العرض.

لم تكن أي من الصين أو اليابان مرتاحة لعلاقة أمريكا مع الأخرى، ولكن الولايات المتحدة أدارت التلث بلا صعوبة، لأن كل بلد كانت لديه قضايا أكثر أهمية يأخذها في اعتباره؛ إذ كانت هموم الصين جيوبوليتيكية؛ وهي إلى حد كبير الخوف من الاتحاد السوفيتي. وكانت هموم اليابان اقتصادية؛ وهي انتعاشها الاقتصادي في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وكان كل بلد يحتاج الولايات المتحدة لأسبابه الخاصة به.

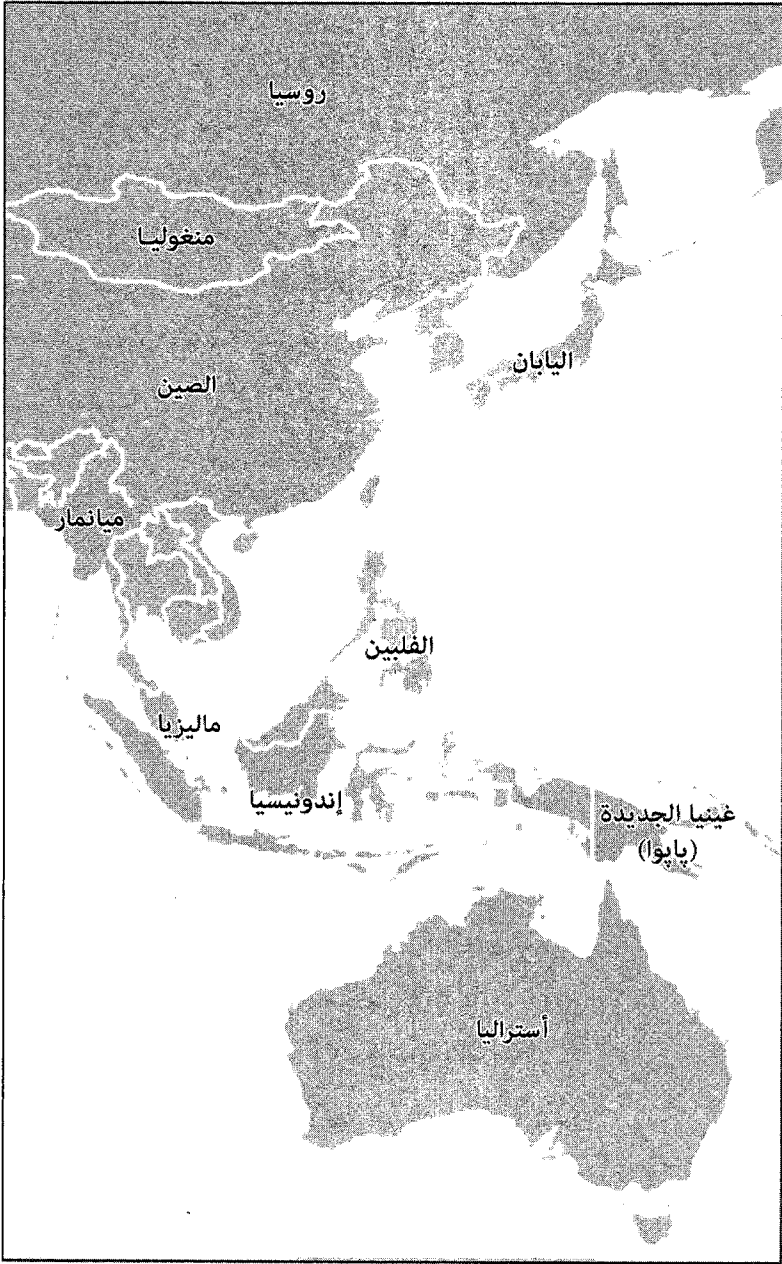
عندما انتهت الحرب الباردة تغير طابع التوازن؛ إذ توقفت فترة نمو اليابان السريع بينما تبنت الصين، التي تعيش انتعاشاً مطوّلاً، تركيز اليابان على الاقتصاد - وظلت اليابان الاقتصاد الأكبر، لكن الصين أصبحت الأكثر ديناميكية - وهو الوضع الذي رأته الولايات المتحدة على أنه مُرضٍ إلى حد كبير. ولأن الولايات المتحدة ركزت على القضايا الاقتصادية في المقام الأول، فهي لم تنظر إلى أي البلدين من وجهة نظر جيوبوليتيكية بحق. وبصورة عامة، كانت آسيا موضع اهتمام وزارة الخزانة ومديري العلاقات التجارية، ولم تكن موضع اهتمام وزارة الدفاع.

يكون استقرار غرب الباسيفيكي وجنوب شرق آسيا منذ الثمانينيات أوضح ما يكون، عندما نأخذ في اعتبارنا أنه من الهند الصينية إلى إندونيسيا والصين وأماكن أخرى، كانت آسيا تبدو المنطقة الأقل استقراراً ووعداً في العالم، ومرجعاً للحرب والحروب الأهلية، وعدم الاستقرار العام خلال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي.

لا بد أن يعي الرئيس أن آسيا مكان متغير بشكل غير عادي، وفي السنوات العشر المقبلة سوف نرى - بلا شك - بعض الأمور التي تُعتبر الآن ثابتة لا تتغير، وهي تتغير بالكامل. على سبيل المثال، سوف يواجه الاقتصاد الصيني اختبارات صعبة، بينما تبدأ اليابان التعافي من إخفاقاتها. وكان الإجماع في السبعينيات من القرن الماضي على أن آسيا عنيفة وغير مستقرة بطبعها؛ أما الإجماع الآن فهو على أنها مسالمة ومستقرة. ويشير هذان التقديران المتناقضان تحديات في تحديد ما يبدو عليه آسيا على مدى العقد المقبل، وكيف ستعبر الإرادة الديناميكية الصينية اليابانية عن نفسها، وما ينبغي أن تكون عليه السياسة الأمريكية تجاه المنطقة.

### الصين واليابان وغرب الباسيفيكي

عندما نتحدث عن شرق آسيا، فنحن في واقع الأمر نتحدث عن سلسلة جزر تمتد من جزر الكوريل إلى إندونيسيا، وكذلك علاقاتها ببعضها ومع البر الرئيسي، وعندما نتحدث عن البر الرئيسي، فإننا نتحدث عن الصين، أكثر من أي شيء آخر.



(خريطة) غرب الباسيفيكي

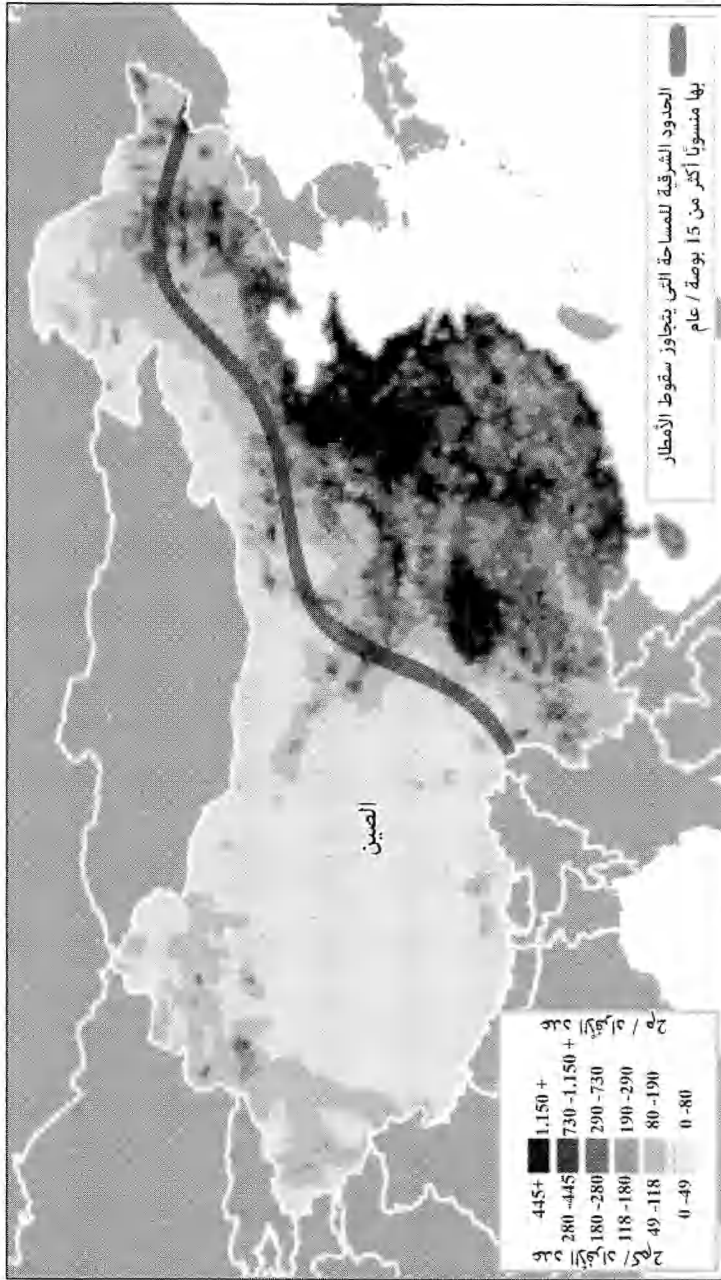


تمتد الصين لمسافة ألفين وخمسمائة ميل في الداخل، وتشترك في الحدود مع أربعة بلدان. وبينما تواجه الصين محيطًا على أحد الجانبين، ربما يكون من المفيد التفكير فيها باعتبارها جزيرة ضيقة بعض الشيء، تتعلق بحافة الباسيفيكي، وتزلها من الشمال والغرب والجنوب حواجز لا يمكن اختراقها.

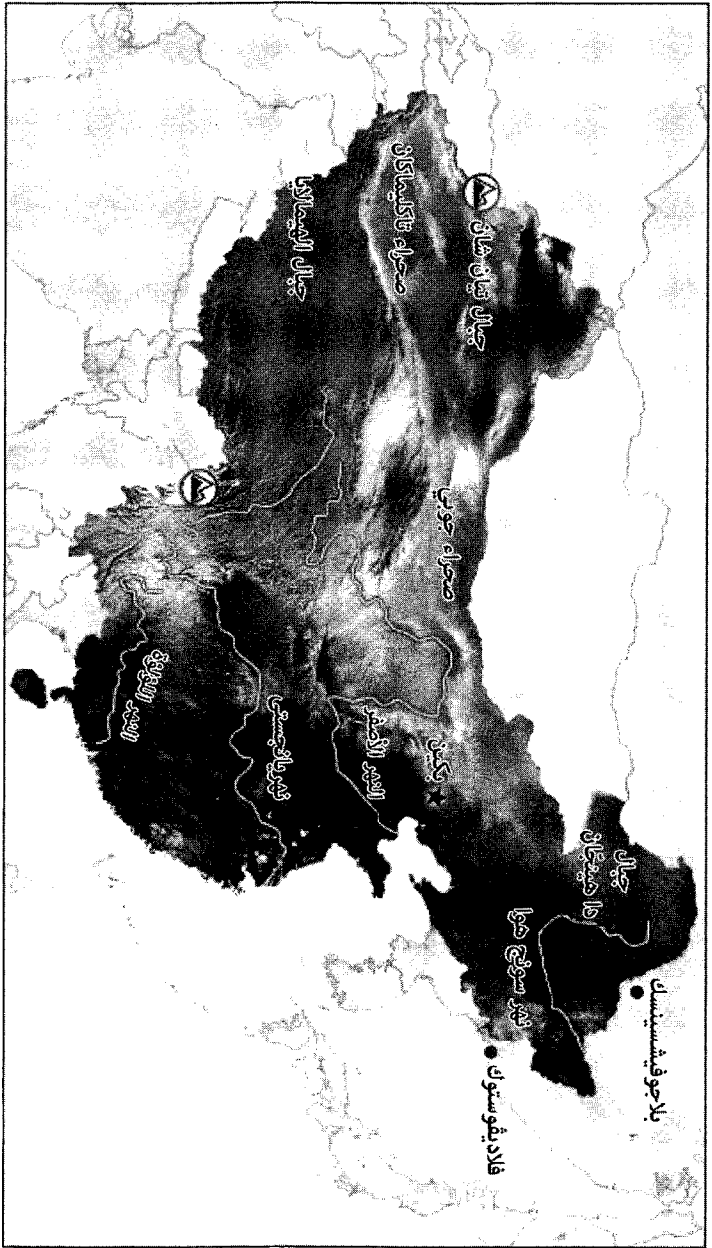
تصلح صورة الجزيرة عندما نعتبر أن الغالبية العظمى من سكان الصين تعيش في الجزء الشرقي من البلاد داخل حوالي أربعمائة ميل من الساحل؛ فالمنطقة الواقعة بين الخط الذي يقسم الخريطة (سقوط المطر والكثافة السكانية)، والساحل هي المنطقة، التي يزيد فيها معدل سقوط المطر على خمس عشرة بوصة في العام - وهو الحد الأدنى اللازم لإعالة أعداد كبيرة من البشر. والجزء الغربي من الصين قاحل، لا يمكنه إعالة عدد كبير من السكان؛ لذا يحتفظ أكثر من مليار نسمة في منطقة تساوي تقريبًا مساحة ذلك الجزء من الولايات المتحدة الواقع شرق المسيسيبي. وتلك هي صين الهان، أرض الصينيين العرقيين.

غرب الصين شبه صحراء شاسعة وخالية، وهذه الصحراء تثبتت الصين في حدودها الجغرافية، حيث توجد جبالا الهيمالايا في الجنوب الغربي، وهي قابلة للحد الأدنى من اجتيازها، ولكن من المؤكد ليس بواسطة الجيوش ولا التجارة. وتقع سيبريا في الشمال، وهي أرض يباب ليس فيها نقل بين الشمال والجنوب، وتقع الأدغال والتلال الوعرة في الجنوب؛ حيث تمتد من ميانمار إلى الباسيفيكي لتعزل الصين عن جنوب شرق آسيا.

من الناحية الجغرافية، اليابان مكان أبسط بكثير، يتكون من أربع جزر رئيسية وسلسلة من الجزر الأصغر تجعلها بالضرورة دولة بحرية؛ فاليابان خالية بالمرّة تقريبًا من المعادن، التي تحتاجها الصناعة؛ مما يعني باستمرار استيراد الموارد؛ خاصة النفط. ويؤكد هذا أن اليابان لها مصالح ونقاط ضعف عالمية. وعلى عكس الصين، التي تستورد المواد الخام، ولكن لها إمدادات خاصة بها تكفيها للبقاء إذا دعت الضرورة، بينما ستتهار اليابان خلال شهور إذا انتقصت وارداتها.



(خريطة) سقوط الأمطار والكثافة السكانية في الصين



(خريطة) تضاريس الصين

بسبب عزلتها من ناحية، ولأنها تحولت إلى التصنيع بسرعة في القرن التاسع عشر، تجنبت اليابان التجربة التي عانت منها الصين على أيدي الأوروبيين. وأمد الأوروبيون اليابان بالمساعدات في صورة تكنولوجيا صناعية وتدريب عسكري؛ إذ نظم البريطانيون الأسطول الياباني، ونظم الألماني الجيش، وبالتالي تطورت اليابان بسرعة لتصبح قوة يمكنها تحدي الأوروبيين، والواقع أنها هزمت روسيا في عام 1905.

كانت الدولة التي أفرعها ظهور اليابان المفاجئ أكثر ما يكون هي القوة الصناعية الوحيدة الأخرى في الباسيفيكي؛ أي الولايات المتحدة. وقبل الحرب العالمية الثانية، كان اليابانيون يستوردون المواد الخام في الغالب من جنوب شرق آسيا وجزر الهند الشرقية. ولضمان الوصول إلى تلك الواردات، كانت اليابان بحاجة إلى قوة بحرية كبيرة؛ خاصة الأسطول البحري. ونظرت الولايات المتحدة، التي أصبحت قوة بحرية مهمة في أواخر القرن التاسع عشر فحسب، إلى تطور اليابان البحري على أنه أمر قد يطرد الولايات المتحدة من الباسيفيكي. ولمجرد تحول اليابان إلى قوة صناعية وبحرية، بدأ أنها تهدد أمن الولايات المتحدة. وتوسيع الولايات المتحدة لقوتها البحرية للدفاع عن نفسها ضد اليابان، هددت أمن اليابان.

كانت نتيجة الترهيب المتبادل هذا الحرب العالمية الثانية في الباسيفيكي، وهزمت الولايات المتحدة اليابان، ليس بسبب القنبلة الذرية ونجاح استراتيجيتها الخاصة بالقفز على الجزر فحسب، بل لأن غواصاتها قطعت خطوط إمداداتها من المواد الخام القادمة من الجنوب، وشلّت قدرة اليابان على شن الحرب. وواصلت اليابان المقاومة، ولكن ما إن أحكمت حملة الغواصات الأمريكية الخناق على إمداداتها؛ حتى أصبح وضعها ميؤوساً منه.

وهكذا فالإيابان محصورة في علاقة تبعية مع الولايات المتحدة، وهي لا يمكنها تحمّل التحالف مع الولايات المتحدة، دون تكوين قوة عسكرية قادرة على ضمان خطوط إمداداتها، ولكن هذا مشروع أكثر طموحاً وتكلفة مما تريد اليابان تجربته

خلال السنوات العشر المقبلة. ورغم ذلك، فإن عدم الشعور بالأمان الفطري لدى اليابان بسبب تبعية الواردات - إلى جانب عدم توقع ما يمكن أن تفعله الولايات المتحدة - سوف يدفعها بالتأكيد إلى أن تصبح أقل اعتمادًا وانكشافًا مما كانت عليه. وكشأن اليابان، لا يمكن للصينيين الابتعاد عن الأمريكيين؛ فهم يعتمدون على الولايات المتحدة في تدفق المواد الخام (رغم أن السفن الصينية تمر كذلك عبر مياه تسيطر عليها الولايات المتحدة) أقل من اعتمادهم عليها باعتبارها مستهلكًا للمنتجات الصناعية الصينية. وكما كان حال اليابان قبلها، أصبحت الصين مُصدِّراً ضخماً إلى الولايات المتحدة، إلى حد اعتبار أن قدرة الولايات المتحدة واستعدادها للشراء أحد أسس الاقتصاد الصيني إلى جانب السوق الأوروبية، ولا بد أن يكون لدى الصين قدرة على الوصول إلى كليهما. وعلى مدى السنوات العشر المقبلة، سوف تركز الصين - شأنها شأن اليابان - على الاستعداد لما تراه السيناريو الأسوأ في مواجهة شريكها التجاري الأمريكي، وهو القرار السياسي بالحد من قدرة الصين على الوصول إلى السوق الأمريكية.

وفيما يتعلق باستمرار التوازن الإقليمي، لن يحدث ذلك بسبب العلاقات اليابانية الصينية، وإنما بسبب العلاقة بين كل دولة آسيوية والولايات المتحدة. وعندما تصبح الصين واليابان أشد قوة، سوف تلاحظ كل منهما حتمًا صعود الأخرى وتصبح معنيةً به.

لأن الأمور الأخرى كلها متساوية، فسوف تظل علاقة اليابان مع الولايات المتحدة مستقرة، لكن مع الصين سوف تكون القصة مختلفة؛ فالصادرات تحدث استقرار اقتصاد الصين ومجتمعها، ولكن هذا لا يكفي لوجود مشتريين؛ ذلك أنه من الضروري كذلك أن يبنى بيع الصادرات الرخاء الصيني. وإذا كان التصدير إلى الولايات المتحدة لم يعد يتناسب مع المتطلبات الصينية، فإن اهتمام الصين بالعلاقة مع الولايات المتحدة سوف يتغير، وسوف تبعد الصين عن التبعية. وعلى مدى العقد المقبل، عندما تصبح الصين فاعلاً اقتصادياً حرّاً، وإن لم تكن فاعلاً اقتصادياً

على قدر كبير من الرخاء باستمرار، فسوف يتعين على اليابان جعل الولايات المتحدة تضمن مصالحها في مواجهة الصين أو تغير موقفها كذلك. وهكذا، فإن التوازن القائم على العلاقة الأمريكية الصينية يعتمد - في واقع الأمر - على كيفية عمل الاقتصاد الصيني على امتداد السنوات العديدة المقبلة.

### الصين واليابان

يكمن جزء من سبب قدرة الصين على النمو بطريقة كبيرة في الثمانينيات في تقييد ماو للنمو بالقدر نفسه من الشدة حتى تلك اللحظة. وعندما مات ماو، وحل محله دينج شياو بينج في النهاية، حرر مجرد تغيير الأيديولوجيا الصين؛ من أجل انطلاقة نمو قوية على نحو غير عادي، تقوم على الطلب المكبوت مقرونًا بمهارات الشعب الصيني وقدراته الوطنية.

من الناحية التاريخية، تراوحت الصين بين التقيضين؛ إما العزلة المقرونة بالفقر النسبي أو الانفتاح على التجارة المقرون بعدم الاستقرار الاجتماعي. ومنذ أربعينيات القرن التاسع عشر، عندما أجبرت بريطانيا الصين على فتح موانئها، حتى عام 1947 واستيلاء الشيوعيين على السلطة، كانت الصين مفتوحة ومزدهرة في بعض المناطق على الأقل، ومتشظية بشدة. وعندما بدأ ماو المسيرة الطويلة، وجمع جيش الفلاحين لطردهم الغربيين، فرض العزلة مرة أخرى وخفض مستوى المعيشة للجميع، ولكنه خلق استقرارًا ووحدة، لم تعشهما الصين خلال قرن تقريبًا.

يقوم التراوح بين الانفتاح وعدم الاستقرار والانغلاق والوحدة إلى حد ما على طبيعة الميزة الاقتصادية الصينية الأساسية وهي العمالة الرخيصة. فعندما يُسمح للقوى الخارجية بالاستثمار في الصين، فإنها تبني أنواعًا من المصانع والأعمال التجارية، التي تستفيد من رأسمال الصين البشري الوفير. ومع ذلك، فإن الغرض الأساسي من هذه المصانع ليس البيع في الصين، وإنما إنتاج السلع التي تُباع في بلدان أخرى. وبناء على ذلك، يكون تركيز الاستثمار الأساسي قريبًا من الموانئ الكبيرة في مناطق بها مواصلات جيدة إلى تلك الموانئ. ولأن السكان يتركزون في

المنطقة الساحلية، فليس هناك سبب كبير لبناء بنية تحتية أعمق داخل البلاد، والواقع أن الغالبية العظمى من المصانع تقع داخل مسافة تصل إلى مائة ميل من الساحل. وحتى عندما ازدهرت الصين وأصبحت المصانع مملوكة للصين، استمر هذا النمط. طبقا لما ذكره بنك الشعب الصيني، يعيش ستون مليون صيني - وهو عدد من السكان مساو لعدد سكان بلد أوروبي كبير - في أسر معيشية من الطبقة الوسطى (أي هؤلاء الذين يكسبون أكثر من 20 ألف دولار في العام). لكن مع عدد سكان الصين البالغ 1,3 مليار نسمة، يمثل 60 مليون مواطن من الطبقة الوسطى أقل من 5 بالمائة من إجمالي عدد السكان، والأغلبية الساحقة من هؤلاء يعيشون في المنطقة الساحلية أو في بيجين.

يعيش ستمائة مليون صيني في أسر معيشية، تكسب أقل من 1000 دولار في العام، أو أقل من 3 دولارات في اليوم للأسرة الواحدة. ويعيش 440 مليون صيني آخرون في أسر معيشية، تكسب ما بين 1000 و2000 دولار في العام، أو من 3 إلى 6 دولارات في اليوم، ويعني هذا أن 80 بالمائة من الصينيين يعيشون في ظروف تشابه مع فقر إفريقيا جنوب الصحراء. وحتى في الحزام الواقع داخل مسافة مائة ميل من الساحل، حيث يعيش 15 بالمائة من الصينيين الذين هم العمال الصناعيين، نجد أن الصين بلد فقير على نحو غير عادي، وتخلق منطقة رخائها الضيقة هوة اجتماعية وجغرافية، وتستفيد المنطقة المحيطة بالموانئ من التجارة، ولا تستفيد بقية الصين منها. والواقع أن مصالح المنطقة الساحلية تحالف مع مصالح شركاء الصين الأجانب على نحو أوثق من تحالفها مع مصالح بقية أنحاء البلد، أو حتى مصالح الحكومة المركزية.

على امتداد تلك الصدوع، التي مزقت الصين في القرن التاسع عشر، وما زالت قائمة على نحو يمكن أن يمزقها في المستقبل - وتوازن الصين بين الأغلبية الفقيرة والأقلية الغنية - وبدعم من المصالح الأجنبية، سوف يقاوم الصينيون الأغنياء في المناطق الساحلية الحكومة المركزية. ومحاولات نقل الثروة إما أن تضعف الحكومة المركزية أو تجبرها على أن تصبح دكتاتورية؛ فأسرة كينج ضَعُفَتْ بعد

الغزو البريطاني. وكان قرار ماو في أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين هو القمع المكثف، وطرده الأجانب ومصادرة الأملاك وإعادة توزيع الثروة على الداخل الفقير. خلال فترات الرخاء والنمو النسبيين، يمكن للدولة إدارة المشكلة. وحتى مع زيادة التفاوت، يرتفع مستوى المعيشة المطلق بالنسبة لمعظم الصينيين، وتقطع هذه الزيادة - مهما كان حدها الأدنى - شوطاً طويلاً نحو إبقاء الناس سلبين. ولكن ماذا يحدث عندما يضعف الاقتصاد وتندنى مستويات المعيشة؟ بالنسبة لمن يتمون إلى الطبقة الوسطى وما فوقها، فإن هذا غير مريح. وبالنسبة لأكثر من مليار صيني يعيشون في الفقر، فمن الممكن أن يكون حتى الانكماش الصغير في مستويات المعيشة مفجعاً، وهذا هو ما تتجه إليه الصين في المستقبل القريب جداً، نحو هبوط صغير نسبياً في النمو، ولكنه هبوط سوف يزداد اتساعاً من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية كلما اتجهنا لأسفل، مولداً مقاومة للحكومة المركزية.

بما أن الصين لديها اقتصاد منتج لا يتناسب مع اقتصادها الاستهلاكي؛ فالمشكلة حتمية. فأجهزة الآيبود والملابس التي تنتجها المصانع الصينية لا تُباع لجماهيرها الفقيرة، ومع ذلك لم تعد الصين تتمتع بميزة الأجور مقابل بلدان أخرى كباكستان والفلبين. وفي ضوء التجمع المحدود للعمالة شبه الماهرة (مقابل العرض غير المحدود الذي لديها من الفلاحين غير المدربين)، ارتفع سعر العمالة. ويضغط من المنافسة، خفضت الصين الأسعار؛ الأمر الذي قلل ربحيتها من الصادرات. وفي مواجهة المنافسة المتزايدة والنمو المتباطئ بين بعض مستهلكيها، سوف تتدنى قدرة الصين على المنافسة؛ الأمر الذي يزيد صعوبة تسديد القروض التجارية، وبالتالي يزيد الضغط على النظام المالي كله.

الواقع الصارخ هو أن الصين لا يمكنها تحمل تبعات البطالة، فقد انتقلت أعداد كبيرة من الفلاحين إلى المدن للحصول على فرص عمل، وإذا فقدوا وظائفهم، فإما أن يبقوا في المدن ويسببوا عدم استقرار، أو يعودوا إلى قرأهم ويزيدوا مستوى



الفقر الريفي. ويمكن أن تبقى الصين على توظيف شعبها بتشجيع البنوك على تقديم القروض للمشروعات، التي ينبغي أن تخرج من العمل، أو بدعم الصادرات، أو ببناء مشروعات مملوكة للدولة، ولكن هذه الجهود تُفْرِغ قلب الاقتصاد.

على امتداد العقد المقبل، لن يكون أمام الصين اختيار سوى زيادة أمنها الداخلي، فجييش التحرير الشعبي ضخم بالفعل. وفي النهاية، فإن جيش التحرير الشعبي هو من سيحفظ وحدة البلاد، ولكن هذا يفترض أن هذه القوة، التي جيء بها بشكل كبير من أفقر شرائح المجتمع، ستبقى متماسكة وتظل على ولائها. ولكي تقمع الصين السخط الطبقي، سوف يتعين عليها فرض الضرائب على الستين مليون صيني الأغنياء الموجودين على السواحل، ثم تنقل الأموال إلى جيش التحرير الشعبي والفلاحين. وهؤلاء الذين ستُفرض عليهم الضرائب سوف يقاومون، وستكون العائدات غير كافية لهؤلاء الذين تعتمزم الحكومة إفادتهم، ولكنها ينبغي أن تكفي للحفاظ على ولاء الجيش.

السؤال طويل المدى، الذي سوف يُجاب عنه في العقد المقبل، هو ما إذا كانت الصين ستحاول حل مشكلتها كما حلها ماو - بخلق البلاد والقضاء على رجال الأعمال الساحليين وطرده المصالح الأجنبية - أم باتباع نمط النزعة الإقليمية وعدم الاستقرار الخاص بالقرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. والأمر المؤكد الوحيد هو أن الحكومة الصينية سوف تكون غارقة في المشكلات الداخلية؛ حيث تعمل بحرص على موازنة القوى المتنافسة، وستكون على قدر كبير من الشك بشأن نوايا اليابانيين والأمريكيين.

في عام 1990، عاشت اليابان ذلك النوع من الهبوط الذي تبدأ الصين المرور به الآن. واليابان لديها درجة من السيطرة الاجتماعية غير الرسمية، أكثر مما يراه معظم من في الخارج، وفي الوقت نفسه احتفظت تجمعات الشركات، المسماة «كيريستو»، بمساحة كبيرة من حرية الحركة. ولأن اليابانيين نماوا بسرعة بعد الحرب العالمية

الثانية، فقد خضعوا للأزمة المالية التي حتمها فشلهم في خلق نظام سوق رأس المال. وعمل اقتصادهم من خلال تعاون غير رسمي بين الكيريستو والحكومة. وقد صُمم هذا التعاون؛ بحيث لا يكون هناك خاسرون، وهنا يكمن خطؤها القاتل.

تفاقت مشكلة رأس المال؛ لأن اليابان لم تكن لديها خطة تقاعد تستحق الذكر، وهو ما كان يعني أن المواطنين مجبورون بشدة على الادخار؛ حيث كانوا يضعون أموالهم في بنوك مكاتب البريد الحكومية، التي كانت تدفع أسعار فائدة منخفضة جداً. وبعد ذلك، كانت الأموال تقرضها الحكومة لـ«بنوك المدينة» الكبيرة المرتبطة بالكيريستو، ومنح هذا النظام اليابان ميزة ضخمة في السبعينيات والثمانينيات، من القرن الماضي، عندما كانت أسعار الفائدة الأمريكية من عديدين، وكان يمكن للشركات اليابانية الاقتراض بأقل من 5 بالمائة. لكن المال لم يكن يُقرض للأعمال التي كانت مربحة بطبيعتها، وكان معظم الربح يأتي من الهامش المضاف الذي توفره الأموال الرخيصة. وكانت ضرورة ادخار اليابانيين لمبلغ ضخم كي يتقاعدوا تعني أنهم كانوا مستهلكين مترددين. وبذلك كان قلب الاقتصاد الياباني، شأنه شأن الاقتصادي الصيني الآن، في الصادرات، وبشكل خاص إلى الولايات المتحدة.

مع زيادة المنافسة من البلدان الآسيوية الأخرى، خفض اليابانيون الأسعار، وهو ما قلل الأرباح. وتعني الأرباح المنخفضة اضطرار الأعمال إلى اقتراض المزيد من المال كي تنمو، ثم وجدت أنه من الصعب إلى حد كبير تسديد ديونها. وما أعقب ذلك انهيار اقتصادي، لم يلاحظه الإعلام الغربي، إلا بعد سنوات عديدة من حدوثه.

وكشأن الصينيين، كان على اليابانيين تجنب البطالة، ولكن لأسباب مختلفة. ففي اليابان كان التردد في تقليص الحجم يقوم على العقد الاجتماعي، الذي يُلزم العامل به نفسه بالعمل طوال حياته في إحدى الشركات، وترد الشركة بالمثل. واحترم اليابانيون التقليد بالإبقاء على التوظيف الكامل، بينما سمحوا بهبوط معدل النمو إلى لا شيء تقريباً.

أطلق الاقتصاديون الغربيون على السنوات العشرين، التي شهد فيها الاقتصاد الياباني ركودًا «العقود المفقودة»، ولكن هذا سوء فهم للأهداف اليابانية، أو بالأحرى فرضٌ لوجهة النظر الغربية على القيم اليابانية؛ فالتضحية بالنمو من أجل الحفاظ على التوظيف الكامل، لم تكن في رأي هذا المجتمع المتماسك بشدة فقدانًا لعقد من الزمان، وإنما حفاظًا على مصلحة جوهرية.

في الوقت نفسه، هبط معدل المواليد في اليابان إلى ما دون معدل 2.1 طفل لكل امرأة اللازم للحفاظ على عدد سكانها. والآن، حيث كل جيل أصغر حجمًا من الجيل الذي قبله، لم يعد الاقتصاد قادرًا على دعم المتقاعدين، وبهذه الطريقة خلق الدَّين والديموغرافيا أزمة ضخمة لليابان.

خلال السنوات العشر التالية، لن يكون اليابانيون قادرين على الحفاظ على التوظيف الكامل من خلال زيادة ديونهم، العامة والخاصة، على نحو مفرط. وكشأن الصينيين، سوف يتعين عليهم تغيير النماذج الاقتصادية، ولكن اليابانيين ليست لديهم ميزة كاسحة؛ فليس لديهم مليار شخص يعيشون في فقر. وعلى عكس الصينيين، يمكنهم امتصاص التشف، إذا كان ذلك مطلوبًا، دون جلب عدم الاستقرار.

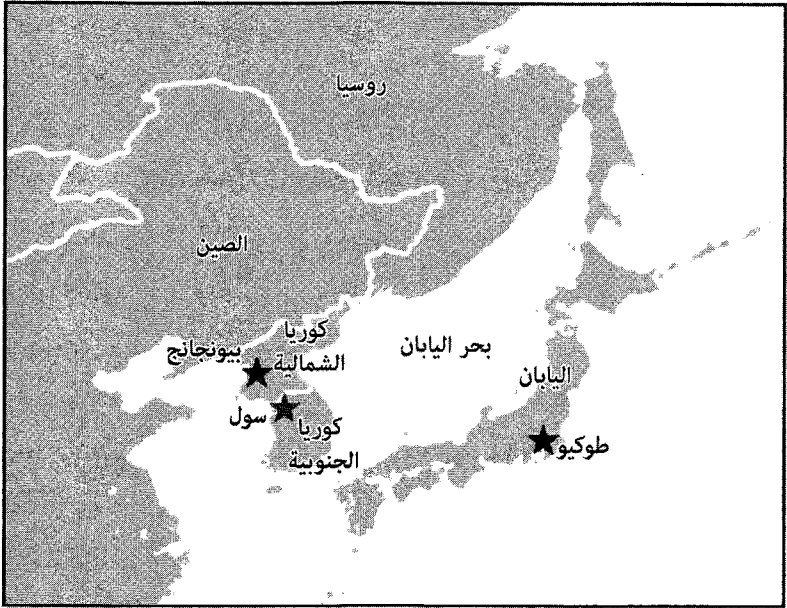
ما زالت نقطة ضعف اليابان الأساسية، هي افتقارها إلى الموارد الطبيعية اللازمة للصناعة، من النفط إلى المطاط إلى الحديد الخام. ولكي تبقى اليابان قوة صناعية، يتعين عليها الشراء والبيع على المستوى العالمي، وإذا فقدت القدرة على الوصول إلى الطرق البحرية فستخسر كل شيء. وإذا نشأت اضطرابات، ولم يكن لديها خيار الانكفاء على الذات، فمن الأرجح - إلى حد كبير - أن تصبح اليابان واثقة من نفسها مرة أخرى.

### توازن القوى الصيني الياباني

طوال الثلاثين عامًا أو نحو ذلك الماضية كانت العلاقة بين الصين واليابان تأتي في المرتبة الثانية بعد علاقة كل منهما بالولايات المتحدة. وحافظت الولايات

المتحدة على التوازن الإقليمي بالاحتفاظ بعلاقات منفعة متبادلة مع كل بلد، ولكن هذه العلاقات سوف تتغير في العقد المقبل، أولاً: سوف تغير مشكلات الصين الاقتصادية علاقتها مع العالم، وهي تغير أساليب عمل البلاد الداخلية. وكذلك سوف تغير مشكلات اليابان الداخلية والحلول التي تختارها الطريقة التي تعمل بها. حتى وهي سلبية وتعتمد على بلدان أخرى؛ لضمان الوصول إلى الأسواق العالمية، تظل اليابان باستمرار جزءاً أصيلاً من العالم. والصين كذلك جزء أصيل، ولكنها ليست على نحو لا يمكن الرجوع فيه كاليابان، ففقدان المواد الخام المستوردة لا يمثل تهديداً وجودياً للصين بالطريقة التي يمثل بها ذلك لليابان. وبالمثل، فبينما تعتمد الصين على الصادرات، فإن بإمكانها إعادة تشكيل نفسها، وإن كان ذلك بطريقة مؤلمة.

إذاً، فالصين لديها قدر أقل من الإغراء لأن تصبح جازمة؛ كما أنه ليست لديها القدرة على ذلك؛ فاتصال الصين الأساسي بالعالم عن طريق البحر، غير أنه ليس لديها الأسطول البحري الكبير، الذي يتناسب مع الجغرافيا والولايات المتحدة. وبناء قوة بحرية يستغرق أجيالاً؛ إذ ليس الأمر تطوير التكنولوجيا الضرورية، بقدر ما هو المرور بالخبرة المتراكمة التي تخلق الأدميرالات الجيدين. وسوف يمر وقت طويل، قبل أن يمكن للصين تحدي أي من الولايات المتحدة أو حتى اليابان في البحر، وهناك قدر كبير من مناقشة تطور الأسطول الصيني. ومن المؤكد أنه يجري حالياً تطوير كبير، ولكن هناك فجوة ضخمة بين المستوى الحالي من الجهد، وما يجب على الصين عمله لتحدي قوة الولايات المتحدة البحرية، حتى في المياه القريبة من الصين - وأهم التطورات في الصواريخ المضادة للسفن الموجودة في قواعد على البر - ولكن الصين أمامها طريق طويل جداً، قبل أن تأمل سفن الأسطول هزيمة الأسطول الأمريكي، وحتى الصواريخ المضادة للسفن معرضة بشدة لخطر الضربات الجوية والصاروخية الأمريكية. ولن تخرج البحرية الصينية الولايات المتحدة بالقوة من المياه الإقليمية في العقد المقبل.



(خريطة) شمال شرقي آسيا

اليابان في الوقت الراهن قوة باسيفيكية من الناحية الشكلية تحظر عليها المادة (9) من دستورها أن تكون لديها قوة مسلحة هجومية، ولكن هذا لم يمنعها من امتلاك جيش وقوة جوية كبيرين. ومع ذلك فقد نجحت في تجنب استخدام تلك القوات، اعتماداً على الولايات المتحدة في حماية مصالحها الدولية؛ خاصة قدرتها على الوصول إلى الموارد الطبيعية.

أثبت خضوع اليابان للولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية نفعه؛ لأن الولايات المتحدة كانت بحاجة إلى مساعدة اليابان في الحرب الباردة، وأرادت أن تكون اليابان قوية بقدر الإمكان. وتغيرت الأمور الآن على نحو لا يكاد يُرى؛ فالولايات المتحدة لا تزال تسيطر على طرق اليابان البحرية، ولا تزال مستعدة لضمان القدرة على الوصول، ولكن استعدادها للمخاطرة فيما يتعلق بتلك القدرة على الوصول جعل اليابان في وضع يُحتمل أن يكون خطيراً. وحتى الآن - وأثناء حرب الولايات المتحدة

مع الجهاديين - فإن الولايات المتحدة حريصة على عدم تعريض طريق النفط من خلال مضيق هرمز، الذي تعتمد عليه اليابان، للخطر. ولكنها قد تسيء التقدير بسهولة؛ فالأمر ببساطة هو أن الولايات المتحدة يمكنها تحمل المخاطر، التي لا قبل لليابان بتحملها، ولذلك تختلف رؤى البلدين بشأن العالم ومصالحهما القومية.

المشكلة الداخلية بالنسبة لليابانيين، هي أنهم مضوا إلى أبعد ما يمكنهم في هذه الدورة الاقتصادية. ويجب عليهم إما قبول التقشف والبطالة أو السماح للتضخم بالحدوث، وظلت نقطة ضعفهم هي أسواق رأسمال المال، التي مازالت لا تعمل بحرية، ومع ذلك لم يكن لدى اليابانيين تخطيط مركزي فعال، ولا يمكن استدامة هذا الوضع، فربما يحل الانتقال إلى السوق الحرة المشكلة اليابانية على المدى الطويل، غير أن الثمن سيكون عدم الاستقرار الآن. ولأنهم لا يستطيعون إقامة اقتصاد سوق حقيقي، فسوف يتحركون صوب اقتصاد، تفرض فيه الدولة فاعليات أكبر (ليست بكفاءة السوق، ولكنها أكثر كفاءة مما لديهم الآن) وتقل فيه أهمية الكيريستو، وسوف يعني هذا أن تركز الدولة اليابانية السلطة في نفسها بشكل أكبر، وتأخذ دورًا أكبر في إدارة التمويل.

مشكلة اليابان الكبيرة الأخرى ديموغرافية. فهي بلد شائع يحتاج إلى المزيد من العمال، ولكنه عاجز اجتماعيًا عن إدارة الهجرة واسعة النطاق، التي تتحرك في اتجاه مضاد لتماسك الثقافة اليابانية. وليس الحل هو الحصول على عمال يأتون إلى المصانع، وإنما الحصول على المصانع التي تذهب إلى العمال. وعلى مدى السنوات العشر المقبلة، ستكون اليابان أكثر جراءة في استغلال أسواق العمل خارج حدودها، بما في ذلك الصين، بناءً على تطور الأحداث هناك.

مهما كان ما يخبؤه المستقبل، سوف يرغب اليابانيون في مواصلة علاقتهم الاستراتيجية الأساسية مع الولايات المتحدة، بما في ذلك اعتمادهم على الولايات المتحدة في تأمين الطرق البحرية. وترى اليابان أن هذا أكثر توفيرًا للتكلفة، وأقل خطورة بكثير من السير في هذا الاتجاه بمفردها.

### الاستراتيجية الأمريكية: المماثلة لكسب الوقت

ليس لدى الولايات المتحدة من الموارد أو اتساع السياسة ما يمكنها من التعامل مع كل توازن إقليمي للقوى في الوقت ذاته، فسوف تكون مشغولة بروسيا والشرق الأوسط؛ الأمر الذي لا يترك لها الكثير فيما يتعلق بالموارد للتعامل مع غربي الباسيفيكي. ولعدم وجود بديل، لا بد أن تكون الاستراتيجية الأمريكية في هذه المنطقة هي التأجيل وصرف الانتباه. ولا يمكن للولايات المتحدة، في واقع الأمر، التحكم في عمليات واسعة تجرى الآن، ولذلك فإن أفضل ما يمكنها عمله هو تعديلها قليلاً. ومن حسن الحظ أن هذه منطقة تجعل العمليات الجارية فيها البلدان على طريق مواتٍ نسبيًا في اتجاه الولايات المتحدة، على الأقل في الوقت الراهن؛ ولذلك ينبغي أن تتمهل السياسة الأمريكية، وهي تضع أساس ما سيأتي لاحقاً.

لا يكمن الخطر الأمريكي في تحالف يُعقد بين اليابان والصين؛ فهذان البلدان يتنافسان مع بعضهما بطرق كثيرة جداً، ويختلفان عن بعضهما اختلافاً شديداً جداً؛ بحيث لا يمكن أن يكون بينهما تعاون وثيق. وبعد أن بلغت اليابان حدود هذه الدورة الاقتصادية، لن تكون ذلك العملاق السلبي في صمت الذي كانه طوال العشرين عاماً الماضية. ومن ناحية أخرى، سوف تكون الصين أقل من تلك القوة الضخمة الكاسحة التي كانتها، وسيكون التحدي الذي تواجهه الولايات المتحدة هو إدارة علاقتها مع كلا اللاعبين في هذا النظام الغرب باسيفيكي، كلٌّ في مرحلته المختلفة. وفي الوقت نفسه، لا بد من تراجع الولايات المتحدة عن كونها المركز، وتدع القوتين الآسيويتين تطوران علاقات أكثر مباشرة مع بعضهما البعض؛ حيث يعثران على نقاط توازنهما.

لن تظهر الصين أو اليابان كقوة إقليمية مهيمنة، كما تفعل كل المعجزات الاقتصادية، وسوف تركز الصين على الحفاظ على الاستقرار دون النمو السريع. وسوف تعيد الصين بناء نفسها داخلياً، بينما تبدأ تكيف سياستها الخارجية مع مصالحها العالمية، ولكن ستكون اليابان هي من سيتعين على الولايات المتحدة مراقبته.

وبينما تزيد اليابان قوتها، فلا بد بالضرورة من زيادة قوتها البحرية. ومعارضة الولايات المتحدة لظهور قوات بحرية مبدأ أساسي من مبادئها، ولكن من الواضح أن الولايات المتحدة لن تدخل في حرب مع اليابان بشأن هذه القضية في 2015 أو 2020، كما فعلت في 1941. ومع ذلك سوف يتعين عليها وضع استراتيجية للتعامل مع اليابان الأكثر حزمًا.

ولا بد أن تكون الخطوة الأولى في الاستراتيجية الأمريكية تجاه اليابان، هي تأكيد أن الصين لن تتمزق، لأنه كلما كانت الصين أضعف، كانت اليابان أكثر حرية في استعراض عضلاتها. وإلى الحد الممكن، ينبغي على الولايات المتحدة تخفيف الضغط على الصين بتيسير صادراتها إلى الولايات المتحدة، وهذا تغيير للمسار بالطبع، وهناك مشكلات سياسية واضحة في تحقيق ذلك، وسوف يتعين على الرئيس أن يكون شديد المهارة في تبرير كرمه في وقت، يرتفع فيه معدل البطالة الأمريكي. لكن كل شيء يقيد اليابان، وإن كان بشكل هامشي، له قيمته لدى الولايات المتحدة. الصين المستقرة وحدها يمكنها السيطرة على الاستثمارات الأجنبية في اقتصادها، وسوف يكون الاستقرار والسيطرة ضروريين للتصدي لمخططات اليابان بشأن المصانع الصينية والعمال الصينيين، وسوف يعطل تقييد التوسع الياباني بدوره قدرة اليابان على التعامل مع المشكلات، وأي شيء يبطئ نهوض اليابان الاقتصادي، يفيد الولايات المتحدة، إلى حد كسب الوقت فحسب.

لا بد أن تكون الخطوة الثانية في الاستراتيجية الأمريكية، هي الاحتفاظ بعلاقات مع اليابانيين تتسم بالود قدر الإمكان. فكلما كانت اليابان أكثر ثقة في الوصول إلى المواد الخام، كان دافعها إلى بناء قوتها البحرية الخاصة بها أقل. واليابانيون، الذين يعون ألم اختلال القوى، لم يشعروا قط بالراحة، كما قد يبدو في علاقتهم التفضيلية مع الولايات المتحدة. وهم في الوقت نفسه لم يرغبوا قط في مواجهة المبالغ الهائلة من المال والمخاطرة اللازمة لخلق بديل.



على المدى الطويل، سوف يتعين على بلد كبير ومعرّض للخطر من الناحية الاقتصادية كاليابان البحث عن طريقة لضمان مصالحه. ومع ذلك، فليس من الضرورة أن يكون هذا في العقد المقبل، ولا بد أن تكون الاستراتيجية الأمريكية هي إطالة اعتماد اليابان أكبر قدر ممكن، فكلما طال اعتماد اليابان على الولايات المتحدة، كان نفوذ الولايات المتحدة على السياسة اليابانية أطول، وكانت قدرتها على تشكيل تلك السياسة أكبر. وإذا ما ضُغَط على اليابان بشدة، فمن الممكن أن تختار مسارًا جديدًا يعود إلى السياسات المدمرة الخاصة بالثلاثينيات، عندما كانت دولة دولاية من الناحية الاقتصادية، ويحركها التأكيد على الدفاع القومي. ولا بد أن تحرص الولايات على ألا تضغط.

هناك أمران سوف يجعلان إقناع الجمهور الأمريكي بهذه الاستراتيجية الآسيوية أسهل، الأمر الأول: هو أن أمورًا أخرى سوف تشغل بالهم، والثاني هو أن التحركات الأمريكية في غرب الباسيفيكي سوف تكون متدرجة وليست مفاجئة، وسوف تكون لدى الرئيس ميزة عدم الاضطرار إلى إعلان تغيير في السياسة، وسوف يكون لإجراءاته أثر حاسم؛ لأن الولايات المتحدة مهمة، ولكنها ليست أساسية لأي من هذه القوى الآسيوية.

في الوقت نفسه، لا بد للولايات المتحدة من إقامة علاقات؛ من أجل المرحلة التالية من التاريخ، التي قد ترغب فيها في تجنيد اليابان أو الصين، أو الاثنين معًا، للتعاون ضد تهديدات من روسيا أو قوى أخرى. وشهية المخاطرة داخل هذين البلدين ليست كبيرة جدًا، ولا بد أن تدرك الولايات المتحدة أن الضغط عليهما دون إجراءات ربما لن يفلح.

هنا يمكن أن تقوم كوريا بدور مهم، فهي بالفعل شوكة في خاصرة كلا طرفي التوازن الصيني الياباني، ولكنها مزعجة بشكل كبير لليابانيين، فلا أسباب تاريخية،

تمقت كوريا اليابانيين ولا تثق في الصينيين. وهي بالإضافة إلى ذلك لا تشعر بقدر كبير من الراحة مع الولايات المتحدة، ولكن الجغرافيا على أقل تقدير جعلتها تعتمد على الولايات المتحدة.

بينما تزداد اليابان قوة وتضعف الصين، سوف يحتاج الكوريون إلى الولايات المتحدة، أكثر من أي وقت مضى، وسوف تعتمد الولايات المتحدة على كوريا لزيادة الخيارات الأمريكية للتعامل مع كلا البلدين. ومن حسن الحظ أن العلاقات الأمريكية الكورية قائمة بالفعل، ولهذا السبب لن يسبب توسيعها مخاوف كبيرة لليابان أو الصين.

أصبحت كوريا كذلك مركزاً تكنولوجياً كبيراً، وسوف تشعر الصين بوجه خاص بالتعطش إلى تلك التكنولوجيا، وسوف يزيد امتلاك بعض السيطرة على نقلها من قدرة الولايات على التأثير على الصين. ومن جانبهم، سوف يحتاج الكوريون إلى المساعدة في التعامل مع إزعاج كوريا الشمالية، وبشكل خاص معالجة الجوانب المالية للتوحيد، عندما يتحقق بشكل حتمي. وسوف تريد كوريا الموحدة فرصاً تجارية خاصة مع الولايات المتحدة. ورغم أن كوريا ليس أمامها من مكان آخر تلجأ إليها، فإنه ينبغي على الرئيس الأمريكي تقديم تلك الامتيازات؛ لأنه على مدى السنوات العشر المقبلة، ربما تكون كوريا إلى حد كبير أهم علاقة للولايات المتحدة في غرب الباسيفيكي. ولكن التوحيد ليس هو القضية الجوهرية؛ فكوريا الشمالية، رغم كل صخبها، مشلولة ومنشأتها النووية موجودة فقط ما دام الآخرون يسمحون بها. ومشروع كوريا الشمالية النووي أكسبها الوقت بصرف الضغط، وهو لا يمكنه تحقيق استقرار لها بشكل دائم. وفي المقابل، مازالت كوريا الجنوبية قوة ديناميكية في حد ذاتها، وسوف تظل قوة ديناميكية مهما حدث في الشمال.

العلاقة المهمة الثانية التي ستكون للولايات المتحدة في المنطقة مع أستراليا، وهي باعتبارها واحدة من آخر الكتل الأرضية التي تخضع للسيطرة الأوروبية،

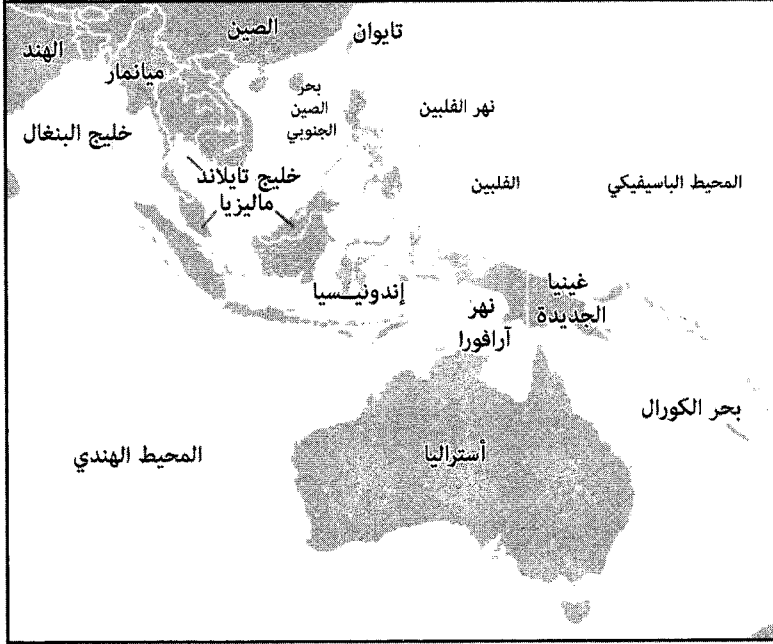
فمن المؤكد أنها على هامش العالم من الناحية الجغرافية، وما زال معظم سكانها مقصورين على منطقة صغيرة نسبيًا من جنوب شرق البلاد.

من الناحية الجيوبوليتيكية، يُساء فهم أستراليا وتسيء هي فهم نفسها؛ فهي تبدو معزولة وآمنة، غير أن عزلتها وهمّ وتعرضها للخطر واقع. على سبيل المثال، أقرب جاراتها هي إندونيسيا، وهي بلد شديد التشظي والضعف يفصله عن أستراليا مئات الأميال من المياه. وأثناء الحرب العالمية الثانية، كانت لإندونيسيا وجاراتها الشرقية غينيا الجديدة وظيفة استراتيجية مهمة لأستراليا، حيث امتصتا الهجوم الياباني، وجعلتا اليابانين أضعف من أن يفكروا في التوسع أكثر نحو الجنوب. ومن اللافت للانتباه أن الحرب العالمية الثانية وجزر أستراليا العازلة في الشمال عززت إحساسها بالأمن، رغم أنها خلقت قلقًا بشأن لاجئ القوارب.

على الرغم من ظهور أستراليا واقفة بمفردها وآمنة، فهي في واقع الأمر تعتمد - إلى حد كبير - على التجارة العالمية، وبشكل خاص بيع المنتجات الغذائية والمعادن الصناعية كخام الحديد؛ للحفاظ على اقتصادها. وهذه السلع تُسحق في البحر، دون أن تكون لأستراليا أية سيطرة على أمن طرقها البحرية. إذًا، فأستراليا إلى حد ما كالمخلوق، الذي توجد عروقه وشرايينه خارج جسمه، غير محمية ومعرضة للخطر باستمرار.

كانت استراتيجية أستراليا للتعامل مع هذه القابلية للتعرض للخطر، هي التحالف مع القوة البحرية المهيمنة في غرب الباسيفيكي، التي كانت بريطانيا في يوم ما والولايات المتحدة الآن. وكل التحالفات تحمل تكاليف، وكان البريطانيون والأمريكيون يريدون شيئًا مقابل ذلك، وهو مشاركة أستراليا في حروبهم. وقد ضحى الأستراليون بشدة في حرب البوير، والحربين العالميتين وفي كوريا وفيتنام. وفيما بين عامي 1970 و1990، انسحب الأستراليون من هذا الدور باعتبارهم شريكًا عسكريًا، ولكن خلال هذه الفترة كانت هناك بعض الدعوات إلى مشاركتهم؛ ففي

عام 1990، في عاصفة الصحراء، عادوا إلى استراتيجيتهم الخاصة بالمساعدة في العمليات العسكرية، وبعد ذلك ذهبوا إلى القتال في أفغانستان والعراق.



(خريطة) جنوب شرق آسيا

إلى جانب أمن الطرق البحرية، تعتمد رفاهية أستراليا على نظام تجاري دولي، يسمح بالشروط التي تقدر عليها. واستراتيجية أستراليا الخاصة بكونها في خدمة أبناء العم الأنجلو أمريكيين جاءت لها بمقعد على الطاولة، إلى جانب القوى الكبرى، ووفر ذلك نفوذاً وأمنًا لتجارها؛ الأمر الذي لم تحققه أستراليا قط بنفسها.

وأثناء الحرب العالمية الثانية، خدمت أستراليا بريطانيا بإرسال قوات إلى شمال إفريقيا، وخدمت الولايات المتحدة بالعمل كمحطة لتجميع القوات الأمريكية؛ من أجل مسرح العمليات الباسيفيكي. ومن المؤكد أن القوات الأسترالية حاربت كذلك، ولكن إذا لم تكن القوات متاحة، فقد كانت قيمة أستراليا الهائلة هي موقعها، خلف

الدرع الجغرافي الخاص بإندونيسيا وغينيا الجديدة. وإذا ظهرت قوة كبرى في غرب الباسيفيكي لتحدى الولايات المتحدة، فسوف تكون أستراليا مرة أخرى الأساس الاستراتيجي لاستراتيجية الولايات المتحدة الباسيفيكية. والأمر الذي يجب الحذر منه هو أن بناء البنية التحتية الخاصة، بمستودع المؤخرة، استغرق سنوات عديدة في الحرب العالمية الثانية، وقد لا يسمح أي صراع مستقبلي بهذا النوع من مهلة الإنجاز. ترى الولايات المتحدة أن الحفاظ على علاقة مع أستراليا لا ينبغي أن يكون أمراً عسيراً؛ فأستراليا لديها خياران استراتيجيان فحسب، أحدهما: هو الانسحاب من التزامات التحالف، وافتراض أن مصالحها سوف تعالج عرضاً. والآخر: هو المشاركة في التحالف، وأن تحصل على تعهدات رسمية من الولايات المتحدة. والخيار الأول أقل تكلفة ولكنه أكثر مخاطرة، أما الثاني فأكثر تكلفة ولكن يعوّل عليه أكثر.

إذا نشأ تهديد خطير، فالأرجح أن تعود أستراليا إلى حظيرة الولايات المتحدة. ومع ذلك فإذا سيطرت قوة غرب باسيفيكية على الطرق البحرية، فهناك باستمرار احتمال أن تعقد أستراليا صفقة ما، إذا حسبت أن هذا الامتثال سوف يحقق غاياتها مع مخاطرة أقل من الحرب إلى جانب الأمريكيين. ولهذا السبب، فإن الحصول على تعهدات مسبقه من الولايات المتحدة، ووجود قواعد عسكرية دائمة في أستراليا يخدم المصالح الأمريكية أفضل ما يكون خلال تقييد خيارات أستراليا.

حتى إذا كانت أستراليا رهينة الحماية الأمريكية، فإن أهميتها الاستراتيجية من العظم بما يجعل الولايات المتحدة أشد ما يمكن كرمًا وإغراء؛ فكونها مقتصدّة فيما تطلبه من تعهدات عسكرية أسترالية أمر مفهوم، لأن الولايات المتحدة قد تحتاج إلى أستراليا في المستقبل بشكل أكبر - وعلى نحو أوسع - من حاجتها إلى الجنود الأستراليين الآن.

المدينة التي على قدر مشابه من الأهمية الاستراتيجية للولايات المتحدة هي سنغافورة، التي أنشأتها بريطانيا عند حافة شبه جزيرة الملايو؛ لتكون قاعدة تسيطر منها على مضيق ملقا. وما زال هذا الممر الضيق طريقًا أساسيًا بين المحيطين الهندي والباسيفيكي، وبشكل خاص بالنسبة للنفط المتجه إلى الصين واليابان من الخليج الفارسي. كما أنه يجب على السفن الحربية الأمريكية المتجهة إلى الخليج الفارسي المرور، عبر هذا المضيق. وهو إلى جانب جبل طارق وقناة السويس، إحدى نقاط الاختناق الكبيرة في العالم. ومن يسيطر عليه يمكن أن يمنع التجارة، أو يضمن تدفقها، تبعًا لإرادته.

سنغافورة الآن دولة مدينة مستقلة، تتمتع بقدر هائل من الرخاء بسبب موقعها الجغرافي، وبسبب صناعة التكنولوجيا فيها. وهي تحتاج الولايات المتحدة كعميل، وكذلك لحماية سيادتها. وعندما مُنحت الملايو الاستقلال، انفصلت سنغافورة التي تغلب على سكانها العرقية الصينية عن ماليزيا، التي أغلب سكانها من المسلمين. وتفاوتت العلاقات، ولم يكن هناك خطر من الانفصال، ولكن سنغافورة تفهم واقعين جيوبوليتيكيين، هما أن أسوأ شيء في العالم أن تكون غنيًا وضعيفًا، وأن الأمن ليس شيئًا مؤكدًا. وما يمكن أن تريد ماليزيا، أو كذلك إندونيسيا، عمله في جيل أو جيلين لا يمكن التنبؤ به.

لا يمكن للولايات المتحدة السيطرة على سنغافورة فحسب، بل لابد أن تكون لها علاقات تعاونية معها. وكما في تعاملاته مع كوريا وأستراليا، ينبغي أن يكون الرئيس أكثر كرمًا مع سنغافورة، مما يجب عليه كي يضمن التحالف؛ فالثمن قليل والأرباح مرتفعة جدًا.



(خريطة) الطرق البحرية الإندونيسية

## الهند

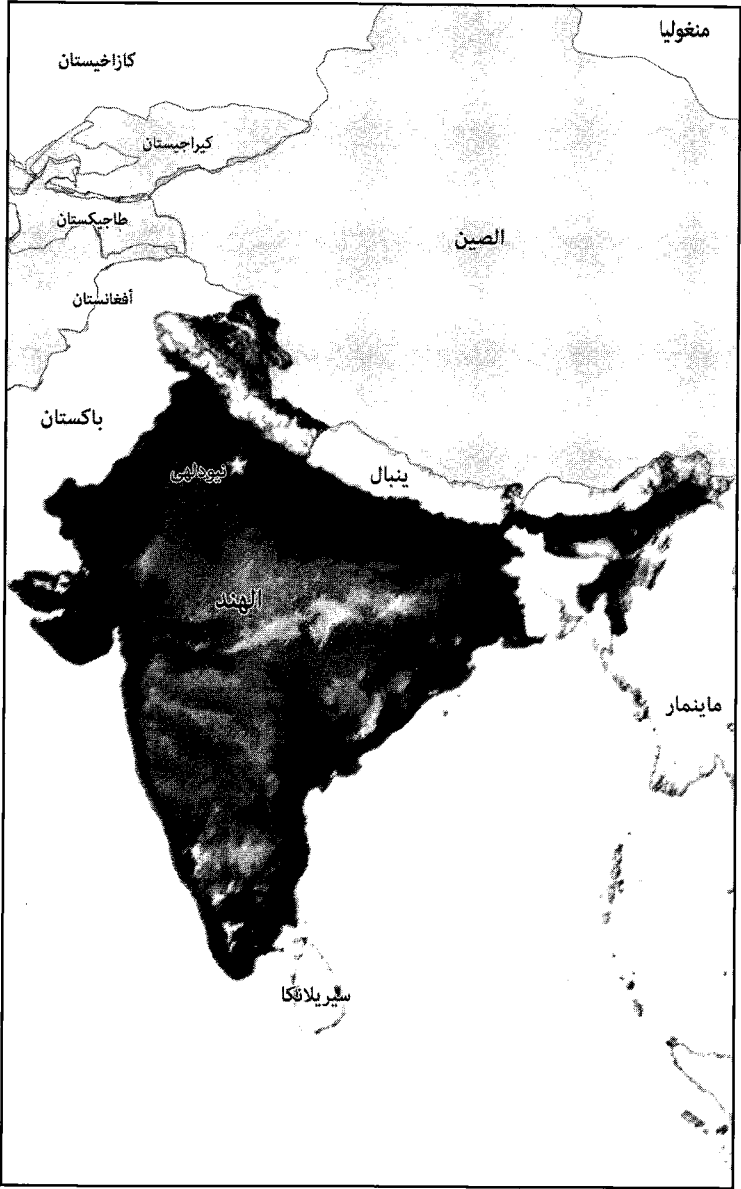
في سياق غرب الباسيفيكي، يتعين علينا التفكير في الهند، والتي رغم حجمها واقتصادها المتنامي والمناقشة الدائمة للهند باعتبارها الصين التالية، فأنا ببساطة لا أرى الهند لاعباً مهماً ذا قوة عميقة في العقد المقبل، فالهند من نواح عديدة، يمكن فهمها على أنها أستراليا كبيرة جداً، فكلتا البلدين قوي من الناحية الاقتصادية - بطرق مختلفة كما هو واضح - وبهذا المعنى يجب التعامل معهما بجدية.

كشأن أستراليا، الهند شبه قارة معزولة جغرافياً، وإن كانت عزلة أستراليا، التي تقوم على آلاف الأميال من المياه، أشد وضوحاً بكثير. لكن الهند في حد ذاتها جزيرة محاطة بالحواجز البرية اجتيازها أكثر صعوبة من المحيطات؛ فجبال الهيمالايا تمنع الوصول من الشمال، وغابات التلال تمنع الوصول من الشرق، ويحيط بها في الجنوب المحيط الهندي، الذي يسيطر عليه الأسطول الأمريكي.

أكبر مشكلة تواجهها الهند تكمن في الغرب، حيث الصحراء وباكستان؛ فهذه الدولة المسلمة دخلت في عدة حروب مع الهند التي غالبية سكانها من الهندوس، وتتراوح العلاقات بين الباردة والعدائية. وكما رأينا في مناقشتي لأفغانستان، توازن القوى بين باكستان والهند ملمح أساسي لشبه القارة، والحفاظ على توازن القوى هذا هدف مهم بالنسبة للولايات المتحدة في العقد المقبل.

تسمى الهندُ الصينَ الديمقراطية؛ الأمر الذي يمثل خطرًا في القوة الإقليمية إن صح هذا القول، فأحد القيود الكبيرة على نمو الاقتصاد الهندي، الرائع كما كان، أنه بينما لدى الهند حكومة قومية، فإن لدى كل ولاية من الولايات التي تشكل هذه الحكومة تشريعاتها، وبعض هذه التشريعات تمنع التنمية الاقتصادية. وهذه الولايات تحمي حقوقها من خلال غيرتها وتنافسها مع الولايات الأخرى، كما أن القيادة - لاسيما العسكرية - تقوم بحماية التزاماتها. وهناك طرق كثيرة لربط هذه المناطق ببعضها، ولكن الضامن المطلق هو الجيش.





(خريطة) تضاريس الهند

تحتفظ الهندي بجيش ضخم له ثلاث وظائف، أولاً: يوازن باكستان. وثانياً: يحمي الحدود الشمالية من الغزو الصيني (وهو ما تجعله التضاريس أمراً يصعب تخيله)، وثالثاً: الأمر الأكثر أهمية هو أن الجيش الهندي، شأنه شأن الجيش الصيني، يضمن أمن الدولة الداخلي - وهو ليس بالأمر الهين في بلد متنوع به مناطق شديدة الانقسام، فهناك حاليًا تمرد من جانب الماويين في الشرق، على سبيل المثال، وهذا هو الأمر الذي يعد منعه أو قمعه وظيفة الجيش.

في البحار، كان الهنود مهتمين بتطوير أسطول، يمكن أن يصبح لاعباً مهماً في المحيط الهندي، حيث يحمي طرق الهند البحرية ويلوح بالقوة الهندية. ولكن الولايات المتحدة لا ترغب في رؤية الهند تمضي قدماً على هذا النحو؛ فالمحيط الهندي هو الممر الذي يجتازه نفط الخليج الفارسي إلى الباسيفيكي، وسوف تنشر الولايات المتحدة قوات ذات بأس شديد هنا، بغض النظر عن تقليل وجودها على اليابسة.

لإبقاء التطور البحري الهندي دون العتبة التي تسمح بتهديد المصالح الأمريكية، سوف تسعى الولايات المتحدة إلى تحويل نفقات الدفاع الهندية إلى الجيش والقوة الجوية التكتيكية، بدلاً من الأسطول. وأرخص طريقة لتحقيق ذلك واستباق مشكلة محتملة طويلة المدى، هي أن تدعم الولايات المتحدة باكستان الأقوى، وبذلك تجعل مخططي أمن الهند يركزون على البر وليس البحر.

وبالمثل، ترغب الهند في تقويض العلاقة الأمريكية الباكستانية، أو على أقل تقدير إبقاء الولايات المتحدة في أفغانستان؛ كي تززع استقرار باكستان. وإذا فشلت الهند في ذلك، فقد تمد يدها لبلدان أخرى كما مدت يدها إلى الاتحاد السوفيتي أثناء الحرب الباردة. ولا تمثل باكستان تهديداً وجودياً للهند، حتى في الحدث غير المرجح الخاص بالاشتباك النووي. ولكن باكستان لن تنهار، ولهذا ستظل المشكلة الدائمة التي تتمحور حولها سياسة الهند الاستراتيجية.

تحتل الهند موقعاً متأخراً عن الصين في التنمية الاقتصادية، ولهذا فهي لم تواجه بعد ما تواجه الصين من صعوبات. وسوف يشهد العقد المقبل الهند تتقدم بسرعة

كبيرة من الناحية الاقتصادية، ولكن القوة الاقتصادية وحدها لا تُترجم إلى أمن قومي. كما أنها لا تُترجم إلى نوع من القوة، يمكنها السيطرة على المحيط الهندي. ولا يمكن خدمة المصالح الأمريكية بجعل الهند تشعر بالأمن على نحو زائد. ولذلك سوف تتدهور العلاقات الأمريكية الهندية، على مدى السنوات العشر المقبلة، حتى مع رحيل الولايات المتحدة عن أفغانستان، بل واستمرار التجارة الأمريكية الهندية.

### اللعبة الآسيوية

في العقد المقبل، وبينما الولايات المتحدة مشغولة بقضايا أخرى، سوف تكون القوات الآسيويتان الكبيرتان، الصين واليابان، خاضعتين للحد الأدنى من النفوذ الخارجي. وسوف تتحركان بالطريقة التي تملئها عليهما تطوراتهما الداخلية. وبناء على هذه السرعة، لا ينبغي للولايات المتحدة الاستثمار بقوة في إدارة العلاقة الصينية اليابانية. ويقدر الإمكان، ينبغي على الولايات المتحدة المساعدة في الوصول إلى صين مستقرة، والعمل على الحفاظ على علاقتها مع اليابان.

ورغم ذلك، لن يصمد سلام غرب الباسيفيكي إلى ما لا نهاية، وينبغي على الولايات المتحدة العمل لتمتين العلاقات القوية مع اللاعبين الرئيسيين الثلاثة، وهم: كوريا وأستراليا وسنغافورة.

سوف تثبت هذه البلدان الثلاثة أنها حلفاء ضروريون، في حالة وقوع حرب مع أي بلد غرب باسيفيكي، وخاصة اليابان، ولا يمكن أن تبدأ الاستعدادات بسرعة كبيرة. وبناء الأسطول الكوري، وخلق منشآت في أستراليا، وتحديث قوات سنغافورة لن يثير قلقًا كبيرًا؛ فهذه خطوات إن أُتخذت في هذا العقد، فإنها سوف تخلق إطارًا لإدارة أي صراع يمكن أن ينشأ.

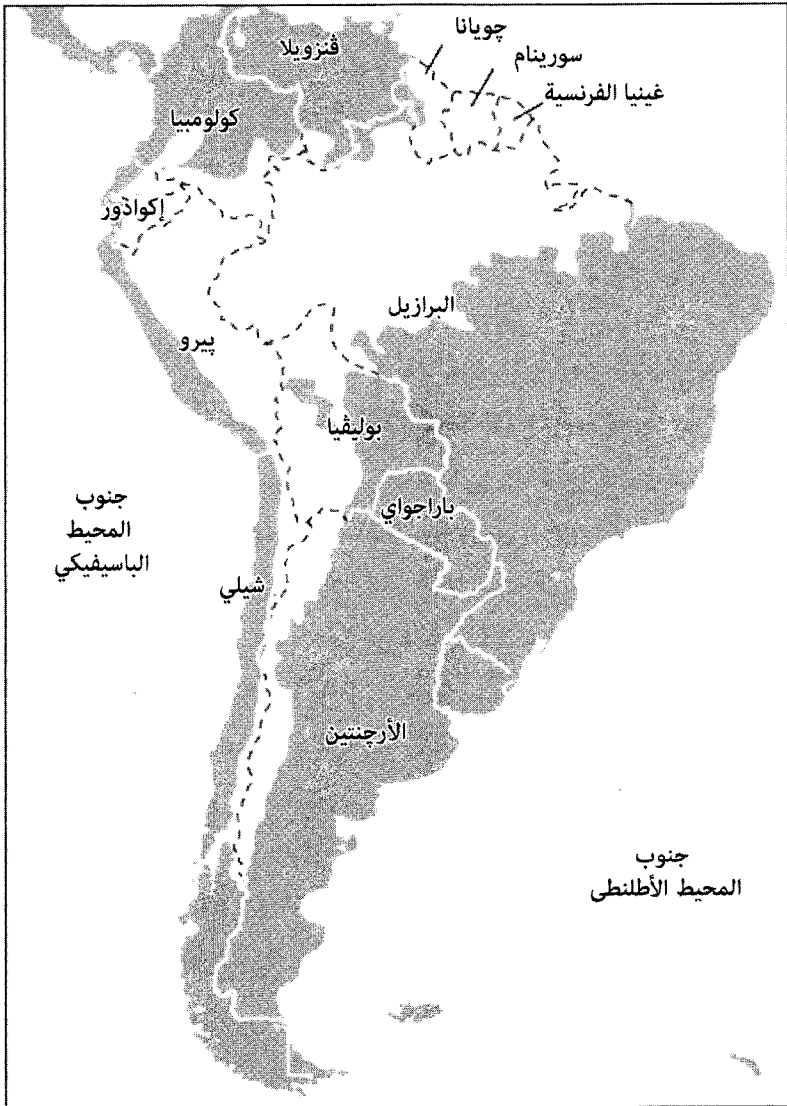


## الفصل الحادي عشر

### نصف الكرة الآمن

بما أن الولايات المتحدة تشترك في نصف الكرة وجزء من التاريخ مع أمريكا اللاتينية وكندا، فقد يفترض البعض أن هذه المنطقة لها أهمية مفردة بالنسبة للولايات المتحدة، بل إن كثيرين من الأمريكيين اللاتينيين - بشكل خاص - ينظرون إلى الولايات المتحدة على أنها مهووسة بالهيمنة عليهم، أو على الأقل الحصول على مواردهم. غير أنه مع بعض الاستثناءات - المكسيك وكوبا في المقام الأول - فإن ما يحدث في أمريكا اللاتينية ذو أهمية هامشية للولايات المتحدة، ونادرًا ما احتلت المنطقة مكانًا مهمًا في التفكير الأمريكي. ويتعلق جزء من هذا بالمسافة؛ فالمسافة بين واشنطن وريو دي جانيرو تزيد حوالي ألف ميل عن تلك التي بينها وبين باريس. وعلى عكس القوى الأوروبية والآسيوية، لم يكن للولايات المتحدة قط حرب موسعة مع العالم اللاتيني جنوب بنما. ولكن في النهاية، ومرة أخرى باستثناء المكسيك وكوبا، لا تتعارض مصالح الولايات المتحدة الأساسية مع مصالح أمريكا اللاتينية.

كان للولايات المتحدة اهتمام محدود بالمنطقة، يعود إلى حد ما إلى التشظي هناك؛ الأمر الذي منع ظهور قوة متعدية للقارة. وتبدو أمريكا الجنوبية كيانًا جغرافيًا واحدًا، ولكن الواقع هو أن القارة تقسمها حواجز جغرافية كبيرة، أولًا: تمتد جبال الأنديز شمالًا وجنوبًا، وهي سلسلة جبال أعلى بكثير من جبال الروكي والألب وبها القليل من الممرات التي يمكن اجتيازها. وبعد ذلك، تمثل الغابة الأمازونية الشاسعة في وسط القارة حاجزًا، لا يمكن اختراقه كذلك.



(خريطة) الحواجز التضاريسية في أمريكا الجنوبية

الواقع أن هناك ثلاث مناطق مميزة في أمريكا الجنوبية، كل منها مفصول عن الآخرين إلى حد أن التجارة البرية صعبة والوحدة السياسية مستحيلة. والبرازيل قوس على امتداد ساحل الأطلسي، حيث الأمازون التي يصعب العيش فيها هي منطقتها الداخلية، وتقع منطقة منفصلة جنوب البرازيل على امتداد الأطلسي، وتتكون من الأرجنتين وأوراجواي وباراجواي، والأخيرة ليست على الساحل، وإنما جزء من كتلة الدول هذه. وفي الغرب هناك الدول الأنديزية، وهي: تشيلي وبوليفيا وبيرو والإكوادور وكولومبيا وفنزويلا. وقبالة البر الرئيسي الجزر الكاريبية، وهي ليست لاتينية بالكامل بالطبع، وأهميتها كمنصات، دون أن يكون لها هي نفسها وزن.

الصلة الوحيدة بين البرازيل والدول الجنوبية جسر أرضي ضيق إلى حد ما عبر أوراجواي. والدول الأنديزية موحدة فقط؛ بمعنى أنها جميعًا تشترك في جغرافيات لا يمكن اختراقها. وقد تصبح المنطقة الجنوبية على امتداد الأطلسي متكاملة، ولكن يوجد هناك بلد واحد مهم في واقع الأمر هو الأرجنتين، بالإضافة إلى ذلك، ليس هناك جسر أرضي يمكن عبوره بين جنوب أمريكا وشمالها؛ بسبب تضاريس أدغال أمريكا الوسطى. وحتى إذا كان هناك جسر، فإن كولومبيا فقط، وربما فنزويلا، هي التي يمكنها الاستفادة منه.

الأمر المهم بالنسبة للسياسة الأمريكية في أمريكا اللاتينية باستمرار، هو أنه لكي تصبح الولايات المتحدة مهتمة، لابد من اجتماع عنصرين؛ إذ يجب أن تكون مساحة مهمة استراتيجيًا (ولا يوجد منها كثير في المنطقة) في أيدي قوة قادرة على استخدامها لتمثل تهديدًا. وقد أعلن «مبدأ مونرو» لتوضيح أن هذا الاحتمال كان التطور الجيوبوليتيكي الوحيد غير المقبول، فيما كان يتعلق بالولايات المتحدة.

أثناء الحرب العالمية الثانية، أصبح وجود عملاء الألمان والمتعاطفين معهم في أمريكا الجنوبية قضية خطيرة بين الاستراتيجيات في واشنطن، التي تصورت وصول القوات الألمانية إلى البرازيل من دكار عبر الأطلسي. وبالمثل، أثناء الحرب الباردة، أصبحت الولايات المتحدة مشغولة بحق بشأن النفوذ السوفيتي في المنطقة،

وتدخلت من حين إلى آخر لمنعه. لكن لا الألمان ولا السوفيت بذلوا جهودًا استراتيجية جادة للسيطرة على أمريكا الجنوبية؛ لأنهم فهموا أن القارة في الغالب لا تتناسب مع المصالح الأمريكية. وبدلاً من ذلك، كان المقصود من جهودهم مجرد إزعاج واشنطن وتشتيت الموارد الأمريكية.



(خريطة) كوبا والكاريبي

في وقت مبكر من القرن التاسع عشر، قام الرخاء الأمريكي على منظومة الأنهار، التي مكنت المزارعين في منطقتي لويزيانا وأوهايو من شحن إنتاجهما الزراعي إلى الساحل الشرقي وأوروبا. وهذه السلع جميعها كانت تتدفق أولاً على مدينة نيو أورليانز، ثم تُنقل بعد ذلك من الصنادل إلى السفن العابرة للمحيط. وحاربت الولايات المتحدة للحفاظ على أمان أورليانز؛ في البداية معركة نيو أورليانز في عام 1814، وبعد ذلك حرب استقلال تكساس. ومازالت نيو أورليانز والموانئ القريبة هي الأكبر من حيث حمولة السفن في الولايات المتحدة؛ الأمر الذي يمكن من شحن حبوب الغرب الأوسط إلى الخارج، وشحن الصلب، وغيره من السلع الصناعية منها. لأن قوة بحرية في كوبا يمكن أن تتحكم في الطرق البحرية داخل خليج المكسيك



وخارجه، ويمكنها بالتالي السيطرة على نيو أورليانز، كانت الولايات المتحدة مشغولة باستمرار بالجزيرة. وفكر أندرو جاكسون Andrew Jackson في غزوها، وفي عام 1898 تدخلت الولايات المتحدة لطرد الإسبان. وبعد نصف قرن، عندما ظهرت هناك حكومة موالية للسوفيت بزعامة فيدل كاسترو Fidel Castro، أصبحت كوبا محور الاستراتيجية الأمريكية، وكانت كوبا المعادية لأمريكا دون السوفيت أمراً تافهاً، بينما كانت كوبا المعادية لأمريكا مع الصواريخ السوفيتية تهديداً مميّناً.

عندما ننظر تجاه العقد المقبل، فإنه ليست لكوبا قوة عظمى راعية، ولذلك يمكن للرئيس صياغة سياسته الكوبية بناءً على الرأي السياسي الأمريكي، ولكن عليه أن يتذكر أنه إذا كانت الولايات المتحدة ستواجه منافساً عالمياً، فسوف تكون كوبا هي النقطة الجغرافية التي يضع فيها المنافس أكبر ضغط على الولايات المتحدة، ويجعل هذا من كوبا الجائزة التي يستهدفها.

على المدى البعيد، وضع كوبا من جديد تحت جناح النفوذ الأمريكي سياسة استباقية معقولة، والقيام بذلك أمر مرغوب بشدة قبل ظهور منافس عالمي يزيد المخاطر والتمن. وسوف يموت فيدل وراؤول أو يتقاعدان أثناء العقد الذي نحن بصدد، والنخبة السياسية والاستخباراتية التي تسيطر على الجزيرة أصغر سناً وتحركهم المصالح الشخصية، أكثر من الجيل المؤسس لنظام كاسترو. وبدلاً من المقامرة بشأن ما إذا كانوا سيبقون بعد موت المؤسسين أم لا، فإنهم سوف يكونون على استعداد لقبول تسوية، ويسهل إقناعهم بالصفقات التي تسمح لهم بالاحتفاظ بمناصبهم، بينما يمنحون أمريكا نفوذاً متزايداً على سياستهم الخارجية، وسيكون التحول هو اللحظة التي تجرب فيها الولايات المتحدة التعامل. وقبل أن يترك كاسترو السلطة، ربما يكونون على استعداد لقبول صفقة تحفظ ميراثهم، بينما يخضعون للنفوذ الأمريكي. وإذا فشل ذلك، فقد يكون عدم الانتقال لحظة مقاربة ورثتهم؛ فمصلحة الولايات المتحدة بسيطة ولا علاقة لها بحقوق الإنسان أو تغيير النظام.

إنها وجود ضمانات بغض النظر عن التحديات المستقبلية، وأن كوبا لن تصبح قاعدة للقوى الأجنبية. وتحقيق ذلك، ستكون الولايات المتحدة قد حققت الكثير.<sup>(1)</sup>

فتزويلا دولة أخرى من دول أمريكا اللاتينية، التي نجحت في جذب الاهتمام بظهورها كتهديد كبير للولايات المتحدة. وهي ليست كذلك، فأولاً: يعتمد الاقتصاد الفنزويلي على تصدير النفط، ويجعل واقع الجغرافية واللوجستيات من المحتم أن تصدّر فنزويلا نفطها إلى الولايات المتحدة، وثانياً: عزلة فنزويلا الطبيعية - حيث نهر الأمازون إلى الجنوب والكاربيبي (الذي يهيمن عليه الأسطول الأمريكي) في الشمال، وكولومبيا المعادية والمستقرة في الغرب، على الجانب الآخر من الجبال والأدغال - تجعل البلاد غير مناسبة لمقتضى الحال لولا ذلك، حتى وإن ظهر الإسلاميون - على سبيل المثال - وحاولوا استغلال الشقاق الحالي بينها وبين الولايات المتحدة. وحتى وإن سعى مُتَّحِدِ عالمي جديد إلى التحالف مع فنزويلا، واستغلالها كمنصة لإطلاق الأذى، لا يسمح موقع البلد بوجود قاعدة جوية أو بحرية كبيرة. ومن الواضح أنه سيكون مرغوباً جعل فنزويلا تغير نظرتها الاستراتيجية بحلول ثلاثينيات القرن الحالي، ولكن هذا ليس مهمّاً للمصالح الأمريكية.

فتزويلا حالة ينبغي فيها للسياسة الخارجية الأمريكية تنظيم نفسها لتجاهل الأيديولوجيا والإزعاج، والتركيز على الاستراتيجية. ومع كل احتمال، سوف يفقد

(1) بعد اتصالات حثيئة، تمكّن الفاتيكان من تقريب المسافة بين هافانا وواشنطن، وأجريت مكالمات قرابة الساعة ما بين الرئيس الأمريكي، باراك أوباما، ونظيره الكوبي، راؤول كاسترو، بعد جفاء وانقطاع دبلوماسي دام طوال 50 عاماً، وسبقت الاتصال مقابلات ومناورات دبلوماسية في كندا، بتشجيع الفاتيكان ومباركته. وستؤدي هذه المحاولات إلى تطبيع العلاقات تدريجياً بين البلدين. وفي ديسمبر من عام 2014، أعلن الرئيس الأمريكي باراك أوباما ونظيره الكوبي راؤول كاسترو عن بدء «فصل جديد» في العلاقات بين البلدين بعد تعليقها في 1961، وفي يناير من عام 2015 وصل وفد من الكونجرس الأمريكي إلى هافانا في زيارة هي الأولى من نوعها، منذ اتفاق الولايات المتحدة وكوبا على إعادة العلاقات الدبلوماسية، والتقى الوفد مع مستولين كوبيين لمناقشة الإجراءات العملية اللازمة لتطبيع العلاقات بين البلدين (المترجم).

هوجو تشافيز Hugo Chávez السلطة داخل النظام الذي خلقه<sup>(\*)</sup>. والواقع أنه إذا كان يتعين على الولايات المتحدة عقد صفقة مع كوبا في الوقت المناسب، فمن الممكن أن يكون جزء من الصفقة سحب التأييد الكوبي لتشافيز. ولكن حتى إذا بقي في السلطة، فهو لا يمثل تهديدًا لأحد سوى شعبه.

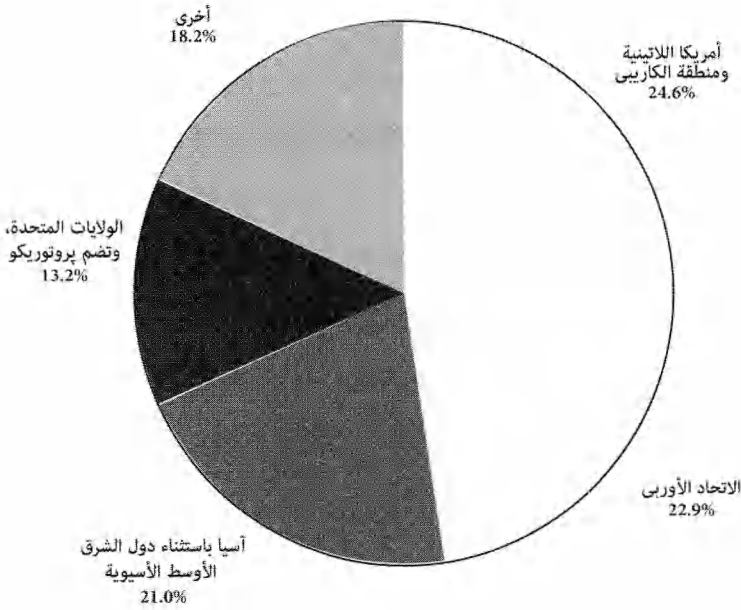
### استراتيجية البرازيل والأرجنتين

هناك بلد أمريكي لاتيني واحد يحتمل ظهوره كمنافس للولايات المتحدة في حد ذاتها، وهو البرازيل. إنها أول قوة اقتصادية مستقلة، وربما عالمية، تظهر في تاريخ أمريكا اللاتينية، وقد حمت نفسها من الوقوع في الاختيارات الخاطئة بشكل لطيف. البرازيل ثامن أكبر اقتصاد في العالم، وخامس أكبر بلد من حيث الحجم وعدد السكان. وكشأن معظم البلدان النامية، لديها توجه قوي نحو التصدير، ولكن صادراتها متوازنة بشكل جيد؛ فثلثاها من السلع الأولية (الزراعية والمعدنية)، والباقي منتجات مصنعة. والتوزيع الجغرافي لصادراتها رائع كذلك، حيث تذهب كميات متساوية إلى أمريكا اللاتينية والاتحاد الأوروبي وآسيا. وتذهب كمية صغيرة نسبيًا، ولكنها ليست ضئيلة، إلى الولايات المتحدة، ويعني الوضع التصديري المتوازن هذا أن البرازيل أقل عرضة للهبوط الاقتصادي من الاقتصادات الأكثر تركيزًا.

ليست البرازيل في الوقت الراهن قوة تهدد الولايات المتحدة إلى حد كبير أو شديدة الأهمية بالنسبة لها، كما أن الولايات المتحدة لا تمثل تحديًا للبرازيل. وهناك القليل من الاحتكاك الاقتصادي، وتمنع الجغرافيا البرازيل من تحدي الولايات المتحدة بسهولة، وسوف يكون الامتداد البرازيلي شمالًا غير معقول. لأن التضاريس التي في الشمال بالغة الصعوبة في اجتيازها، وليس هناك شيء في الشمال تحتاجه البرازيل. فالنقط الفنزويلي، على سبيل المثال، لا يمكن شحنه إلى البرازيل بسبب

(\*) توفي هوجو تشافيز في 5 مارس من عام 2013 بمرض السرطان، وكان لا يزال في السلطة (المترجم).

التضاريس، ولدى البرازيل إمدادات وفيرة خاصة بها على أية حال.



(رسم بياني) علاقات البرازيل التجارية

التحدي الوحيد الذي يمكن أن تمثله البرازيل للولايات المتحدة، هو إذا استمر توسعها الاقتصادي بما يكفي لخلق قوة جوية وبحرية للسيطرة على الأطلسي، فيما بين ساحلها وغرب إفريقيا، وهي منطقة لا تقوم فيها الولايات المتحدة بدوريات مكثفة، على عكس المحيط الهندي وبحر الصين الجنوبي. ولن يحدث هذا في العقد المقبل، ولكن بينما ترتفع معدلات الأجور البرازيلية، فإن العوامل الجغرافية من الكثرة بحيث يمكن أن تحمل الاستثمارات البرازيلية في إفريقيا تكاليف نقل أقل من الاستثمارات في أجزاء من أمريكا اللاتينية. وبذلك ستكون هناك ميزة لدى البرازيل في تطوير العلاقات مع البلدان الواقعة جنوب الصحراء، وبشكل خاص أنجولا الناطقة بالبرتغالية كالبرازيل، وقد يؤدي هذا إلى أطلسي جنوبي لا تسيطر عليه البرازيل فحسب، بل بقوات بحرية برازيلية، متمركزة على السواحل البرازيلية والإفريقية.

على الرغم من أن البرازيل ليست بحال من الأحوال تهديدًا للمصالح الأمريكية، فالاستراتيجية الأمريكية الأساسية الخاصة بخلق توازنات القوى في كل المناطق والحفاظ عليها تتطلب أن تبدأ الولايات المتحدة العمل الآن لخلق قوة موازنة، وليس هناك ما يدعو للعجلة في استكمال الاستراتيجية، غير أن هناك مصلحة في بدئها.

في العقد المقبل، وبينما يتم الحفاظ على العلاقات الودية مع البرازيل، ينبغي على الولايات المتحدة كذلك أن تفعل كل شيء يمكنها لتقوية الأرجنتين؛ ذلك البلد الذي يمكن أن يكون بمثابة ثقل موازن. وينبغي تذكر أنه في وقت مبكر من القرن العشرين، كانت الأرجنتين قوة كبيرة في أمريكا اللاتينية. وضعفها الحالي ليس حتميًا. وينبغي على الولايات المتحدة العمل على تطوير علاقة خاصة مع الأرجنتين، في سياق خطة التطور الأمريكي اللاتيني العامة، التي تشمل كذلك الموارد المخصصة للأوراجواي والباراجواي.

هذه منطقة يمكن لأقل المبالغ المالية تواضعًا تحقيق فوائد هائلة فيما بعد؛ فجغرافيا الأرجنتين مناسبة للتطوير؛ فهي بها العدد الكافي من السكان والمساحة الكافية لمزيد من البشر، كما أن بها قاعدة زراعية قوية وقوة عاملة قادرة على خلق قاعدة صناعية. وهي محمية من كل الغزوات العسكرية، عدا تلك الآتية من البرازيل. الأمر الذي يجعل لديها حافزًا للقيام بالدور، الذي تريدها الولايات المتحدة أن تقوم به.

التحدي في الأرجنتين سياسي. فمن الناحية التاريخية، ركزت حكومتها المركزية اهتمامها على معالجة المشكلات الاجتماعية بطرق، تدمر التنمية الاقتصادية في واقع الأمر. وبعبارة أخرى، يميل السياسة إلى كسب الشعبية بإفناق الأموال التي لا يملكونها، وعاشت الأرجنتين كذلك فترات من الدكتاتورية العسكرية وغيرها مع فرض التشف، وهي دورة لا تختلف فيها بشكل كبير عن غيرها من البلدان الأمريكية اللاتينية، ومنها البرازيل.

سوف يرى البرازيليون أن هناك تهديدًا طويل الأمد في الدعم الأمريكي للأرجنتين، ولكنهم سيكونون مشغولين بشكل مثالي بتمتيمهم والضغط الداخلي

التي تولدها. ورغم ذلك، ينبغي أن تكون الولايات المتحدة مستعدة لأن يقدم البرازيليون حوافز اقتصادية للأرجنتين، تربط اقتصادها على نحو وثق باقتصادهم. ومع ذلك هناك عاملان في مصلحة الأمريكيين؛ فالبرازيل -أولاً- مازالت بحاجة للحفاظ على رأسمالها الاستثماري من أجل الاستخدام المحلي. ثانياً: تخاف الأرجنتين منذ زمن طويل من الهيمنة البرازيلية، وعليه فإنه في ظل وجود اختيار بين البرازيل والولايات المتحدة سوف تختار الأخيرة.

ينبغي أن يكون الهدف الأمريكي هو فقط تقوية قدرات الأرجنتين الاقتصادية والسياسية؛ لكي ينافس نمو الأرجنتين النمو البرازيلي على مدى العشرين أو الثلاثين عامًا المقبلة؛ إذ بدأت البرازيل تظهر كتهديد محتمل للولايات المتحدة. وسوف يتطلب ذلك تقديم الولايات المتحدة حوافز للشركات الأمريكية؛ كي تستثمر في الأرجنتين، خاصة في مجالات خارج المنتجات الزراعية، حيث يوجد استثمار كاف بالفعل. وينبغي أن تكون الولايات المتحدة مستعدة كذلك لتقريب الجيش الأمريكي أكثر إلى الجيش الأرجنتيني، ولكن من خلال الحكومة المدنية؛ كي لا يثير مخاوف من تأييد الولايات المتحدة الجيش الأرجنتيني، كقوة في سياسة البلاد الداخلية.

لا بد أن يحرص الرئيس الأمريكي على أن يبين نواياه الحقيقية في هذا الأمر، وألا يندفع. ويمكن أن يولّد برنامج فريد للأرجنتين رد فعل برازيلي سابقاً لأوانه، ولذلك ينبغي ضم البرازيل في أي برنامج أمريكي، إن هي أرادت المشاركة. وإذا لزم الأمر، يمكن عرض مسعى النوايا الحسنة هذا كله على أنه محاولة لاحتواء هوجو تشافيس في فنزويلا، وسوف يكلف الأمر مالمًا، ولكنه سيكون أرخص كثيرًا، على أية حال، من مواجهة البرازيل في ثلاثينيات القرن الحالي أو أربعينياته بشأن السيطرة على الأطلسي الجنوبي.

## المكسيك

كشأن كوبا، المكسيك حالة خاصة في العلاقات الأمريكية، والسبب الواضح هو أنها تشترك مع الولايات المتحدة في حدود طويلة، تمتد من تكساس إلى كاليفورنيا. ومع ذلك فالمكسيك مجتمع في مرحلة مختلفة جدًا من التنمية عن كندا، الجارة التي في الشمال، وبالتالي يتفاعل مع الولايات المتحدة بطريقة مختلفة جدًا. وليس هناك مكان آخر السياسة الداخلية والمصلحة الجيوبوليتيكية فيه أكثر مباشرة، وربما على نحو أكثر عنفًا مما عليه الحال على امتداد الحدود الصحراوية جنوب مقاطعة إل باسو وغربها.

هذان البلدان كانت لهما علاقة معقدة وعنيفة عبر تاريخهما؛ ففي عام 1800، إذا ما سُئِلَ شخص عاقل: أي القوى ستكون هي المهيمنة في أمريكا الشمالية بعد مائتي عام؟ كانت الإجابة المنطقية أنها المكسيك. فقد كانت أكثر تطورًا وتقدمًا (وأفضل تسليحًا) بكثير من الولايات المتحدة في ذلك الحين. ولكن بعد أن وسعت الولايات المتحدة أراضيها بشكل كبير، من خلال شراء لويزيانا، دفعت المكسيك إلى حدودها الحالية، بالاستيلاء على تكساس أولاً، ثم بخوض الحرب المكسيكية الأمريكية، التي طردت المكسيك من حيازاتها، التي كانت تصل شمالًا حتى دنفر وسان فرانسيسكو الحاليين.

كان سبب النجاح الأمريكي في الاستيلاء على تلك الأراضي الغربية جغرافيًا تمامًا؛ فمقارنة بالمنطقة المحيطة بمدينة المكسيك، فإن الجزء الشمالي من البلاد يقل فيه عدد السكان، بل كان أقل مما هو عليه الآن في القرن التاسع عشر. والسبب هو أن الأرض الممتدة من الحدود الشمالية إلى داخل الولايات المتحدة والجنوبية إلى داخل المكسيك شديدة الجفاف وقاحلة، وهي شديد القحط والجفاف على الجانب المكسيكي، وكان ذلك يعني أن المكسيكيين وجدوا صعوبة في الاستقرار ودعم السكان شمالي الصحراء، ووجدوا صعوبة أكبر في تحريك الجيوش شمالًا. وخلال انتفاضة مستوطني أنجلو في تكساس، حرك الرئيس المكسيكي والقائد العسكري

سانتا آنا Santa Anna جيشًا من الفلاحين، شمالًا عبر الصحراء إلى سان أنطونيو. وحينذاك شلت فترة من الطقس البارد حركة كثير من جنوده القادمين من أدغال الجنوب، وكانوا حفاة بلا أحذية. وكان جيش سانتا آنا مجهدًا عند وصوله، وبينما هزم مدافعي الأمو، فقد هُزم هو نفسه في سان هاسيتو بالقرب من مدينة هيوستن الحالية، بواسطة قوة كانت تتمتع بميزتين فحسب، وهو أنها لم تكن مجهدة ولم تكن حافية.

خلق وضع حدود جديدة بين الولايات المتحدة والمكسيك واقعاً جديدًا، وهو أن السكان على الجانبين يمكنهما التنقل بحرية ذهابًا وإيابًا، حيث يهاجرون مع الفرص الاقتصادية، ويشاركون في تهريب ما هو غير مشروع على الجانب الآخر. وهذه المناطق الحدودية المضطربة موجودة في أنحاء العالم، بين أي بلدين لا تتوافق حدودهما السياسية وحدودهما الثقافية، في العادة لأن الحدود تحركت كما في هذه الحالة. وفي بعض الأحيان - كما حالة ألمانيا وفرنسا - تولد المناطق الحدودية الحرب. وفي أحيان أخرى، كما بين الولايات المتحدة وكندا، تغدو الحدود مسألة قليلة الأهمية، وسيكون وضع المكسيك والولايات المتحدة في العقد المقبل في مكان ما بين النقيضين.

المكسيك بلد عدد سكانه 100 مليون نسمة، يعيش معظمهم على بعد مئات الأميال من الولايات المتحدة، وترتيبها الآن الرابع عشر بين أكبر اقتصادات العالم - مع حساب التجارة المشروعة وحدها - حيث يزيد إجمالي الناتج المحلي على تريليون دولار، وتساوي صادراتها السنوية ما مقداره 130 مليار دولار تقريبًا من السلع إلى الولايات المتحدة، وقيمة وارداتها حوالي 180 مليار دولار، وهو ما يجعلها ثاني أكبر شريك تجاري مع الولايات المتحدة بعد كندا. ومن الواضح أن الولايات المتحدة لا يمكنها فك ارتباطها بالمكسيك، خلال أقل من جيل بالتأكيد. كما أنها لا ترغب في ذلك.



لكن الولايات المتحدة تواجه مشكلتين، هما: صادرات المكسيك غير المشروعة من العمال المهاجرين، وصادرات المكسيك غير المشروعة من المخدرات. وفي الحالتين، فإن القضية الأساسية هي شهية النظام الاقتصادي الأمريكي للسلع المعنوية، فدون تلك الشهية ما كان ليصبح للصادرات أهمية. وبسبب الشهية - وبشكل خاص في حالة المخدرات، بسبب عدم مشروعيتها - فإن التصدير مفيد للمكسيكيين الأفراد وللمكسيك ككل.

من المهم فهم أن الهجرة المكسيكية مختلفة بشكل كبير عن الهجرة من البلدان البعيدة كالصين وبولندا، ففي هاتين الحالتين يقطع الأشخاص علاقاتهم بالوطن الأصلي، الذي يبعد آلاف الأميال. وهناك درجة ما من الاستيعاب تكون حتمية؛ لأن البدائل هي العزلة أو الحياة داخل مجتمع منفصل ثقافيًا. ورغم أن المهاجرين يخيفون الأمريكيين، منذ وصول الأسكتلنديين والأيرلنديين لزعة استقرار التجار ومُلاك الأراضي في أمريكا القرن الثامن عشر، وهناك سبب أساسي من الناحية الجيوبوليتيكية؛ لعدم مقارنة الهجرة المكسيكية بالهجرات السابقة عليها.

ليس الأمر هو أن المكسيك ملاصقة للولايات المتحدة فحسب، بل إنه في حالات كثيرة الأرض التي ينتقل إليها المهاجرون هي أرض، كانت تخص المكسيك في يوم من الأيام. وعندما ينتقل المكسيكيون شمالاً، فهم لا يقطعون صلاتهم بالوطن بالضرورة، بل يتواجدون في منطقة حدودية، تمتد مئات الأميال داخل البلدين، والانتقال شمالاً يتطلب الحد الأدنى من التكيف الثقافي. وعندما ينتقل المكسيكيون إلى المدن البعيدة، فإنهم يتصرفون كما فعل المهاجرون التقليديون، ويصبحون جزءاً من المجتمع. وفي داخل المنطقة الحدودية يكون لديهم خيار الاحتفاظ بلغتهم وهويتهم القومية، المميزة عن الهوية القانونية التي يتبنونها، وهذا الوضع يمكن أن يخلق توترًا خطيرًا بين الحدود القانونية والحدود الثقافية.

هذا هو أساس القلق الشديد داخل الولايات المتحدة الآن بشأن الهجرة المكسيكية غير المشروعة، ويقول المتقنون إن ما يشغل الأمريكيين هو - في الإمبراطورية والجمهورية في عالم متغير |

واقع الأمر - بُغِض كل الهجرة المكسيكية، وهم ليسوا مخطئين بالكامل، ولكن هذا التحليل لا يقيّم أسس الخوف تقيّمًا كاملاً؛ فغير المكسيكيين داخل المناطق الحدودية، وحتى فيما بعدها، يخشون أن يطغى عليهم المهاجرون ويجدون أنفسهم يعيشون ثقافيًا في المكسيك، كما أنهم يخشون أن تكون الحركة شمالاً إيدانًا بمطالبة المكسيكيين بالأراضي المكسيكية سابقًا. وربما تكون المخاوف مبالغًا فيها، لكنها لا تفتقر إلى المعقولة؛ كما أنه لا يمكن تجنبها.

المفارقة بالطبع هي أن الاقتصاد الأمريكي يتطلب وجود هؤلاء المهاجرين؛ باعتبارهم عمالًا منخفضي الأجر، والسبب الوحيد في أن الأشخاص يخاطرون بالمجيء إلى الولايات المتحدة، بشكل غير قانوني، هو التأكد من أنهم سيتمكنون من الحصول على فرص عمل. ولو لم يكن المهاجرون مطلوبين لشغل فرص العمل تلك، لكانت فرص العمل تلك قد سُغلت بالفعل، وما كان المهاجرون ليأتوا.

الحجة المضادة هي أن المهاجرين يأخذون فرص العمل من آخرين، أو أن مطالبتهم بالخدمات الاجتماعية تفوق المزايا الاقتصادية التي يوفرونها - ليست سطحية تمامًا، ولكن بها بعض نقاط الضعف - أولاً: 10 بالمائة من العاطلين في الولايات المتحدة تترجم إلى 15 مليون شخص خارج العمل. ويقدر مركز بو الهسباني (تعني التسمية المواطنين الأمريكيين ذوي الأصول الإسبانية - المحرر) Hispanic Center Pew أن هناك 12 مليون مهاجر غير شرعي في الولايات المتحدة. وإذا كانت نظرية الإحلال صحيحة، فإن التخلص من المهاجرين غير الشرعيين سوف يخلق 12 مليون فرصة عمل، ويتبقى 3 ملايين عاطل فحسب، ويصبح معدل البطالة 2 بالمائة فقط. وكون سيناريو الإحلال هذا يبدو غير منطقي بالحدس يدل على أن معظم العمالة غير الماهرة منخفضة التكلفة، التي يتم استيرادها لا تنافس القوة العاملة الحالية؛ فالاقتصاد الأمريكي يتطلب عمالًا إضافيين، ولكنه لا يريد زيادة تجمع المواطنين بشكل كبير. ولدى الاقتصاد المكسيكي فائض عمالة، لا بد أن يصدره، والنتيجة يمكن توقعها.

وهذه المشكلة سوف تستفحل؛ لأن خصوبة النساء غير المهاجرات هبطت إلى ما دون معدل الإحلال، وهذا في وقت زاد فيه متوسط العمر المتوقع. ويعني هذا أنه سيكون لدينا سكان شائخون وقوة عاملة منكمشة، وهي الحالة التي ألمت بالعالم الصناعي بصورة عامة. ويعني هذا أن تلك البلدان سوف تستورد العمالة لرعاية المسنين ولتوسيع قوة العمل. وبدلاً من أن يقل الضغط على استيراد العمال، سوف يزداد، بل إنه مع تحسن اقتصاد المكسيك الداخلي، فسوف يظل لديها فائض عمالة قابل للتصدير.

ما يضاعف الاضطراب على امتداد الحدود، هو قانون العرض والطلب وتكلفة السلع المخصصة للشهية الأمريكية للمخدرات؛ فالهيروين والكوكايين والماريجوانا، وهي المخدرات المفضلة، أصلها منتجات زراعية رخيصة التكلفة؛ إذ إنها حشائش في المقام الأول تكاد لا تتطلب رعاية. ولأن المخدرات غير مشروعة في الولايات المتحدة، فلا حكم لقوى السوق المعتادة عليها. وتطرد مخاطرة بيع المخدرات القانونية المنافسين الأكفاء خارج السوق، حيث تُمكن المنظمات الإجرامية من خلق الاحتكارات الإقليمية، من خلال العنف الذي يمنع المزيد من المنافسة؛ مما يؤدي إلى تضخم تكلفة المخدرات.

تعني عدم المشروعية أن مجرد نقل منتج ما لبضع مئات من الأميال من المكسيك إلى لوس أنجلوس، سوف يزيد السعر على المتعاطي أضعافاً كثيرة. وتتراوح التقديرات الرسمية للمبالغ المالية التي تندفق على المكسيك من مبيعات المخدرات ما بين 25 مليار دولار و40 مليار دولار في العام، وتجعل التقديرات غير الرسمية المبلغ أعلى بكثير. لكن حتى مع افتراض صحة رقم 40 مليار، فإن الرقم الفعلي مرتفع على نحو مرعب، وعندما ننظر إلى العائدات من منتج ما، فإن المبلغ الذي تبيع به ليس هو المهم، وإنما المهم هو هامش الربح. بالنسبة للمنتج المُصنَّع - كالمكوثونات الإلكترونية التي تصدرها المكسيك للولايات المتحدة بشكل قانوني - فإن هامش الربح 10 بالمائة مرتفع بشكل كبير. ولنفترض أن هذا هو هامش ربح

كل الواردات القانونية من المكسيك إلى الولايات المتحدة، حيث تُدَّ تولَّد صادرات المكسيك التي تبلغ قيمتها 130 مليار دولار ربخاً قدره 13 مليار دولار.

هامش ربح مبيعات المخدرات أعلى بكثير جداً من 10 بالمائة؛ لأن التكلفة الأصلية للسلعة شديدة الانخفاض. فالماريجوانا لا تحتاج إلى تصنيع، وتكلفة تصنيع الهيروين والكوكايين لا تُذكر، والتقدير المعقول بل والمتحفظ لهامش ربح المخدرات هو 90 بالمائة، وهو ما يعني أن 40 مليار دولار من التجارة غير المشروعة تولَّد ربخاً قدره حوالي 36 مليار دولار، وحيثُ تولَّد المخدرات التدفق النقدي الحر على مستوى، يزيد ثلاث مرات - تقريباً - على كل صادرات المكسيك القانونية، التي تقدر بـ 13 مليار دولار.

حتى إذا كانت المكسيك تحقق فقط 25 مليار دولار سنويًا بهامش 80 بالمائة، فسوف يظل هذا يعني ربخاً قدره 20 مليار دولار في العام، وهو ما يظل أعلى بمقدار 7 مليارات دولار من الربح، الذي يتحقق من كل الصادرات القانونية، ولتلعب بالأرقام قدر ما تحب، بل وضح أن المخدرات تولَّد نصف ربح الصادرات القانونية فحسب. ستظل الحقيقة هي أن أموال المخدرات تساعد سيولة النظام المالي المكسيكي بشكل هائل. فالمكسيك - على سبيل المثال - بلد من بلدان قليلة، ظلت تقدم قروضاً لبناء العقارات التجارية بعد أزمة 2008 المالية.

لهذا السبب ستكون الحكومة المكسيكية بناء على ذلك حمقاء، إن هي حاولت وقف تجارة المخدرات. ومن المؤكد أن هناك عنفاً ناتجاً عن حروب الاتحادات، ولكنها بصورة عامة مركزة على الحدود، وليس في قلب المكسيك المأهول. وعندما نأخذ كل العوامل في الحسبان، فإن كل المبلغ الهائل من المال الذي يتدفق إلى داخل البلاد. يجد طريقه إلى النظام المصرفي والاقتصاد العام بطريقة ما، ويفيد البلاد أكثر من العنف ويضره التجريم. ونتيجة لذلك، ينبغي أن تكون المقاربة المعقولة هي أن تتظاهر الحكومة المكسيكية بأنها تحاول وقف تجارة المخدرات، بينما تتأكد من

فشل كل الجهود المهمة. وسوف يبقى هذا على غضب الولايات المتحدة، بينما يضمن استمرار تدفق المال.

### استراتيجية أمريكا المكسيكية

الاقتصاد الأمريكي شديد الاندماج مع اقتصاد المكسيك دائماً، على نحو لا يسمح بتعطيل التجارة القانونية، ومما يعني أن أعداداً كبيرة من الشاحنات سوف تتحرك بين الولايات المتحدة والمكسيك لأجل غير محدود. وحجم حركة المرور مرتفع على نحو كبير، يجعل من الصعب على العملاء الذين على الحدود تفتيش كل الحمولات؛ ولهذا السبب فإنه حتى إذا أقيم عازل بين الحدود، سوف يظل الأجانب غير الشرعيين والمخدرات يتسللون عبر المعابر الدولية وأماكن أخرى. وفي ظل التكلفة الرخيصة للمخدرات قبل وصولها إلى الولايات المتحدة، فإن اعتراض الشحنات له أثر قليل جداً على التجارة؛ فالشحنات يتم استبدالها بسهولة مع حدوث أثر قليل على العائد الإجمالي.

ينبغي أن يكون منع المهاجرين غير الشرعيين أسهل من المخدرات؛ لأنه من السهل التعرف على المهاجرين بمجرد وجودهم في البلاد. وأبسط وسيلة لعمل ذلك، هي عمل بطاقة هوية وطنية بورق خاص ووضع أكواد فيها تجعل تزويرها صعباً إلى حد كبير، ولا يمكن توظيف أحد قبل تمرير صاحب العمل البطاقة في نظام يُستخدم حالياً لمعاملات بطاقات الائتمان، وأي أجنبي بلا بطاقة سوف يتم ترحيله، وأي صاحب عمل استأجره سوف يُقبض عليه وتوجه له تهمة ارتكاب جنائية.

لكن من غير المحتمل إلى حد كبير استخدام هذه الطريقة البسيطة، إلى حد ما؛ لأن الكثير من الأشخاص الأكثر معارضة للهجرة غير الشرعية لديهم عدم ثقة شديدة في الحكومة الفيدرالية. ويمكن استخدام بطاقة الهوية الوطنية لتتبع حركة المال والأشخاص؛ لكشف التلاعب الضريبي والآباء المتهربين من إعالة أولادهم وكذلك مراقبة المنظمات السياسية، الأمر الذي قد يؤدي بسهولة إلى الإيذاء الحكومي. وسوف يمنع الخلاف داخل الائتلاف المعارض للمهاجرين تأييد هذا النظام.

لكن هناك سببًا أعمق لعدم اتخاذ هذه الخطوة السهلة نسبيًا، وهو أن شريحة المجتمع التي تستفيد من الأعداد الكبيرة من العمال رخيصة التكلفة أكبر، من الشريحة المضارة منهم، وأكثر نفوذًا منها. ولهذا السبب وكما هو الحال مع الحكومة المكسيكية والمخدرات - فإن أفضل استراتيجية أمريكية هي أن تبدو، وهي تعمل كل شيء ممكن لوقف حركة المهاجرين، بينما هي متأكدة من فشل هذه الجهود. هذه هي الاستراتيجية الأمريكية بشأن المهاجرين غير الشرعيين لسنوات عديدة، حيث تخلق توترًا بين المصالح الاقتصادية قصيرة ومتوسطة المدى والمصالح الاقتصادية طويلة المدى. والمشكلة طويلة المدى هي التغيير في الديموغرافيا - وفي الولاءات المحتملة - في منطقة الحدود، ولا بد أن يختار الرئيس بين الخيارين، ومساره المعقول الوحيد، هو ترك المستقبل يهتم بنفسه. وفي ظل القوى المهمة بالحفاظ على الوضع القائم، كان من المتوقع لأي رئيس يتخذ الخطوات اللازمة لوقف الهجرة غير المشروعة أن يفقد السلطة بسرعة. ولهذا السبب فإن أفضل استراتيجية للرئيس هي مواصلة الاستراتيجية الحالية، أي النفاق.

وبالمثل، فإن قضية المخدرات لها حل بسيط نسبيًا لن ينفذ، وهو شرعتها، فإذا جرت شرعة المخدرات واتخذت خطوات بإغراق البلاد بالمخدرات، فسوف تنخفض أسعار الشارع، وتنهار اقتصاديات التهريب، ويتضاءل العنف على امتداد الحدود الذي يحركه كل المال بسرعة. وإلى جانب ذلك، سيكون هناك انخفاض في عنف الشوارع بين مدمني المخدرات الساعين؛ لسرقة ما يكفي من المال للحصول على جرعة مخدر.

الجانب السلبي في هذه الاستراتيجية هو أنه ستكون هناك زيادة غير معروفة في كمية تعاطي المخدرات وفي عدد المتعاطين؛ فالمتعاطون الحاليون - الذين لم يعد السعر يقيدهم - سوف يزيدهم تعاطيهم. ومن المؤكد تقريبًا أن بعض الأفراد الذين

لا يرغبون في تعاطي المخدرات، بطريقة غير مشروعة، سوف يبدأون في تعاطي المخدرات بمجرد رفع التجريم عنها.

سوف يتعين على الرئيس حساب فوائد وقف تدفق المال إلى المكسيك، والحد من العنف في المناطق الحدودية ضد تعاطي المخدرات المتزايد، وما هو أسوأ، كما سيتعين عليه الظهور مؤيدًا لتلك الزيادة أو على الأقل غير مبال بها. وفي هذه الحال، يعود الأمر إلى الكونجرس كذلك؛ ولذلك فإنه ليس قرارًا خاصًا بالسياسة الخارجية، وليس هناك تحالف سياسي مهم في الولايات المتحدة مستعد لتبني مبدأ سحق تجارة المخدرات غير المشروعة بالسرعة. ولذلك، فإنه كما هو الحال مع بطاقات الهوية الوطنية، لن يتم إقراره لأسباب أيديولوجية داخلية.

على فرض أنه لن يظهر حل سحري يطفى الشهية القومية للمخدرات، فإنه يجب على الرئيس قبول ثلاثة أمور واقعة بالفعل، وهي أن المخدرات سوف تستمر في التدفق على الولايات المتحدة، وأن مبالغ هائلة من المال سوف تستمر في التدفق على المكسيك، وأن العنف في المكسيك سوف يستمر إلى أن تحقق الاتحادات سلامًا مستقرًا، كما حدث مع الجريمة المنظمة في بلدان أخرى، أو حتى تقضي جماعة على الجماعات الأخرى.

الاستراتيجية الوحيدة الأخرى التي قد تستخدمها الولايات المتحدة للتعامل مع الصراع هي التدخل. وسواء أكان غارة صغيرة بواسطة مكتب التحقيقات الفيدرالي أم احتلالاً عسكريًا كبير لشمال المكسيك، فتلك فكرة سيئة على نحو غير عادي، أولاً: من غير المرجح أن تنجح؛ فالولايات المتحدة عاجزة عن مراقبة المخدرات في الداخل، وبذلك فإن فكرة مراقبة المخدرات في بلد أجنبي بعيدة المنال. وبالنسبة للاحتلال العسكري الكبير، فقد تعلمت الولايات المتحدة أن قواتها المسلحة في موقع، يمكنها من تدمير الجيوش المعادية، ولكنها أقل براعة بكثير في سحق رجال حرب العصابات، الذين يقاومون الاحتلال على أرضهم.

سوف يؤدي التدخل الأمريكي إلى ربط اتحادات المخدرات بالنزعة القومية المكسيكية، وهي فكرة موجودة بالفعل في المكسيك، وبالتالي سوف تمثل تهديدًا على جانبي الحدود، ولن تكون الهجمات المفاجئة على القوات الأمريكية - حتى داخل الولايات المتحدة - مجرد أعمال عصابات، بل أعمال وطنية. وفي ظل التعقيدات التي تواجهها الولايات المتحدة في بقية أنحاء العالم، فإن آخر ما تحتاجه، هو حرب كاملة على الحدود المكسيكية.

لا بد أن يكون على رأس أولويات الرئيس التأكيد من أن العنف في شمال المكسيك وفساد مسؤولي تنفيذ القانون لا ينتقل إلى داخل الولايات المتحدة. ولهذا السبب، يتعين عليه تخصيص قوات كبيرة للمنطقة الحدودية الشمالية في مسعى لقمع العنف، وإن كانت هذه استراتيجية معيوية. فمن عيوبها خوض حرب، تسمح للعدو بأن يكون لديه ملاذ آمن على الجانب الآخر من الحدود، وهي فكرة شديدة السوء كما تعلمنا في فيتنام، كما أنها استراتيجية دفاعية تمامًا، لا توفر للولايات المتحدة السيطرة على الأحداث في المكسيك. غير أنه في ظل كون كسب السيطرة على الأحداث في المكسيك أمرًا غير مرجح - إلى حد بعيد - ربما يكون الوضع الدفاعي هو أفضل المتاح.

ستظل الاستراتيجية الأمريكية غير آمنة بطبيعتها؛ فهي لا تعترم وقف الهجرة، ولا توقع وقف المخدرات، ولا يجب عليها التظاهر بأنها ملتزمة بكليهما. وتبدو هذه لأمركيين كثيرين قضايا مهمة، تؤثر على حياتهم الشخصية، ولا يجب أن يُقال لهم إن الخطة الأعظم للأمور، أو إحساسهم بما هو مهم لا يهم، أو إن الولايات المتحدة عاجزة عن تحقيق الأهداف التي تراها مهمة.

من الأفضل كثيرًا للرئيس أن يبدو ملتزمًا تمامًا بهذه الأهداف، وأن يرجع الأمر إلى فشل بعض رؤوسه في العمل بقوة عندما لا تتحقق. ومن حين لآخر، ينبغي فصل أفراد من العاملين معه، أو من مكتب التحقيقات الفيدرالي، أو إدارة مكافحة المخدرات أو وكالة الاستخبارات المركزية أو الجيش بفضيحة، وبنبغي إجراء تحقيقات كبيرة لتحديد الفشل في النظام، الذي سمح للمخدرات والأجانب غير



الشرعيين بمواصلة عبور الحدود. وعلى مدى السنوات العشر المقبلة، سوف يشارك الرئيس في تحقيقات مستمرة؛ لتوفير وهم النشاط في مشروع لا يمكن أن ينجح. منع العنف من الانتشار شمال الحدود هو وحده مهم بما يكفي للإطاحة بأي رئيس، يفشل في القيام بذلك. ومن حسن الحظ أن عدم السماح للعنف بالانتشار في مصلحة الاتحادات كذلك؛ فهي تفهم أن العنف الكبير في الولايات المتحدة سوف يتسبب في رد يخرّب كذلك مصالحهم العملية، إن لم يكن فاعلاً. وبالإعتراف بأن الولايات المتحدة لن تتحرك جنوباً، أو بفاعلية للتدخل في تجارتهم بطريقة أخرى، سوف تكون اتحادات المخدرات غير عقلانية في نشر العنف شمالاً، وسيكون المهربون الذين يتعاملون في مبالغ هائلة من المال غير عقلانيين.



لا بد من تضمين كلمة أخيرة بشأن كندا، التي تشترك بطبيعة الحال في حدود طويلة مع الولايات المتحدة، كما أنها أكبر شريك تجاري للولايات المتحدة. وكندا هي الفكرة التي خطرت ببال الولايات المتحدة، منذ تضاعف الاهتمام البريطاني بأمريكا الشمالية القارية، وليس الأمر هو أن كندا ليست مهمة للولايات المتحدة، بل إن الأمر ببساطة هو أن كندا تحبسها في مكانها الجغرافيا والقوة الأمريكية.

عند النظر إلى الخريطة تبدو كندا بلدًا شاسعًا، وإن كانت من ناحية المناطق المأهولة صغيرة جدًا، ذلك أن سكانها موزعون على شريط على الحدود الأمريكية، وأجزاء كثيرة من كندا ذات اتجاه شمالي جنوبي، وليس اتجاهًا شرقيًا غربيًا. بعبارة أخرى، فإن حياتهم الاقتصادية والاجتماعية موجهة صوب الولايات المتحدة، على عكس كندا التي تعمل على أساس شرقي غربي.

القضية بالنسبة لكندا هي أن الولايات المتحدة صانع عملاق، وكذلك مصدر للسلع، وهناك كذلك ارتباط ثقافي عميق، وهذا يخلق مشكلات للكنديين الذين

يرون أنفسهم على أنهم ثقافة مختلفة، ويريدون أن يكونوا هكذا، ويرون كذلك على أنهم بلد مختلف. ولكن كما هو الحال مع سائر العالم، تخضع كندا لضغط شديد من الثقافة الأمريكية، والمقاومة صعبة.

يرى الكنديون أن هناك خطوط تصدع متعددة في الكونفيدرالية، أهمها الصدع الذي بين كيبيك الناطقة بالفرنسية وبقية كندا الذي يغلب عليه الناطقون بالإنجليزية. وكانت هناك حركة انفصالية خطيرة في الستينيات والسبعينيات، فازت بامتيازات بشأن استخدام اللغة، ولكنها لم تحقق الاستقلال قط. واليوم باتت هذه الحركة معتدلة، والاستقلال ليس مطروحًا للنقاش، رغم ما يمكن أن يكون عليه الحكم الذاتي من اتساع.

ترى الولايات المتحدة أن كندا لا تمثل لها أية تهديدات، وكان أكبر خطر سيأتي من كندا، إذا تحالفت مع قوة عالمية كبيرة. وهناك سيناريو وحيد بالنسبة لذلك، وهو إذا كان فلايد من تشيكي كندا. وبناء على درجة التكامل الاقتصادي والاجتماعي، سيكون من الصعب تخيل وضع، يكون فيه أحد أقاليم كندا قادرًا على تغيير علاقته دون كارثة، أو موقف تسمح فيه الولايات المتحدة بعلاقات تتطور بين أحد الأقاليم وقوة معادية، بينما تواصل العلاقات الاقتصادية. والحالة الوحيدة التي يمكن فيها تخيل ذلك، هو كيبيك المستقلة، التي يمكن أن تتخلى عن العلاقات الاقتصادية لأسباب ثقافية أو أيديولوجية.

في العقد المقبل، بطبيعة الحال، ليست هناك قوى عالمية يمكنها استغلال الفرصة، ومن غير المرجح أن تظهر الفرصة. ويعني هذا أن العلاقة بين البلدين ستظل مستقرة، بتعزيز كندا لموقفها؛ حيث يصبح الغاز الطبيعي، المتركز في غربي كندا، أكثر أهمية. والعلاقة الأمريكية الكندية ذات أهمية شديدة لكلا البلدين، بكون كندا أكثر قابلية للخضوع للولايات المتحدة وليس العكس، فقط بسبب الحجم والخيارات. ولكن نظرًا لما هي عليه من أهمية، فهي لن تكون بلدا يتطلب اهتمامًا كبيرًا أو قرارات كبيرة من جانب الولايات المتحدة في العقد المقبل.

تنقسم العلاقة الأمريكية مع نصف الكرة الغربي إلى ثلاثة أقسام، هي: البرازيل وكندا والمكسيك. والبرازيل بعيدة ومعزولة، والولايات المتحدة يمكن أن تصيغ استراتيجية احتواء بعيدة المدى، ولكنها ليست ملحة، وكندا لن تذهب إلى أي مكان.. إنها المكسيك، بمشاكلها التوأمة الخاصتين بالهجرة والمخدرات، هي القضية الأنية للولايات المتحدة. وخارج شرعنة المخدرات، التي سوف تجبر الأسعار على الانخفاض، يبقى الحل الوحيد هو السماح لحروب المخدرات بأن تحرق نفسها بنفسها، وهو ما سيحدث حتمًا، وسيكون التدخل مفاجئًا. وبالنسبة للهجرة، إنها مشكلة الآن، ولكن مع تغير الديموغرافيا ستكون هي الحل.

للولايات المتحدة وضع آمن في نصف الكرة الغربي. وأمانة الإمبراطورية هي أمنها داخل منطقتها، بينما تقع الصراعات بعيدًا دون تهديد للوطن، وبصورة عامة، فقد حققت الولايات المتحدة ذلك.



في النهاية، أكبر تهديد في نصف الكرة الغربي، هو ما تنبأ به مبدأ مونرو Monroe، وهو أن قوة خارجية كبيرة ينبغي أن تستخدم المنطقة كقاعدة، تهدد منها الولايات المتحدة، ويعني هذا أن الاستراتيجية الأمريكية الأساسية ينبغي تركيزها على أوراسيا، حيث تنشأ هذه القوى، وليس على أمريكا اللاتينية؛ الأهم فالمهم.

علاوة على ذلك، يجب ألا تتصور حكومات نصف الكرة الغربي أن الولايات المتحدة تتدخل في شئونها، وهو التصور الذي يثير شعورًا معاديًا لأمريكا؛ الأمر الذي يمكن أن يثير المتاعب. وبالطبع سوف تكون الولايات المتحدة مشاركة في التدخل في شئون أمريكا اللاتينية، وبشكل خاص الأرجنتين، ولكن هذا يجب أن يكون ضمن مناقشة لا تنتهي لحقوق الإنسان والتقدم الاجتماعي، وواقع الأمر أنه بشكل خاص في حالة الأرجنتين سوف يتم الترويج للأميرين. والدافع في مواجهة البرازيل هو الذي يجب أن يكون خفيًا، ولكن حينذاك يجب على كل الرؤساء - في

كل الأمور - أن يخفوا دوافعهم الحقيقية، وأن ينكروا بشدة الحقيقة عندما يتعرف أحد على ما سيفعلونه.

من الناحية التاريخية، كانت الولايات المتحدة تهمل قضايا نصف الكرة الغربي، ما لم تتورط قوة عالمية، أو ما لم تؤثر القضايا بشكل مباشر على المصالح الأمريكية، كما أثرت الظروف في المكسيك في القرن التاسع عشر. وخلاف ذلك، كانت أمريكا اللاتينية حلبة للعلاقات التجارية، وهذا السيناريو الأساسي لن يتغير في العقد المقبل، باستثناء أنه لا بد من العمل مع البرازيل، ولا بد من وضع خطط طويلة المدى للاحتواء، إذا دعت الضرورة.

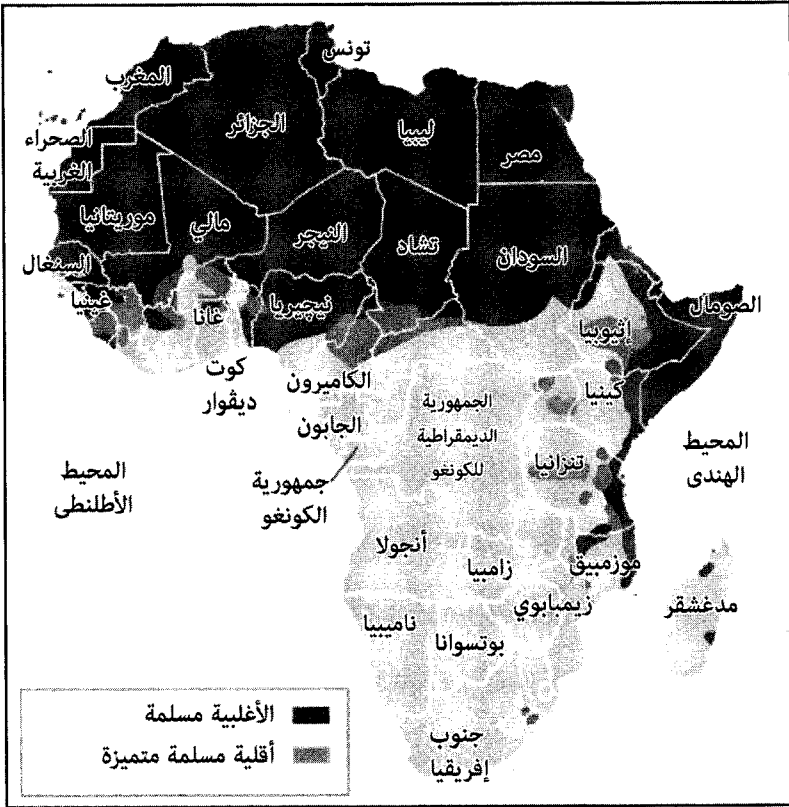
## الفصل الثاني عشر

### إفريقيا: مكان يجب تركه في حاله

تفترض استراتيجية الولايات المتحدة للحفاظ على توازن القوى بين الدول القومية في كل منطقة من العالم أمرين، أولاً: أن هناك دولاً قومية في المنطقة، وثانياً: أن بعضها لديه من القوة ما يكفي لتأكيد نفسه. وكذلك ليس هناك نظام للاستقرار أو التماسك الداخلي، وهذا هو مصير إفريقيا، وهي منطقة يمكن تقسيمها بطرق عديدة، ولكنها ليست موحدة بأية طريقة.

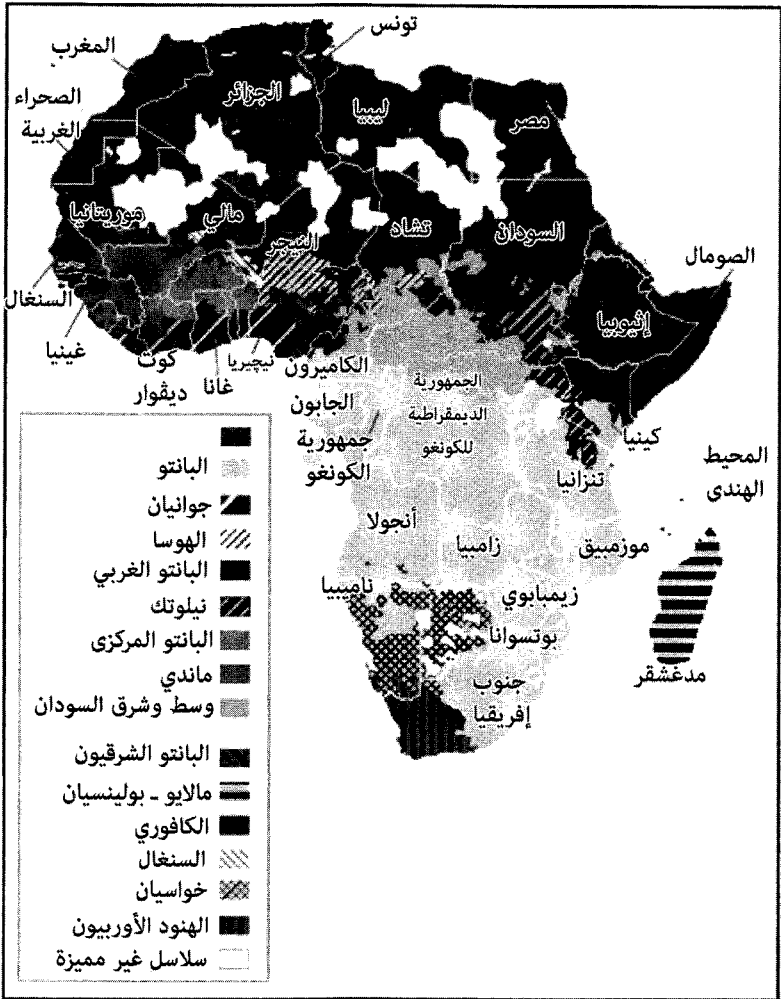
من الناحية الجغرافية، تنقسم إفريقيا بسهولة إلى أربع مناطق، أولاً: هناك شمال إفريقيا الذي يشكل الساحل الجنوبي لحوض البحر المتوسط، وثانياً: هناك الساحل الغربي للبحر الأحمر وخليج عدن، المعروف بالقرن الإفريقي. وتُعرف الصحراء الكبرى بغرب إفريقيا، وأخيراً: هناك المنطقة الجنوبية الكبيرة، التي تمتد من الجابون إلى الكونغو إلى كينيا إلى رأس الرجاء الصالح.

باستخدام معيار الدين، يمكن تقسيم إفريقيا إلى جزأين فحسب، وهما: المسلم وغير المسلم. ويغلب الإسلام على شمال إفريقيا والمناطق الشمالية من غرب إفريقيا والساحل الغربي من حوض المحيط الهندي حتى تنزانيا. ولا يغلب الإسلام على الساحل الشمالي من الأطلسي وغرب إفريقيا، كما أنه ليست للإسلام غزوات كبيرة داخل المخروط الجنوبي بعد ساحل المحيط الهندي.



### خريطة الإسلام في إفريقيا

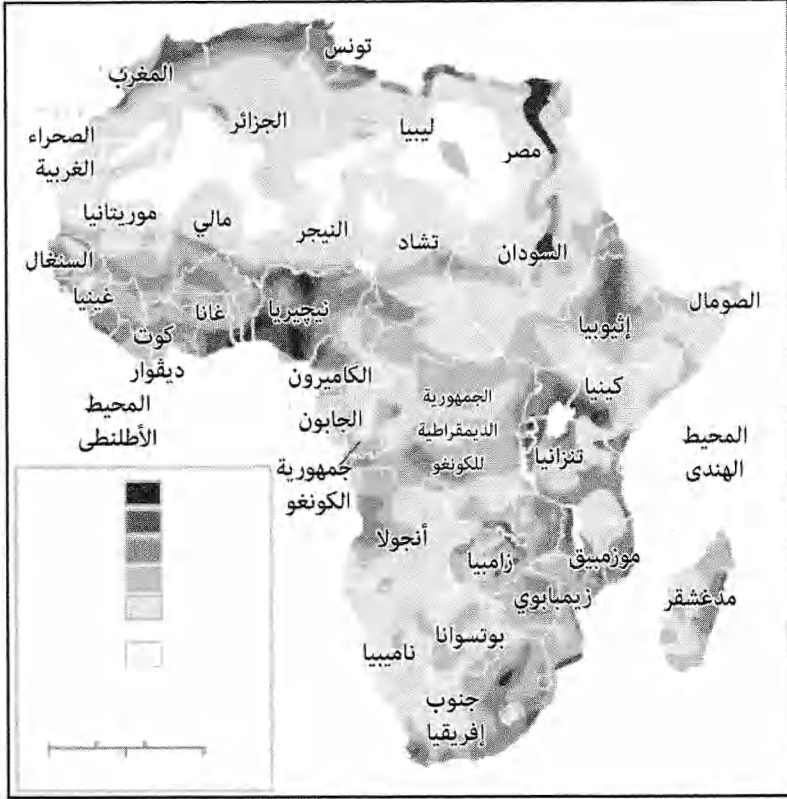
ربما تعطينا الخريطة اللغوية أفضل إحساس بمناطق إفريقيا الواسعة. ولكن اللغة باعتبارها طريقة للنظر إلى إفريقيا أكثر تعقيداً على نحو لا حد له؛ لأن مئات اللغات تُستعمل على نطاق واسع، وكثير غيرها تتحدث به جماعات صغيرة. وبناء على التنوع اللغوي، فمن المفارقة أن اللغة المشتركة داخل الدول كثيراً ما تكون هي لغة الإمبرياليين، وهي العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية أو الإسبانية أو البرتغالية. وحتى في شمال إفريقيا، حيث تغطي العربية على كل شيء، هناك مناطق مازالت فيها اللغات الأوروبية، الخاصة بالإمبراطوريات السابقة، بقايا باقية تنطوي على مفارقة تاريخية.



(خريطة) الجماعات الإثنولغوية في إفريقيا

تحيط مفارقة أخرى بما يمكن أن تكون الطريقة الأقل أهمية لمحاولة فهم إفريقيا، وهي تتعلق بالحدود المعاصرة. والكثير من هذه الحدود هي كذلك بقايا تمثل تقسيمات بين الإمبراطوريات الأوروبية، التي تراجعت مخلفة وراءها حدودها

الإدارية. وتبدأ ديناميكية إفريقيا الحقيقية في الظهور، عندما تعتبر أن هذه الحدود لا تحدد فحسب الدول التي تحاول أن تسيطر على أمم متعددة ومعادية تم احتواؤها داخله، بل غالبًا ما تقسم الأمم بين بلدين معاصرين، وبذلك فمع أنه يمكن أن تكون هناك دول إفريقية، فهناك القليل من الدول القومية، باستثناء شمال إفريقيا.



(خريطة) الكثافة السكانية في إفريقيا

أخيرًا، يمكننا النظر إلى إفريقيا من ناحية أين يعيش الناس. المراكز السكانية الرئيسية الثلاثة في إفريقيا، هي: حوض نهر النيل، ونيجيريا، ومنطقة البحيرات الكبرى بوسط إفريقيا التي تضم رواندا وأوغندا وكينيا. وقد تعطي هذه إحساسًا



بأن إفريقيا مكتظة بالسكان، وصحيح أنه في ظل مستوى الفقر، ربما يكون هناك كذلك أناس يحاولون استخراج لقمة العيش من اقتصاد إفريقيا الهزيل. ولكن جزءاً كبيراً من القارة، في واقع الأمر، مأهول على نحو متناثر مقارنة ببقية العالم. وتجعل طوبوغرافيا إفريقيا من الصحارى والغابات المطيرة هذا أمراً حتمياً.

حتى عندما ننظر إلى مراكز السكان هذه، نجد أن الحدود السياسية والحدود القومية ليس لها علاقة كبيرة ببعضها. وإذا، فبدلاً من أن تكون الكثافة السكانية أساساً للقوة، فهي تزيد عدم الاستقرار والضعف فحسب، ويحدث عدم الاستقرار عندما يشغل السكان المقسّمون المساحات نفسها.

على سبيل المثال، ينبغي أن تكون نيجيريا قوة إقليمية كبيرة؛ حيث إنها كذلك مصدر كبير للنفط، وبالتالي لديها عائدات لبناء القوة. ولكن بالنسبة لنيجيريا، ولّد وجود النفط نفسه صراعاً داخلياً مستمراً؛ ذلك أن الثروة لا تذهب إلى بنية تحتية مركزية للدولة والأعمال، وإنما تحرفها المنافسات الإقليمية عن مسارها وتشتتها. وبدلاً من أن تكون الثروة النفطية بمثابة أساس للوحدة الوطنية، فهي تمول فحسب الفوضى القائمة على الاختلافات الثقافية والدينية والعرقية بين شعب نيجيريا، ويجعل هذا نيجيريا بلدًا بلا أمة. ولكي أكون أكثر دقة، فهي دولة تسيطر على أمم متعددة معادية لبعضها، بعضها تقسمه حدود الدولة. وبالطريقة نفسها، فإن التجمعات السكانية داخل رواندا وأوغندا وكينيا تقسمها الهويات القومية، التي تُنسب إليها بدلاً من أن توحيها. وفي بعض الأحيان، خلقت الحروب دولاً غير مستقرة، كما في أنجولا، ولكن الاستقرار طويل المدى يصعب العثور عليه في كل الأنحاء.

في مصر وحدها تتوافق الأمة والدولة، وهذا هو السبب في أن مصر تصبح من حين لآخر قوة كبرى. ولكن ديناميكية شمال إفريقيا - التي هي على نحو غالب جزء من حوض البحر المتوسط - مختلفة جداً عن ديناميكية بقية القارة. وبذلك

فإنني عندما أستعمل كلمة إفريقيا من الآن فصاعدًا، أستبعد شمال إفريقيا الذي تم التعامل معه في فصل سابق.

المفارقة الأخرى هي أنه بينما لدى الأفارقة إحساس مكثف بالجماعة، وهو ما يهون الغرب من شأنه باعتباره أنه يقوم فحسب على أساس قبلي أو عشائري، فإن إحساسهم بمصير مشترك لم يمتد قط إلى تجمعات أكبر من المواطنين؛ وهذا لأن الدولة لم تنم بطريقة عضوية من الأمة، بل إن الترتيبات التي وضعتها الإمبريالية العربية والأوروبية تركت القارة في فوضى.

الطريقة الوحيدة للخروج من الفوضى هي القوة، ولا بد من وجود القوة الفاعلة في الدولة المنبثقة عن الأمة المتناسكة وتتولى مسئوليتها، ولا يعني هذا أنه لا يمكن أن تكون هناك دول متعددة القوميات، مثل روسيا، أو حتى دول تمثل جزءًا من الأمة فحسب، كما في الكوريتين. ولكنه يعني أنه لا بد للدولة من تولي مسؤولية شعب، لديه إحساس حقيقي بالهوية المشتركة والمصلحة المشتركة.

هناك ثلاث نتائج ممكنة تستحق أخذها في الاعتبار بالنسبة لإفريقيا، أولها: هي السبيل الحالي لأعمال الخير العالمية، ولكن نظام المساعدات الدولية الذي يهيمن الآن على جزء كبير من الحياة العامة الإفريقية ليس من المحتمل أن يكون له أي أثر دائم؛ لأنه لا يعالج المشكلة الأساسية الخاصة بلامعقولية الحدود الإفريقية، فهو في أفضل الحالات يحد من بعض المشكلات المحلية. وفي أسوأ الظروف، يمكن أن يصبح نظامًا يشجع الفساد بين كل من المتلقين والمانحين، وتلك هي الحالة الأكثر حدوثًا، والحقيقة المعروفة هي أن قليلًا من المانحين يصدقون بحق أن المساعدات التي يقدمونها تحل المشكلات.

السبيل الثاني هو ظهور الإمبريالية من جديد، وهو ما سوف يخلق أساسًا ما للحياة المستقرة، ولكن هذا غير مرجح. والسبب في أن كلا من المراحل الإمبريالية

العربية والأوروبية انتهت بالسرعة واليسر، الذي تمت بهما، هو أنه رغم وجود أرباح يمكن جنيها في إفريقيا، فقد كان الثمن مرتفعاً. فإنتاج إفريقيا الاقتصادي هو في المقام الأول من المواد الخام، وهناك طرق أبسط للحصول على تلك السلع من إرسال قوات عسكرية ومديرين استعماريين؛ إذ يمكن للشركات التي تتعامل مع الحكومات القائمة أو أمراء الحرب جعل العمل يتم على نحو أرخص بكثير، دون تحمل أية مسئولية خاصة بالحكم. واليوم تسمح إمبريالية الشركات للقوى الأجنبية بالدخول، وأخذ ما تريد بأقل تكلفة ممكنة، وتغادر عندما تنتهي من عملها.

السيبل الثالث والأرجح هو أجيال عديدة من الحروب، تخرج منها قارة الأمم، وقد صهرت في دول ذات مشروعية. ورغم قسوة ذلك، فالأمم تولد في الصراع، ومن خلال تجربة الحرب يكتسب الناس الإحساس بالمصير المشترك. ولا يصدق هذا على تأسيس الدولة فحسب، بل يصدق كذلك على مسار تاريخ الأمة؛ فالولايات المتحدة أو ألمانيا أو المملكة العربية السعودية جميعها أمم، صُهرت في معارك أدت إلى ظهورها. والحرب ليست كافية، ولكن مأساة الظرف الإنساني هي أن الشيء الذي يجعلنا أكثر ما نكون إنسانية - المجتمع - ينبع من لا إنسانية الحرب.

لا يمكن منع حروب إفريقيا، فهي كانت ستحدث، حتى ولو لم تكن هناك إمبريالية أجنبية، والواقع أنها كانت تُخاض عندما توقفها الإمبريالية. ولا يتم بناء الدول في اجتماعات البنك الدولي، أو أثناء بناء المدارس بواسطة مهندسين عسكريين أجنبية؛ لأن الدول الفعلية تُبنى في الدم. ولا بد من إعادة رسم خريطة إفريقيا، ولكن ليس بواسطة لجنة من أشخاص، يقدمون العون ويهتمون بمصلحة الآخرين، وهم جالسون في إحدى قاعات الاجتماعات.

ما سيحدث في الوقت المناسب، هو أن إفريقيا سوف تعيد ترتيب نفسها إلى عدد صغير من القوى الكبرى، وعدد كبير من القوى الصغرى. وسوف توفر هذه إطار التنمية الاقتصادية، وتخلق على مر الأجيال دولاً، يمكن أن تصبح قوى عالمية،

ولكن ليس بسرعة تؤثر على العقد المقبل. وقد يعجل ظهور دول قومية يمكن أن تدخل الإمبريالية المحلية إفريقيا هذه العملية، ولكن كل المرشحين للقوة الإمبريالية على قدر من التقسيم الداخلي يجعل من الصعب تخيل تطور سريع. ومن بينها جميعًا، جنوب إفريقيا هي الأكثر لفتًا للانتباه؛ حيث تجمع بين الخبرة الأوروبية مع بنية سياسية إفريقية. وهي الأقدر من بين دول إفريقيا. ولكن هذه الحقيقة نفسها تركها مع التقسيمات، التي تجعل تخيل ظهورها كقوة إقليمية أصعب، مع كل عام يمر.

وفي النهاية، ليس للولايات المتحدة مصلحة طاعية في إفريقيا؛ فهي تهتم على نحو واضح بالنفط من إفريقيا أو أنجولا والنفوذ الإسلامي المسيطر في الشمال، وكذلك في الصومال وإثيوبيا. وهي كذلك تهتم باستقرار نيجيريا وكينيا، وهما القوتان اللتان يمكن أن تساعد في هذه القضايا. لكن تدخل أمريكا المكثف في إفريقيا أثناء الحرب الباردة - الحرب الأهلية الكونغولية في أوائل الستينيات، وحرب أنجولا الأهلية في الثمانينيات، والصومال وإثيوبيا - كان مجرد محاولة لمنع الاختراق السوفيتي، وهذا المستوى من الكثافة لم يعد له وجود.

في السنوات الأخيرة، أصبح الصينيون يتدخلون في إفريقيا؛ حيث يشتركون المعادن وغيرها من الموارد الطبيعية. ولكن كما قلنا من قبل، لا تمثل الصين الدرجة نفسها من التهديد، التي كان يمثلها السوفيت؛ بسبب حدود استعراض القوة، وضعف الصين الداخلي. ولا يمكن للصين استغلال وضع إفريقيا استراتيجيًا، كما فعل السوفيت ذات يوم، ولا يمكن أن تعود إلى أراضيها بالمناجم. والأثر الأولي للاستثمار الصيني كُشف أكثر كثافة لعدم استقرار إفريقيا؛ الأمر الذي يترك للولايات المتحدة حرية البقاء بعيدًا.

في الوقت نفسه، كانت الشركات الأمريكية على قدر من المهارة كغيرها في عقد صفقات، تسمح لها بالحصول على النفط وغيره من المعادن أو المنتجات الزراعية، دون التزام أمريكي كبير تجاه المنطقة. وفي ظل مصالح الولايات المتحدة

الأخرى كلها، فإن وجود منطقة يمكن أن تظل لا مبالية فيها أمر مفيد من الناحية الاستراتيجية، حتى وإن كان ذلك يسمح للولايات المتحدة بحفظ الموارد.

ولكن هناك فرصة في إفريقيا رغم ذلك؛ فالشرط الاستراتيجي الخاص بتدخل الولايات المتحدة في التأثير على مجريات الأمور، في أنحاء كثيرة من العالم يجعلها مكروهة وغير موثوق بها. وليست هناك طريقة لتجنب ذلك من خلال السياسة، ولكن من الممكن إرباك المسألة - أو نزع فتيلها - وإفريقيا هي المكان الذي يمكن أن يحدث فيه لذلك.

الولايات المتحدة، شأنها شأن الدول كافة، شديدة الاهتمام بمصلحتها. ولكن هناك قيمة في عدم الظهور على هذا النحو، وبعض القيمة في أن تكون محبوبة وتحظى بالإعجاب، مادام كونها محبوبة ليس خطأ بالنسبة للهدف الأساسي. وكان تقديم كميات كبيرة من المساعدات لإفريقيا سيخدم غرض تحسين صورة أمريكا. وفي عقد، سوف تُضطر فيه الولايات المتحدة لإنفاق مئات المليارات من الدولارات كل عام على الدفاع؛ حيث سيكون إنفاق 10 مليارات دولار أو 20 مليون دولار على المساعدات لإفريقيا محاولة مناسبة ومعقولة لشراء الإعجاب.

مرة أخرى، المساعدات نفسها لن تحل مشكلات إفريقيا، غير أنها يمكن أن تخفف بعضها، لبعض الوقت على الأقل. ومن الممكن أنها لن تضر، حيث كان لكثير من برامج المساعدات نتائج غير مقصودة وسلبية، ولكن هذه اللفتة سوف تعود على أمريكا بالمصلحة، وبتكلفة منخفضة نسبيًا.

إن حقيقة أنه يتعين على الرئيس ألا يرفع عينيه عن الحرب، لا تعني أنه لا يمكنه أن يتصرف في الوقت نفسه ببراعة فيما يتعلق بها. وإحدى نقاط ميكافيللي أن الخير يأتي نتيجة للسعي الشديد وراء القوة، وليس من باب محاولة فعل الخير. ولكن إذا كان فعل بعض الخير يقنع أوروبا بإرسال المزيد من الجنود إلى التدخل الأمريكي التالي، فسيكون استثمارًا جديرًا بالاهتمام.



## الفصل الثالث عشر

### الاختلال التكنولوجي والديموغرافي

يدور هذا الكتاب حول اختلالات القوة الأمريكية في العقد المقبل، وأثر تلك الاختلالات على العالم. وقد ركزتُ على القضايا الاقتصادية والجيوبوليتيكية وقدمتُ الحجة على أن الاختلالات هنا عابرة ويمكن تصحيحها، ولكن الكتاب كان سيصبح ناقصاً، دون بحث قضيتين مهمتين آخرين تؤثران على العقد المقبل، وهما: الديموغرافيا والتكنولوجيا.

يمكن تحريك الدورات الاقتصادية - الانتعاش والكساد - بالمضاربة والتلاعب المالي، كما كان الحال في العقد الذي انتهى لتوه. ولكن في المستوى الأعمق، يتحرك الاتساع والانكماش الاقتصاديان بفعل القوى الديموغرافية والابتكار التكنولوجي.

خلال القرن المقبل، سوف نرى صعود المد الديموغرافي، الذي ساعد على تحريك رخاء الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية مباشرة. وسوف تكون المجموعة العمرية المعروفة بأبناء طفرة مواليد ما بعد الحرب - وهم الأطفال الذين وُلدوا في عهد حكومتي ترومان وأيزنهاور - في ستينياتهم، وسيلهم إلى التقاعد، والتباطؤ، والتقدم في العمر. ونتيجة لذلك، فإن الزيادة الديموغرافية نفسها التي ساعدت في خلق الوفرة، قبل نصف قرن، سوف تخلق عبئاً اقتصادياً في السنوات المقبلة.

في الخمسينيات، ساعد أبناء طفرة مواليد ما بعد الحرب في خلق طلب ملايين عربات الأطفال، والمنازل الصغيرة المتشابهة، وسيارات الستيشن واجون، والدراجات، والغسالات-المجففات. وخلال السبعينيات، بدأوا البحث عن عمل في اقتصاد، لم يكن مستعداً لهم بعد، وعندما تقدموا للحصول على فرص عمل، تزوجوا وأنجبا أطفالاً، واشتروا واقترضوا، وجعل سلوكهم الجمعي أسعار الفائدة والتضخم والبطالة ترتفع.

عندما استوعب الاقتصاد هؤلاء الأشخاص في الثمانينيات، وعندما نضجوا في التسعينيات من القرن الماضي، دفع أبناء طفرة مواليد ما بعد الحرب الاقتصاد إلى مستويات غير عادية من النمو. ولكن أثناء السنوات العشر المقبلة، سوف تبدأ اندفاعات الإبداع والإنتاجية الهائلة، التي جاء بها أبناء طفرة مواليد بعد الحرب إلى الحياة الأمريكية في الانخفاض، وسوف يبدأ الاقتصاد الشعور بالمؤشرات الدالة على حدوث الأزمة الديموغرافية. ويوضح رحيل أبناء طفرة مواليد ما بعد الحرب بجلاء أزمة مصاحبة في التجديد التكنولوجي، يمكن أن تكون أكثر وضوحاً في نهاية الأمر. فعندما يشيخ هؤلاء، لن يزيد استهلاكهم ويختفي إنتاجهم فحسب، بل سوف يتطلبون رعاية صحية ورعاية آخر العمر على مستوى، لم يره أحد من قبل.

سوف يكون العقد المقبل فترة تتخلف فيها التكنولوجيا عن الحاجات. وفي بعض الحالات، سوف تصل التكنولوجيا القائمة إلى حدود المدى، الذي يمكن توسيعها إليه، غير أن تكنولوجيات الإحلال لن تكون في سبيلها إلى التطوير، وهو ما لا يعني أنه لن يكون هناك تغيير تكنولوجي كبير؛ إذ سوف تكون السيارات الكهربائية والأجيال الجديدة من التليفونات الخلوية وفيرة. أما ما سيقبل المعروض منه، فهو تكنولوجيات الإنجازات الكبيرة لتلبية الحاجات الناشئة، وتلك الحاجات الملحة بالفعل، وهي تلك الأنواع من المنجزات التي تحرك النمو الاقتصادي الحقيقي.



المشكلة الأولى مالية؛ لأن خلق تكنولوجيات جديدة بشكل جذري ينطوي بطبعه على المخاطرة، من ناحية تنفيذ المفاهيم الجديدة، ومن ناحية توفيق المنتج مع السوق. وقد قللت الأزمة المالية والكساد في 2008-2010 كمية رأس المال المتاح للتطور التكنولوجي، إلى جانب الرغبة في المخاطرة. وسوف تتميز السنوات الأولى من العقد المقبل، ليس بنقص رأس المال، وإنما بالميل إلى نشر رأس المال المتاح في المشروعات منخفضة المخاطرة؛ حيث تتدفق الدولارات المتاحة إلى تكنولوجيات أكثر رسوخًا. وسوف يتضاءل هذا عالميًا في النصف الثاني من العقد، وعلى نحو أسرع في أماكن كالولايات المتحدة. ورغم ذلك، فإنه بناء على الزمن البيني في تطوير التكنولوجيات، لن يظهر الجيل التالي من المنجزات التكنولوجية الملحوظة حتى العشرينيات.

تكمُن المشكلة الثانية في معدل التجديد هذا - على نحو غريب - في الجيش؛ ففي القرن التاسع عشر، كان تطوير ماكينة الخياطة وتطوير الأسطول البريطاني (ومداه الإمبراطوري) يسيران جنبًا إلى جنب. وفي القرن العشرين، كانت الولايات المتحدة محرك التطور التكنولوجي العالمي، وكان جزء كبير من هذا التجديد تموله وتحركه المكتسبات العسكرية، وكان لمعظم ذلك تقريبًا بعض التطبيق المدني الجانبي. ودعم الجيش بشدة تطوير كل من الطائرات وأجهزة اللاسلكي، وأسفر ذلك عن المولد اللاحق لصناعة الطيران وصناعة البث الإذاعي. وكان تصور الطرق السريعة بين الولايات في البداية على أنها مشروع عسكري لتسهيل حركة القوات السريعة، في حالة وقوع هجوم سوفيتي أو كارثة نووية. وابتُكرت الرقائق متناهية الصغر؛ من أجل الاستخدام في أجهزة الكمبيوتر الرقمية الصغيرة، التي كانت ترشد الصواريخ النووية والصواريخ اللازمة لوضع حمولات في الفضاء. وبالطبع بدأت الإنترنت - التي دخلت الوعي العام في التسعينيات من القرن الماضي - كمشروع اتصال عسكري في الستينيات.

الحروب أوقات من التحول التكنولوجي المكثف، لأن المجتمعات تُستثمر - أحياناً باقتراض موسع - في الزمان والمكان اللذين تكون فيها أمور الحياة والموت في خطر؛ فقد دفعت الحرب بين أمريكا والجهاديين بعض التطور في طائرات المراقبة والهجوم بلا طيار، وكذلك تكنولوجيا قواعد المعلومات، ولكن التحولات الشديدة الخاصة بالحرب العالمية الثانية (الرادار والبنسولين والمحرك النفاث والأسلحة النووية) والحرب الباردة (أجهزة الكمبيوتر والإنترنت والألياف البصرية والمواد المتقدمة) غير موجودة؛ لأن الصراع في أفغانستان والعراق حروب مشاة خفيفة اقتضى - في النهاية - استكمال التكنولوجيات القائمة بالفعل مع بعض الابتكارات، التي كان لها أثر كبير.

مع نضوب تمويل تلك الحروب، سوف تتلقى ميزانية الأبحاث والتطوير الضربات الأولى، وهذه دورة طبيعية في توريدات الدفاع، ولن يُستأنف النمو حتى يتم تحديد تهديدات جديدة على مدى السنوات الثلاث أو الأربع المقبلة. ومع قلة البلاد الأخرى المؤثرة على التكنولوجيات العسكرية الباهرة، فلن يبدأ هذا الدفاع التقليدي إلى الابتكار في حمل ثماره المدنية حتى العشرينيات أو ما بعدها.

معنى الحياة والموت الذي ينبغي أن يحرك الابتكار التكنولوجي في العقد المقبل، هو الأزمة في الديموغرافيا والتكاليف المرتبطة بها؛ فانخفاض عدد السكان الذي كتبت عنه في كتابي «المائة عام المقبلة» The Next 100 Years سوف يبدأ ظهوره في بضع أماكن هذا العقد. ومع ذلك، فسوف يصبح نذيره - السكان الشائخون - حقيقة حياة موجودة في كل مكان، وسوف تنكمش القوة العاملة، ليس فقط بسبب التقاعد، وإنما لأن المتطلبات التعليمية المتزايدة سوف تبقي الأشخاص خارج السوق حتى أوائل العشرينيات أو أوسطها من أعمارهم.

ما سيزيد من الآثار الاقتصادية للسكان الشائخين، هو زيادة متوسط العمر المتوقع مقرونًا بزيادة مصاحبة في حدوث الأمراض التنكسية. وبما أن المزيد من

الناس سيعيشون لفترات أطول، سوف يصبح مرض ألزهايمر ومرض باركنسون ومرض القلب الموهن والسرطان والسكر عبئاً ثقيلاً على الاقتصاد؛ حيث سيتطلب المزيد والمزيد من الأشخاص الرعاية، بما في ذلك الرعاية التي تشمل التكنولوجيا شديدة التقدم.

من حسن الحظ أن مجال البحث الذي يمولّ بوفرة هو البحث الطبي؛ فالتحالفات السياسية تجعل التمويل الفيدرالي قوياً بما يكفي، للانتقال من البحث الأساسي إلى التطبيق التكنولوجي بواسطة الصناعات الدوائية والبيوتقنية. ومع ذلك، فإن احتمال الاختلال مازال قائماً - إذ لم يوفر تخطيط الجينوم علاجاً سريعاً للأمراض الموهنة، ولم يوفرها أي شيء آخر، ولذلك سيكون التركيز، خلال السنوات العشر المقبلة، على الإجراءات المخففة للألام.

قد يستتبع توفير تلك الرعاية تكاليف عمالة سيكون لها عبء هائل على الاقتصاد، وأحدث الخيارات هو علم الروبوتات، ولكن تطور هذا العلم الفعال يعتمد على الإنجازات العلمية في مجالين رئيسيين، لم يتطورا منذ وقت طويل، وهما: الموصلات بالغة الصغر، والبطاريات. وسوف تتطلب الروبوتات التي يمكنها تقديم الرعاية الأساسية لكبار السن كميات هائلة من القوة الحاسوبية، وكذلك قدرة محسنة على الحركة، غير أن رقيقة السيليكون في سبيلها للوصول إلى حدود التصغير. وفي الوقت نفسه، فإن البرامج الأساسية اللازمة لتوجيه الروبوت، ومعالجة مدخلاته الحسية، وتكلف بالمهام، التي لا يمكن دعمها على منصات الكمبيوتر الحالية. وهناك عدد من الحلول المحتملة، من المواد البيولوجية إلى الحوسبة الكمية، ولكن العمل في تلك المجالات لم يتجاوز البحث الأولي بكثير.

هناك خيطان تكنولوجيان متضافران آخران، سوف يقل معدل تسارعهما في العقد المقبل، أولهما: ثورة الاتصالات التي بدأت في القرن التاسع عشر، والتي نبعث من تعميق فهم الطيف الكهر ومغناطيسي، وهو التطور العملي الذي حركه إلى

حدًا ما ظهور الإمبراطوريات والأسواق العالمية؛ فقد وفر التلغراف اتصالات شبه فورية عبر مسافات كبيرة؛ شريطة أن تكون البنية التحتية اللازمة - خطوط التلغراف - موجودة. وأعقب ذلك الاتصالات الصوتية المتناظرة في صورة التليفون، وبعد ذلك تطورت الاتصالات التي بلا بنية تحتية في شكل اللاسلكي، وهذا الابتكار انقسم فيما بعد إلى صوت وصورة (التليفزيون) وهو ما كان له أثر عميق على الطريقة التي عمل بها العالم. وخلقت تلك الوسائل علاقات سياسية واقتصادية جديدة؛ مما سمح بالاتصالات ذات الاتجاهين، واتصالات البث المركزي، وسيلة «الواحد إلى كثيرين»، والتي حملت طاقة كبيرة ضمنيًا لمن سيطر على النظام. ولكن هيمنة البث المركزي من واحد إلى كثيرين انتهت، حيث تغلبت عليه إمكانات العصر الرقمي الموسعة، ويمثل العقد المقبل نهاية فترة الستين عامًا من النمو والابتكار، حتى في التكنولوجيا الرقمية هذه الأكثر تقدمًا وتعطيلًا.

بدأ العصر الرقمي بثورة في معالجة البيانات، اقتضتها تحديات إدارة الأفراد الهائلة أثناء الحرب العالمية الثانية؛ إذ كانت المعلومات، الخاصة بالجنود الأفراد تُدخّل باعتبارها شفرة ثنائية غير إلكترونية في بطاقات الكمبيوتر المثقبة؛ من أجل الفرز وتحديد الهوية. وبعد الحرب، دفعت وزارة الدفاع إلى تحويل شكل الحوسبة البدائي هذا إلى أنظمة إلكترونية؛ مما خلق طلبًا على أجهزة الكمبيوتر الرئيسية التي تُبنى حول أنابيب مفرغة من الهواء. ودخلت تلك الأجهزة الرئيسية السوق المدنية بشكل كبير، من خلال قوة مبيعات آي بي إم؛ لتخدم لأعمال في كل شيء من الفواتير إلى كشوف المرتبات.

بعد تطور الترانزستور ورقيقة السليكون، وهو ما سمح بتقليل حجم أجهزة الكمبيوتر وتكلفتها، انتقل الابتكار إلى الساحل الغربي، وركز على الكمبيوتر الشخصي. وبينما كانت أجهزة الكمبيوتر الرئيسية معنية - في المقام الأول - بمعالجة البيانات وتحليلها، كان الكمبيوتر الشخصي يُستخدم - في المقام الأول

- لخلق متناظرات إلكترونية من الأشياء الموجودة بالفعل - الآلة الكاتبة، وبرامج الجدولة، والألعاب، وهلم جرا - وتطور هذا بدوره إلى أجهزة الحوسبة المحمولة باليد ورقائق الكمبيوتر المدمجة في مجموعة من الأجهزة.

في التسعينيات من القرن الماضي، اندمج الرافدان التكنولوجيان: الاتصالات والبيانات، في مجرى واحد، بالمعلومات في الشكل الثنائي الإلكتروني، الذي أمكن نقله بواسطة دوائر التليفون الموجودة بالفعل. وسرعان ما تكيفت الإنترنت - التي ابتكرتها وزارة الدفاع لنقل البيانات بين أجهزة الكمبيوتر الرئيسية - مع الكمبيوتر الشخصي، ونقل البيانات عبر خطوط التليفون باستخدام المودم. وكان الابتكار التالي هو الألياف البصرية، لنقل كميات كبيرة من البيانات الثنائية، وكذلك ملفات الجرافيك بالغة الكبر.

مع ظهور الجرافيك وعرض البيانات باستمرار على مواقع الشبكة، اكتمل النقل، وتطور عالم البث من «واحد إلى كثيرين» الخاضع للسيطرة إلى نظام يتشرب إلى نظام نشر لانهائي للبث الضيق «من كثيرين إلى كثيرين»، وأصبح الإحساس بالواقع المفروض رسميًا، الذي وفرته تكنولوجيا الأخبار والاتصالات في القرن العشرين نشاز الواقع.

لم يصبح الكمبيوتر الشخصي أداة لتنفيذ سلسلة من الوظائف التقليدية على نحو أكثر كفاءة فحسب، بل أصبح كذلك أداة اتصالات، وهكذا أصبح بديلاً لاتصالات البريد والتليفون التقليدية وكذلك أداة للبحث. وأصبحت الإنترنت نظامًا، جمع بين المعلومات والمبيعات والتسويق، من بيانات عن التنجيم إلى أحدث ما يمكن اقتناؤه على موقع التسوق إي باي eBay، وأصبحت الشبكة العنكبوتية الميدان العام والسوق؛ حيث ربطت المجتمع الجماهيري ببعضه، وأخافته في الوقت نفسه.

أعطى الكمبيوتر النقالي والتليفون الخلوي المتناظر القدرة على الحركة لبعض التطبيقات. وعندما اندمجا معًا في المساعد الرقمي الشخصي، والقدرة على

الوصول إلى الإنترنت، وإرسال الرسائل الصوتية والنصية، بالإضافة إلى التزامن مع أجهزة الكمبيوتر الشخصي الأكبر، حققت القدرة الفورية العالمية؛ للوصول إلى البيانات. فعندما أهبط في سيدني أو إسطنبول، يقوم جهاز البلاكيري الخاص بي على الفور بتزليل بريدي الإلكتروني من كل أنحاء العالم، ويعد ذلك يمكنني من قراءة أحدث الأخبار، بينما تتجه الطائرة ببطء نحو بوابة الخروج. لقد بلغت ثورة الاتصالات نقطة قصوى.

نحن الآن في حالة استكمالية وتزايدية، يعتمد التركيز الأساسي فيها على توسيع القدرة والبحث عن تطبيقات جديدة للتكنولوجيا، التي تم التوصل إليها منذ سنوات. وهذا وضع مشابه لحالة الثبات النسبي التي بلغتها أجهزة الكمبيوتر الشخصي، في نهاية فقاعة الدوت كوم. وكانت البنية الأساسية موجودة، من المعدات وأدوات التوصيل البينية. وكانت ميكروسوفت قد خلقت مجموعة شاملة من التطبيقات المكتبية، وظهر الربط اللاسلكي، كما ظهرت التجارة الإلكترونية، وتجري على موقع أمازون وأماكن أخرى، وطرح جوجل محرك بحثه. ولكن من الصعب جدًا التفكير في الإنجاز التكنولوجي التحولي بحق، الذي حدث في السنوات العشر الماضية، فبدلاً من عمل شيء مبتكر، كان التركيز على تطوير تطبيقات جديدة، مثل: الشبكة الاجتماعية، وعلى نقل التطبيقات السابقة إلى المنصات المتنقلة، وكما بين الأياد، سوف يستمر هذا الجهد. لكن في النهاية هذا إعادة ترتيب للأثاث، وليس بناء بنية جديدة. فميكروسوفت - التي غيرت الاقتصاد في الثمانينات - هي الآن شركة ساكنة إلى حد ما الآن، حيث تحمي منجزاتها، وتخترع أبسط أجهزة جديدة تجعل ما نقوم به بالفعل أكثر كفاءة. ويبحث جوجل وفيسبوك عن طرق جديدة لبيع الإعلان وتحقيق ربح من الإنترنت.

حلت محل التجديد التكنولوجي الجذري معركة من أجل حصة السوق - البحث عن طرق لكسب الأموال بتقديم التحسينات الصغيرة على أنها أحداث

مهمة - وفي الوقت نفسه، تتضاءل الزيادة الهائلة في القدرة الإنتاجية، التي كانت تحرك التكنولوجيا في يوم من الأيام، وهو ما ساعد بدوره في تحريك الاقتصاد؛ الأمر الذي سيكون له أثر كبير على التحديات، التي نواجهها في العقد المقبل. ومع انخفاض البحث الأساسي والتطوير، وتركيز جهود الشركات على تحقيق تحسينات مكتملة في تكنولوجيا الجيل الأخير الأساسية، يقتصر حافز النمو العالمي الأساسي على وضع التكنولوجيات القائمة بالفعل في أيدي المزيد من الناس. وبما أن بيع التليفونات الخلوية بلغ نقطة التشبع بالفعل، والشركات مترددة في الاستثمار في التحديات غير الضرورية، فإن هذه وصفة إشكالية للنمو.

لا يعني هذا القول بأن عالم التكنولوجيا الرقمية يُحتَضَر، ولكن الحوسبة مازالت سلبية بشكل كبير ومقصورة على التحكم في البيانات ونقلها. والمرحلة التالية والضرورية، هي أن يصبح فاعلاً باستخدام البيانات للتحكم في الواقع وتغييره، بواسطة علم الروبوتات كمثال أساسي. إن الانتقال إلى المرحلة الفعالة ضروري؛ من أجل تحقيق دفعة في القدرة الإنتاجية سوف تعوض عن التغيرات الاقتصادية المرتبطة بالتغير الديموغرافي، الذي يوشك أن يقع.

تعمل وزارة الدفاع الأمريكية على الروبوتات منذ فترة طويلة، وحقق اليابانيون والكوريون تقدماً في التطبيقات المدنية. ومع ذلك، مازال من اللازم القيام بالكثير من العمل العلمي والتكنولوجي، إذا كان لهذه التكنولوجيا أن تكون مستعدة، عندما تكون هناك حاجة ملحة إليها في العشرينيات.

حتى في هذه الحالة، فإن الاعتماد على الروبوتات في حل المشكلات يجعلنا نطرح سؤالاً مزعجاً آخر، وهو كيف سنمد تلك الآلات بالطاقة؟ إن العمل البشري في حد ذاته منخفض نسبيًا في استهلاك الطاقة، أما الآلات التي تحاكي العمل البشري، فسوف تستخدم كميات كبيرة من الطاقة، ومع انتشارها في الاقتصاد

(تمامًا كما استخدمت أجهزة الكمبيوتر الشخصي والتليفونات الخلوية)، سوف يكون استهلاك الطاقة هائلًا.

تثير مسائل مد التجديد التكنولوجي بالطاقة - بدورها - جدلاً كبيرًا وساخناً بشأن ما إذا كان الاستخدام الزائد للمواد الهيدروكربونية يؤثر على البيئة، ويحدث تغييرًا في البيئة أم لا، ومع أن هذا السؤال يُدخِل العواطف في الموضوع، فالواقع أنه ليس السؤال الأبرز. وتثير مسألة التغير المناخي مسألتين أخريين تقتضيان قيادة رئاسية ماهرة، أولاً: هل من الممكن خفض استخدام الطاقة؟ وثانياً: هل من الممكن مواصلة زيادة الاستخام المقتصد للمواد الهيدروكربونية؛ خاصة النفط؟ هناك توقع مدمج في السياسة العامة، يقول إنه بالإمكان معالجة قضية استخدام الطاقة من خلال الحفاظ على البيئة. ولكن جزءاً كبيراً من زيادة استهلاك الطاقة نتج عن العالم النامي؛ الأمر الذي يجعل حل المشكلة بالتخفيض تفكيراً، يقوم على الأماني في أحسن الأحوال.

لا تعتزم البلدان الصناعية الجديدة في آسيا وأمريكا اللاتينية خفض استهلاكها للطاقة؛ لحل قضايا الطاقة أو منع غرق البلدان الجُزر بمياه البحار الدافئة المرتفعة. ومن وجهة نظر هذه البلدان، فإن الحفاظ على البيئة سوف يحلها بشكل دائم إلى وضع العالم الثالث، الذي كافحت طويلاً وبقوة للفرار منه. وهي ترى أنه ينبغي على العالم الصناعي المتقدم في الولايات المتحدة وغرب أوروبا واليابان أن يخفف استخدامه للطاقة؛ كي يعوض عما يزيد على القرن من الاستهلاك المرف.

في عام 2010، كانت هناك قمة كوينهاجن لمعالجة مسألة استخدام الطاقة، أو على نحو أدق انبعاثات ثاني أكسيد الكربون، وقُدِّم اقتراح الحد من الانبعاثات. وفي الوقت الذي يزداد فيه استهلاك الطاقة، يمثل الحد من الانبعاثات بالمرة تحديًا كبيرًا. وفيما عدا مصدر جديد ضخم للطاقة، فإن هذا النوع من الحد يمكن التوصل



إليه فقط بنقص هائل في استهلاك الوقود الأحفوري، فذهابك إلى العمل بالدراجة وإعادة التدوير الحريص لن يحقق ذلك.

انهارت مبادرة كوبنهاجن؛ لأنه لم يكن بالإمكان استدامتها من الناحية السياسية، فلن يمكن لأي زعيم من زعماء العالم الصناعي المتقدم إقناع الجمهور بقبول التخفيضات الكبيرة في مستويات المعيشة، التي سينطلبها الحد من استخدام الوقود الأحفوري. ويرى الناس أن رفض الانقياد ليس غير عقلاني؛ فهم يقيسون اليقين على الاحتمال. والمؤكد هو أن حياتهم سوف تكون مقيدة بشكل كبير بتلك التخفيضات في الاستهلاك؛ الأمر الذي سيؤدي إلى انزياح اقتصادي واسع. أما الاحتمال - الذي يشك فيه البعض - فهو أن التغير المناخي سوف يحدث، وستكون له نتائج على قدر مساوٍ من التدمير. والقول بأن التغير في المناخ سوف يكون ضارًا وليس مفيدًا، هو قول صحيح إلى حد كبير، ولكن المسألة هي ما إذا كانت الآثار المحتملة أو الممكنة على الأبناء والأحفاد تفوق يقين النتائج الآتية أم لا. وربما تكون هذه حقيقة غير سارة، ولكنها تفسر نتيجة اجتماعي كوبنهاجن وكيوتو بشأن التغير المناخي، اللذين فشلا في أن يضععا بنجاح استراتيجيات؛ للحد من انبعاثات الصوبة الزجاجية.

بالنسبة للعقد المقبل، لا بد أن يكون الافتراض هو أن استخدام الطاقة سيواصل الارتفاع، وبالتالي ليست المسألة هي ما إذا كان يجب خفض استهلاك الوقود الأحفوري أم لا، وإنما ما إذا كان سيوجد ما يكفي من الوقود الأحفوري للتعامل مع الطلب المتزايد أم لا؛ إذ لا يمكن للوقود غير الأحفوري الدخول في الخدمة بسرعة، تكفي لأن يحل محل استخدام الطاقة على المدى القصير؛ ذلك أن طاقة الرياح والمياه يمكن أن تدير جزءًا صغيرًا من الاستهلاك فحسب، ويصُدق الشيء نفسه على الطاقة الشمسية. وبالنسبة للعقد المقبل، فإنه مهما كانت الحلول طويلة المدى الموجودة، ستكون المشكلة هي العثور على الوقود؛ من أجل استخدام الطاقة المتزايد في الوقت، الذي تقيّد فيه الزيادات في المُخرَج الكربوني بشكل مثالي.

ينقسم استخدام الطاقة إلى أربع فئات عرضية، هي: النقل والتوليد الكهربائي والاستخدامات الصناعية والاستخدامات المنزلية غير الكهربائية (التدفئة وتكييف الهواء). وعلى مدى العقد المقبل، سوف تستمر الطاقة ذات الأساس النفطي من أجل النقل؛ فتكلفة تحويل الأسطول العالمي الحالي إلى مصدر طاقة آخر مانعة ولن تحدث خلال عشر سنوات. وسوف يتحول بعض النقل إلى كهربائي، ولكن هذا سينقل استهلاك الوقود الأحفوري من المركبة إلى محطة توليد الطاقة. وتوليد الكهرباء أكثر مرونة؛ حيث يقبل النفط والفحم والغاز الطبيعي؛ والأمر نفسه ممكن بالنسبة للاستخدامات الصناعية، ويمكن تحويل التدفئة وتكييف الهواء بتكلفة ما.

هناك حديث عن بلوغ إنتاج النفط إلى ارتفاعه التاريخي، وأنه ينحدر الآن. ومن المؤكد أن إنتاج النفط انتقل إلى مناطق أقل فأقل مواتة للعيش، كالمياه العميقة قبالة الساحل والصخور الطينية، وهو ما يتطلب تكنولوجيا مكلفة نسبيًا. ويدلنا هذا على أنه حتى إذا لم يصل إنتاج النفط إلى ذروته - وكل الأشياء الأخرى كذلك - فإن أسعار النفط ستواصل ارتفاعها؛ فالتقيب عن النفط قبالة الساحل له تكلفته ومشكلاته الخاصة بالصيانة. وكما رأينا مع كارثة بي بي قبالة ساحل لويزيانا، فالحادث الذي يقع على عمق ميل تحت الماء يصعب إصلاحه. لكن حتى بالتغاضي عن الضرر البيئي، فالآبار مكلفة جدا، كما أن معدات الصخور الطينية مكلفة كذلك، وعندما يهبط سعر النفط عن نقطة معينة، يصبح الاستخراج غير اقتصادي، ويتباطأ الاستثمار أو يضيع. لكن إذا نحينا جانبًا مسائل أسعار الذروة الأعرض، فإن استهلاك الطاقة الزائد الذي سوف نراه على مدى العقد المقبل، لا يمكن مده بالنفط، أو على الأقل ليس بالشكل الكامل.

يترك هذا خيارين للسنوات العشر المقبلة، أحدهما هو الفحم، والآخر هو الغاز الطبيعي. إن الحفاظ على البيئة واسع الانتشار لتقليل استهلاك الطاقة بشكل مطلق لن يحدث في الولايات المتحدة، ناهيك عن العالم ككل؛ فالقدرة على إنتاج

المزيد من النفط محدودة، والقابلية في أي اقتصاد نفطي للحظر من جانب بلدان كإيران، يجعله اقترًا شديد المخاطرة، وقدرة مصادر الطاقة البديلة على أن يكون لها أثر حاسم في هذا العقد قليلة جدًا في أحسن الحالات؛ فأبي محطة توليد طاقة نووية لن تدخل حيز العمل، قبل خمس أو ست سنوات. ولكن الاختيار بين المزيد من الفحم والمزيد من الغاز الطبيعي، لن يكون الاختيار الذي سيرغب الرئيس في القيام به؛ إذ سوف يريد الحل البسيط والسحري الخاص بالتوافر السريع وغياب الأثر البيئي والتكلفة المنخفضة. ومع ذلك، ففي هذا العقد، سوف تُجبر على موازنة ما هو لازم مع ما هو متاح. وفي النهاية سوف نختار كليهما، حيث سيكون للغاز الطبيعي التدفق الأكبر.

يفتح تطبيق التكسير الهيدروليكي على إنتاج الغاز الطبيعي إمكانية الزيادات الكبيرة في توافر الطاقة، وما تفعله هذه التكنولوجيا، هو استخراج الغاز من مسافات تزيد على ثلاثة أميال تحت سطح الأرض؛ حيث تحتويه صخور على قدر شديد من الضغط بحيث لا يطلق الغاز. ويسمح تكسير الصخور بتجميع الغاز واستخراجه، ولكن هذه الطريقة - شأنها شأن كل إنتاج الطاقة على الأرض - تحمل مخاطر بيئية. وميزة الولايات المتحدة أن هناك واردات محلية كثيرة، وبالتالي، فإن الاعتماد على مصدر الطاقة هذا يقلل احتمال الحرب. ويحل الغاز بسهولة محل الكثير من استخدامات النفط، وفي حالات كثيرة بتكلفة منخفضة نسبيًا؛ مما يقلل الحاجة إلى استيراد النفط، ويقلل بدوره احتمال قيام قوة أجنبية بحظر النفط، وبالتالي تثير الحرب.

كذلك تجعل تكنولوجيا التكسير بالإمكان الوصول إلى كميات كافية من الغاز الطبيعي في فترة من الزمن قصيرة، بما يكفي للتحكم في تكلفة الطاقة وتوافرها خلال هذا العقد. وتوقع أن تصبح تكنولوجيات أخرى متاحة بعد خمسين أو ستين عامًا من الآن، ولكن في السنوات العشر المقبلة تنحصر الخيارات في الفحم والغاز.

سوف يكون ذلك وقتًا لمعالجة المشكلات، التي لم تتحول بعد إلى أزمات، وللبحث عن حلول لم توجد بعد. ولنفكر في مشكلة توافر المياه. فال تصنيع المتزايد، إلى جانب الزيادة المستمرة لعدد السكان، الذين يتمتعون بمستويات معيشة أعلى، يخلق بالفعل نقصًا إقليميًا في المياه. وهذا النقص خلق - في بعض الأحيان - مواجهات سياسية بين الدول، يمكن أن تصل إلى حروب. أضف إلى هذا احتمال تغير أنماط المناخ، وأن هذه التغيرات يمكن أن تقلل سقوط المطر في المناطق المأهولة، وقد تصبح المشكلة أزمة.

ليس هناك بالطبع نقص في الماء. فالماء؛ مختلط فحسب بالملح، وتقع في أماكن غير ملائمة، لكنه موجود بكميات كبيرة على نحو مذهل. صحيح أن التكنولوجيا بحاجة إلى تحسين، ولكننا نعرف كيف نحلي الماء، كما أننا نعرف كيف نقل الماء في الأنابيب. المشكلة هي أن كلاً من التحلية ونقل الماء أمر مكلف جدًا، ويتطلب كميات هائلة من الطاقة. وسوف يوجد هذا النوع من الطاقة في الحلول المتاحة. وكما قلت في كتاب «المائة عام المقبلة»، سوف نحتاج إلى توليد شمسي، يعتمد على الفضاء أو أية مقاربات أخرى شديدة الثورية؛ لزيادة الطاقة المتاحة من ناحية الحجم.

عندما ننظر إلى المشكلات الكبرى التي يتعين علينا حلها، مثل: السكان الشائخين وقوة العمل المنكمشة ونقص الماء، نجد نمطًا دائمًا، أولًا: المشكلة تظهر في هذا العقد، ولكنها لن تصبح عبئًا غير محتمل إلا في وقت لاحق، وثانيًا: التكنولوجيات التي يتعين أن تتعامل معها. من علاج الأمراض الموهنة إلى الروبوتات إلى تحلية الماء، إما موجودة أو يمكن تصورها، لكنها ليست موجودة بالكامل، وثالثًا: تنفيذها كلها تقريبًا (فيما عدا علاج الأمراض الموهنة) يتطلب حلًا قصير المدى للطاقة وحلًا طويل المدى.

الخطورة هي أن المشكلة والحل سوف يصبحان غير متوازنين؛ ذلك أن المشكلة سوف تصل إلى مرحلة الأزمة، قبل أن تدخل الحلول التقنية الخدمة. ومهمة الرئيس في معالجة هذه القضايا في العقد المقبل ليست كبيرة، فسوف تكون تيسير الحلول القصيرة المدى، بينما يضع الأساس للحلول الطويلة المدى. وعلاوة على ذلك، يفعل الأمرين وليس أحدهما فحسب، وسوف يكون الإغراء متمثلاً في النظر إلى الحل طويل المدى، والتظاهر بأن المشكلة سوف تنتظر أو أن الحل سوف يصل أسرع مما يمكن. والحلول طويلة المدى أكثر جاذبية، وتسبب قدرًا من الجدل أقل مما تثيره الحلول القصيرة المدى؛ الأمر الذي سوف يؤثر على الأشخاص، الذين مازالوا أحياءً ويصوتون. والمشكلة التي ستكون لدى الرؤساء في هذا العقد، هي أن الأزمة لن تحدث في عهدهم، وإنما في العقد التالي. وسوف يكون إغراء تأجيل القضية كبيرًا، وهنا تصبح قطرة أخرى من الحكمة من ميكيا فيللي على قدر كبير من الأهمية؛ فالحكام الناجحون يريدون فعل ما هو أكثر من الحكم؛ ذلك أنهم يريدون أن يتذكروهم الناس باستمرار، فلم يكن لدى جون كينيدي الوقت لعمل الكثير، ولكننا جميعًا نتذكر قراره بالذهاب إلى القمر.

على المدى القصير، فإن أهم مشكلة هي وضع الأساس لمتطلبات الطاقة في العقد المقبل. ولكي يتم ذلك، لا بد من حدوث أمرين؛ إذ يجب على الرئيس اختيار الموازنة بين وقودين أحفوريين متاحين، الفحم والغاز، وبعد ذلك يتعين عليه أن يقول للناس إن هذين هما الاختياران الوحيدان. وإذا فشل في إقناع الجمهور بهذا، فلن تكون هناك طاقة للتكنولوجيات، التي سوف تظهر في العقد المقبل، كما يجب عليه بالطبع صياغة هذه الحجة، في سياق الاحتراز العالمي والتغير المناخي والرغبة في حماية الأنواع كافة. وتدعم الحركة البيئية أوياما، ولا بد لكل رئيس من الحفاظ على قاعدته السياسية. ولكن عند مناقشة ناخبه الخضر، فلا بد من تقديم الحجة على استخدام الغاز الطبيعي والفحم المحسّن لتوليد الكهرباء. وربما يمكنه

- إلى حد كبير - صياغة مناقشته من ناحية السيارات الكهربائية، ولكن بغض النظر عن الطريقة التي يصوغها بها، فهذه هي مهمته، وبخلاف ذلك، سوف يُنظر إليه على أنه أهمل الأزمة التي كان يتوقعها.

في الوقت نفسه، لا بد له من الاستعداد للزيادة طويلة المدى في توليد الطاقة من الموارد غير الهيدروكربونية، وهي المصادر الأرخص والموجودة في أماكن، ولن تُضطر الولايات المتحدة للسيطرة عليها بإرسال الجيوش - وفي رأيي أن هذه الطاقة الشمسية قائمة على الفضاء - ولهذا السبب، فإن ما ينبغي أن يجري الآن، وما هو جار بالفعل، هو تطوير القطاع الخاص للصواريخ الرافعة الرخيصة. واستثمرت ميتسوبيشي في الطاقة الشمسية القائمة على الفضاء حوالي 21 مليار دولار. كما تستثمر وكالة حماية البيئة في أوروبا، كما وقعت غاز وكهرباء الباسيفيكي بكاليفورنيا عقدًا لشراء الطاقة الشمسية من الفضاء، بحلول عام 2016، وإن كنت أرى أن تنفيذ ذلك العقد بذلك الجدول الزمني غير مرجح.

ومع ذلك، فسواء أكان المصدر هو الطاقة الشمسية القائمة على الفضاء أم أية تكنولوجيا أخرى، فلا بد للرئيس من التأكد من أن احتمال بنائها واقعي. وهناك حاجة إلى كميات هائلة من الطاقة الزائدة، والمصدر المرجح للتكنولوجيا - بناءً على التاريخ - هو وزارة الدفاع الأمريكية. وبذلك سوف تستوعب الحكومة تكلفة التطور المبكر، وسوف يجني الاستثمار الفوائد.

نحن في فترة الدولة فيها أقوى من السوق، ولدى الدولة فيها موارد أكثر. والأسواق بارعة في استغلال العلوم والتكنولوجيا المبكرة، بطريقة جيدة تقريبًا، كما في الأبحاث الأولية. فمن الطائرة إلى القوة النووية، إلى السفر إلى القمر والإنترنت، والأقمار الاصطناعية، التي تحدد المواقع العالمية، نجد أن الدولة أفضل كثيرًا في الاستثمار في الابتكار طويل المدى. وعدم كفاءة الدولة، وعدم قدرتها على الاستيعاب يعتبران ثمنًا لعدم الكفاءة في مراحل البحث الأولى.

وعندما ننظر إلى المشروعات، التي لا بد لنا من تنفيذها في العقد المقبل، نجد أن الهيئة الأرجح أن تنفذها بنجاح هي وزارة الدفاع.

ليس هناك شيء جديد - على وجه التحديد - في تضافر التكنولوجيا والجيوبوليتيكا والرخاء الاقتصادي هذا؛ فقد هيمن الفلسطينيون على الساحل الشرقي للبحر المتوسط؛ لأنهم كانوا عظماء في صنع الدروع. ولكي يربط الرومان إمبراطوريتهم ويسيطروا عليها، شق الجيش الروماني الطرق وبنى الجسور - التي لا تزال مستخدمة - وأثناء حرب استهدفت الهيمنة العالمية، خلق الجيش الألماني أساس علم الصواريخ؛ وردًا على ذلك توصل البريطانيون إلى الرادار. ودائمًا تجد القوى الرائدة، وتلك التي تتنافس على القوة نفسها باستمرار تحت ضغط عسكري واقتصادي، وهي تتجاوب مع ذلك باختراع تكنولوجيات جديدة غير عادية.

ومن الواضح أن الولايات المتحدة تعدّ حاليًا تحت ضغط اقتصادي ولكن الضغط العسكري يتناقص، وهذا الوقت ليس في العادة، عندما تقوم الولايات المتحدة بمغامرات كبيرة جديدة. وتمول الحكومة بقوة مجالًا سبق أن ناقشناه، وهو البحث عن علاج للأمراض الموهنة. وتمول وزارة الدفاع قدرًا كبيرًا من الأبحاث في مجال علم الروبوت، ولكن المشكلة الأساسية - وهي الطاقة - لم تنل حقتها. وبالنسبة لهذا العقد، تفتقر الاختيارات إلى الخيال. والخطر هو أن الرئيس سوف يبدد سلطته في مشروعات، مثل: الحفاظ على البيئة، وطاقة الرياح، والطاقة الشمسية الأرضية، التي لا يمكن أن تثمر حجم النتائج المطلوبة. والمشكلة مع الغاز الطبيعي - بشكل خاص - هي أنه يفتقر إلى الخيال. ولكن كشأن الكثير جدًا مما سيحدث في هذا العقد، فإن قبول ما هو عادي وواضح يُطالب به أولاً، وتعقبه الأحلام التي يتم التعبير عنها في هدوء ثابًا.





## الفصل الرابع عشر

### الإمبراطورية والجمهورية والعقد

عند مناقشة السياسة الخارجية الأمريكية، فحصدت كل قارة وعديدًا من البلدان، غير أنني لم أحظ بكل شيء بحال من الأحوال؛ فسبب الطبيعة العالمية للإمبراطورية الأمريكية، كل بلد في العالم مهم بشكل ما للولايات المتحدة. فمن تهديد النيجر الإسلامي إلى الأثر الذي يمكن أن يكون لنيبال على التوازن الصيني الهندي إلى دور الإكوادور في حروب المخدرات، من الصعب تخيل بلد في موسوعة الولايات المتحدة، يتم إيداء لا مبالاة تامة تجاهه.

هناك الكثيرون الذين كانوا سيقولون إن الولايات المتحدة توسعت أكثر من اللازم، وأن تلك التورطات الدولية المعقدة ليست في مصلحة الولايات المتحدة، في آخر الأمر، وليست هذه مقولة غير مقنعة، سوى أنه ليس واضحًا كيف يمكن للولايات المتحدة تخليص نفسها من مصالحها العالمية. وخلال العقد المقبل، لا بد للولايات المتحدة من إدارة فوضى العالم الإسلامي، وروسيا الناهضة، وأوروبا العبوس والمقسمة، والصين الضخمة وشديدة الاضطراب. وبالإضافة إلى ذلك، لا بد لها من العثور على سبيل للخروج من المشكلات الاقتصادية؛ ليس من أجل نفسها فحسب، بل من أجل العالم.

ينبغي كذلك أن نتذكر أنه بينما يمكن أن يكون الاقتصاد الأمريكي منهكًا في الوقت الراهن، فهو مازال يمثل على وجه التقريب 25 بالمائة من اقتصاد العالم،

وتغرق الاستثمارات الأمريكية العالم. إن كونها الولايات المتحدة فحسب يخلق العلاقات المعقدة واسعة الانتشار، التي يتعين علينا السعي لإدارتها. وربما تكون الولايات المتحدة مفرطة في توسعها، ويمكن أن يكون من الأفضل، لو لم تبلغ الولايات المتحدة الوضع الإمبريالي قط، أو أن تتراجع عنه الآن. ولكن الأمان لا نضع السياسات؛ فالسياسات يضعها الواقع، وواقع ما جرى خلقه، عن قصد أو غير قصد، لا يمكن الإعراض عنه، دون عواقب مذهلة؛ فقد دخلت الولايات المتحدة الطريق إلى القوة العالمية مع الحرب الإسبانية الأمريكية في عام 1898، وهي مازالت على هذا المسار منذ أكثر من قرن؛ إذ إن المسألة ببساطة هي أن تغيير المسار مع السرعة التي تسير بها الولايات المتحدة ليس خيارًا. والدعوة إلى ذلك خيال.

الخيار الوحيد هو إدارة ما جرى خلقه، ويبدأ هذا بالتوفيق بين المبادئ الأخلاقية وممارسة القوة. والبدء بالمبادئ الأخلاقية هو البداية الأكثر عملية؛ فقد كبير من الصراع الداخلي بشأن شن الحروب أساسه عدم الوضوح بشأن العلاقة بين الأخلاق والقوة، والمطلوب هو الفهم المشترك للواقع والأخلاق.

ممارسة القوة أمر غامض باستمرار من الناحية الأخلاقية، ومع ذلك فمبادئ الولايات المتحدة الأخلاقية لا تعني شيئًا إذا دُمِّر البلد. ويتطلب السعي لتحقيق الحقوق العامة ما هو أكثر من الكلام؛ فهو يتطلب القوة، بما «لا يُضار أحد»، وهي قوة غير واقعية، وأفضل ما يمكن أن نفعله هو اتخاذ قرارات صعبة بشأن من يُضار ومتى. وقد اضطرُّر لنتكون إلى دعم العبودية في كنتاكي، ولم يكن ذلك صوابًا، ولكن كان عليه إما أن يفعل ذلك أو يخسر الحرب، وإذا خسر الحرب، فقد قُضي على مشروعه الأخلاقي كله.

في الوقت نفسه، فإن مجرد السعي لتحقيق القوة دون أي غرض أخلاقي لا يؤدي إلى شيء، فقد مارس نيكسون القوة بلا غرض، وكان افتقاره إلى منظور

أخلاقي هو ما قاده إلى ووترجيت Watergate والدمار؛ فتبرير الوسيلة تبعاً للغاية شيء، وأن تصبح الوسيلة هي الغاية شيء آخر.

خلال العقد المقبل، لا بد للولايات المتحدة من التغلب على الرغبة في التبسيط، لأنه ليست هناك عبارة واحدة أو صيغة واحدة تحل المشكلة. وتكرّر المشكلة الأخلاقية في قلب ممارسة القوة نفسها بأشكال - لا آخر لها وغير متوقعة - يتعين حلها في كل مرة تحدث فيها. ولا يمكن لقائد حلها بشكل صحيح كل مرة؛ فأقصى ما يمكن قوله عن أي قائد، هو أنه أحسن صنعاً في ظل الظروف.

للوصول إلى هذه النقطة، لا بد للشعب الأمريكي من النضوج، فنحن مجموعة مرهقة نتوقع حلولاً لمشكلات غير قابلة للحل، ونتوقع الكمال في قادتنا. ولم يكن بالإمكان انتخاب تشرشل Churchill رئيساً للولايات المتحدة؛ ذلك أنه كان بأي مقياس معقول مدمن خمر، ومن المؤكد أنه كان نخبويًا بالمعنى المتكبر للكلمة. ومن الواضح أن روزفلت كانت له علاقة غرامية واحدة وهو رئيس، وأخرى قبل أن يصبح رئيساً. ويبدو لنكون لبعض كُتّاب السير أنه كان يعاني من اضطراب مزاجي ثنائي القطب، وهو مرض عقلي. وربما كان ريجان في مراحل مرض ألزهايمر الأولى في أواخر فترة رئاسته، وهؤلاء جميعاً كانوا على أقل تقدير رجالاً أحسنوا صنعاً في ظل الظروف. وما لم يبلغ الشعب الأمريكي النضج؛ كي يدرب نفسه على توقع هذا وليس أكثر، فلن تبقى الجمهورية. فمطالب الإمبراطورية غير المتعمدة والتوقعات غير الناضجة من قادتنا سوف تطيح بالنظام، قبل أن تطيح به النزعة العسكرية أو الاحتلال بزمن طويل.

من الواضح أن المجتمع الأمريكي يتمزق في خطاب ناقم، وهذا ليس جديداً؛ فالأشياء التي قيلت عن أندرو جاكسون Andrew Jackson وفرانكلين روزفلت لم تكن سارة. وبعد أن تحملنا الصدمات بشأن الحقوق المدنية وفيتنام ووترجيت، لا يمكننا في واقع الأمر أن نقول إننا بلغنا مستويات جديدة من الفظاظة. ولكن

العراق وأفغانستان والأزمة المالية الأخيرة أثارَت الأسئلة المهمة بشأن المصالح العالمية للنجبة الأمريكية، وما إذا كانت قد دمرت مصالح الجمهور العام أم لا. ومن الصعب أحياناً التمييز بين الأوغاد والقديسين، ولذلك ليس هناك منهج بسيط لهذا النقاش؛ فتجريح حفل الشاي لأوياما وتجريح أوياما لحفل الشاي لا يسهمان كثيراً في خلق خريطة طريق سياسية متماسكة.

طرح العقد الماضي تحديات للولايات، لم تكن مستعدة لها، ولم تدرها بشكل جيد. وكان - كما يقولون - تجربة تَعْلُم، وكانت قيمة؛ لأن الأخطاء لم تهدد بقاء الولايات المتحدة. ولكن التهديد الذي سينشأ في وقت لاحق من القرن، سوف يعلو على تلك التهديدات الخاصة بالعقد الماضي. ولتعد بالنظر إلى منتصف القرن العشرين؛ لتخيل ما يمكن أن يواجه الولايات المتحدة، وهي تمضي قُدماً.

الولايات المتحدة محظوظة لأن يكون لديها العقد المقبل، الذي تحقق فيه تحولاً من السياسة الخارجية الاستحواذية إلى ممارسة أكثر توازناً وتدرجاً. ولا أعني بذلك أن الهدف هو تعلم استخدام الدبلوماسية بدلاً من القوة؛ فالدبلوماسية لها مكائنها، ولكنني أقول إنه عندما لا تفلح الحلول السهلة للأمور، فلا بد أن تتعلم الولايات المتحدة اختيار أعدائها بعناية، وتؤكد من أن هزيمتهم ممكنة، ثم تخوض بعد ذلك حرباً فعالة تجعلهم يستسلمون. ومن المهم عدم خوض الحروب، التي لا يمكن كسبها وخوض الحروب من أجل الفوز؛ فخوض الحرب نتيجة للغضب غير مسموح به لبلد، بهذا القدر الشاسع من القوة والمصالح.

أمضت الولايات المتحدة ست عشرة سنة من السنوات الخمسين الماضية، تخوض حروباً في آسيا. وبعد تجربته في كوريا، نَبَّه دوجلاس ماك آرثر Douglas MacArthur - وهو ليس من دعاة السلام - الأمريكيين إلى أن يتجنبوا تلك المغامرات. والسبب بسيط؛ فما أن يضع الأمريكيون قدمهم في آسيا؛ حتى يتم التفوق عليهم عددياً. والمشكلات اللوجستية الخاصة بإمدادات القوات على

بعد آلاف الأميال من الوطن، ومحاربة عدو ليس له من مكان يذهب إليه، وعلى معرفة وثيقة بالأرض، تفاقم فحسب التحدي الكاسح بالفعل. ومع ذلك، فما زالت الولايات المتحدة تخوض الحروب متوقعة أن كل مرة ستكون مختلفة، ومن بين كل دروس العقد الماضي، هذا هو أهم درس للعقد المقبل.

الدرس الذي كان ينبغي لنا تعلمه من البريطانيين، هو أن هناك طرقاً أكثر فاعلية، وإن كانت أكثر تشاؤماً، لإدارة الحروب في آسيا وأوروبا. إحدى هذه الطرق تحويل موارد الأعداء المحتملين بعيداً عن الولايات المتحدة في اتجاه الجيران، وينبغي أن يكون الحفاظ على توازن القوى مهماً للسياسة الخارجية الأمريكية، كأهمية وثيقة الحقوق للسياسة الداخلية. وينبغي أن تدخل الولايات المتحدة الحرب في النصف الشرقي من الأرض - فقط في أسوأ الظروف - عندما يهدد عدو مزعج بالاستيلاء على أراض واسعة، ولم يتبق هناك من يقاومه.

إن أساس القوة الأمريكية هو المحيطات، وتمنع السيطرة على المحيطات الدول من مهاجمة الولايات المتحدة، وتسمح للولايات المتحدة بالتدخل، عندما يستدعي الأمر ذلك، كما تمنحها السيطرة على التجارة الدولية. والولايات المتحدة ليست مضطرة لاستخدام هذه القوة، ولكن لا بد أن تحرم منها أي شخص آخر؛ فالتجارة العالمية تعتمد على المحيطات. ومن يسيطر على المحيطات يسيطر في النهاية على التجارة العالمية. واستراتيجية توازن القوى شكل من أشكال الحرب البحرية؛ حيث تمنع المُتَحَدِّين من بناء القوات، التي يمكن أن تهدد السيطرة الأمريكية على البحار.

الجيش الأمريكي مشغول حاليًا ببناء قوة، يمكنها القتال في العالم الإسلامي، ويقول البعض إننا بلغنا نقطة سوف تكون الحروب جميعها فيها غير متماثلة. ويصف البعض المستقبل من ناحية «الحرب الطويلة»، وهي الصراع الذي سيمتد

لأجيال، وإذا صح ذلك، فحينئذ تكون الولايات المتحدة قد خسرت بالفعل؛ لأنه ليست هناك طريقة، يمكنها بها تهدئة أكثر من مليار مسلم.

لكنني كنت سأقول إن هذا التقييم مضلل، وإن هذا الهدف فشل للخيال. فالجنرالات - كما يقولون - يحاربون باستمرار الحرب الأخيرة، ومن السهل الوصول إلى الاستنتاج القائل بأنه بينما لا تزال الحرب مستعرة، فكل الحروب في المستقبل سوف تشبه الحرب التي تخوضها الآن. ولا يجب نسيان أن الحروب الشاملة - وهي الحروب التي تحارب فيها القوى الكبرى لإعادة تعريف النظام الدولي - تحدث في كل بلد تقريبًا. وإذا حسبنا الحرب الباردة وحروبها الفرعية، لكان هناك إذًا ثلاثة حروب شاملة خيضت في القرن العشرين. ومن المؤكد افتراضيًا أنه ستكون هناك حروب شاملة في القرن الحادي والعشرين، ويجب دائمًا تذكر أنه يمكنك كسب عشرة حروب صغيرة، ولكن إذا خسرت حربًا كبيرة واحدة، فإنك ستخسر كل شيء.

من الممكن استدعاء القوات الأمريكية للقتال في أي مكان. وكان من الصعب في عام 2000 تصديق أن الولايات المتحدة ستقضي تسعًا من السنوات العشر التالية، وهي تخوض حربًا في أفغانستان، ولكنها فعلت ذلك. وكان تشكيل جيش يواصل القتال طوال هذه الفترة سيصبح خطأ هائلًا، كما كان سيصبح تقرير أن الولايات المتحدة لم تعد ترغب في خوض حروب وتخفيض ميزانية الدفاع على الدرجة نفسها من الخطأ.

لا بد أن يكون التركيز الأول على البحر. والبحرية الأمريكية أساس استراتيجي للولايات المتحدة، تعقبها مباشرة القوات الأمريكية في الفضاء؛ ذلك أن أقمار الاستطلاع الاصطناعية هي التي سوف ترشد الصواريخ المضادة للسفن في العقد المقبل، وبعد وقت قصير، سوف تجد هذه الصواريخ نفسها طريقها إلى الفضاء. وفي عصر يمكن أن يستغرق فيه إدخال نظام أسلحة جديد في الخدمة عشرين عامًا،

فلا بد أن يكون العقد المقبل فترة استعداد مكثف لأي ما يمكن أن يأتي؛ فالعقد المقبل زمن للانتقال.

كانت لدى البريطانيين وزارة المستعمرات، وكان لدى الرومان كان لديهم حاكم الإقليم، وكان لدى الولايات المتحدة مجموعة تتسم بالفوضى من المؤسسات، التي تتعامل مع السياسة الخارجية؛ فهناك ست عشرة دائرة استخبارات ذات مسؤوليات متداخلة، ووزارة الخارجية ووزارة الدفاع ومجلس الأمن القومي والمدير القومي للاستخبارات، جميعها ينتهي بها الحال، وقد تعاملوا مع القضايا نفسها لا ينسق بينهم، سوى مدى إدارة الرئيس لهم جميعا. والقول بأن هناك طهارة كثيرين في المطبخ لا يقدم كل الحقيقة؛ فهناك طهارة كثيرين جدًا يقدمون الوجبة نفسها. وربما كانت النزاعات الداخلية البيروقراطية في واشنطن مادة تغذي الممثلين الكوميديين، ولكنها يمكن أن تدمر حياة أشخاص في أنحاء العالم، ومن السهل ترك الأمور كما هي، ولكن ذلك أسهل بالنسبة لواشنطن فحسب. ولا بد ببساطة من ترشيد جهاز السياسة الخارجية الأمريكي؛ فالرئيس يمضي جزءًا كبيرًا من وقته، وهو يحاول فحسب السيطرة على فريقه، ولا بد أن يتغير ذلك في العقد المقبل، قبل أن يخرج الأمر عن السيطرة.

يحب الأمريكيون أن يَحْمَلُوا مسئولية مشكلات الولايات المتحدة للجميع عدا أنفسهم، فيقال إن المشكلة هي فوكس نيوز Fox News، أو المصالح الخاصة للإعلام الليبرالي. وفي الأساس، فإن المشكلة هي أنه ليس هناك إجماع في الولايات المتحدة بشأن ما إذا كانت لديها إمبراطورية أم لا، وبشأن ما يجب عمله في هذا الخصوص. يفضل الأمريكيون التجريح المتبادل على مواجهة الحقائق؛ وهم يفضلون الجدل بشأن ما ينبغي أن يكون على الجدل بشأن ما هو كائن. وما حاولت بيانه هو الواقع كما أراه، من ناحية النظام والعقد المقبل. وبقولي إن الولايات المتحدة أصبحت إمبراطورية، دون أن تعتمد ذلك، فقد قدمت كذلك

الحجة على أن الإمبراطورية تمثل تهديدًا قويًا للجمهورية؛ ففقدان ذلك الأساس الأخلاقي سيجعل الإمبراطورية عديمة الجدوى.

قدمت كذلك حجة على ما أسميه الرئيس الميكيا فيللي، وهو القائد الذي يفهم القوة، ولديه جوهر أخلاقي؛ فالرئيس هو الحصن العملي الوحيد الذي يحمي الجمهورية، لأنه وحده المنتخب من الشعب كله، وعمله هو القيادة كي يمكنه أن يدير. ولكن الرئيس - مهما كانت براعته - لا يمكن أن يقود بمفرده، فلا بد أن تكون لديه المؤسسات الأخرى، التي أعطاها المؤسسون للجمهورية، وتعمل على نحو ناضج. وقبل هذا وذاك، لا بد أن يكون لديه جمهور ناضج، يتولى مسئولية الدولة والأمة.

ويتضمن العهد الجديد هذا النص:

«لَمَّا كُنْتُ طِفْلاً، كَطِفْلٍ كُنْتُ أَتَكَلَّمُ، وَكَطِفْلٍ كُنْتُ أَفْطَنُ، وَكَطِفْلٍ كُنْتُ أَكْزُرُ.  
وَلَكِنْ لَمَّا صِرْتُ رَجُلًا أَبْطَلْتُ مَا لِلطِّفْلِ.»

لقد شبت الولايات المتحدة عن الطوق، ولا بد أن يشب جمهورها كذلك عن الطوق.

لنكولن وروزفلت وريجان، جميعهم، قادوا دولاً عنيده، وكان كل منهم من المهارة بما يكفي؛ لتكوين ائتلافات لها من القوة ما يمكنها من اجتياز العاصفة. لكن ونحن نمضي قدمًا، فإننا لسنا في حاجة فقط إلى قادة مهرة، بل كذلك إلى جمهور ماهر. سألت امرأة بنيامين فرانكلين، بعد المؤتمر الدستوري عن نوع الحكومة، التي أعطاها المندوبون للبلد، فقال لها: «جمهورية، إن استطعتم الحفاظ عليها».

أعتقد بحق أن الولايات المتحدة أشد قوة بكثير مما يظن الناس؛ فمشكلاتها حقيقية، ولكنها تافهة مقارنةً بمدى قوتها. وأنا خائف بحق - ليس بشأن بقاء أمريكا - ولكن بشأن قدرة الولايات المتحدة على الحفاظ على الجمهورية، التي



قدمها المؤسسون؛ فمطالب الإمبراطورية وإغراءاتها يمكنها بسهولة القضاء على المؤسسات، التي يحاصرها بالفعل جمهور فقد الكياسة والرؤية، وساسة لا يمكنهم القيادة؛ لأنهم غير قادرين على ممارسة القوة أو السعي لتحقيق غايات أخلاقية.

هناك أربعة أشياء لا بد منها، أولاً: دولة لديها فهم غير عاطفي للوضع، الذي هي فيه، وثانياً: قادة مستعدون لتحمل عبء التوفيق بين هذا الواقع والقيم الأمريكية، وثالثاً: رؤساء يفهمون القوة والمبادئ، ويعرفون مكان كل منها. لكن قبل هذا كله، ورابعاً: فإن ما لا بد منه، هو جمهور أمريكي ناضج، يعترف بما هو في خطر، ومقدار قلة الوقت لتطوير الثقافة والمؤسسات اللازمة لإدارة الجمهورية، التي انخرطت في دور إمبراطوري. ودون ذلك فلن يكون أي شيء آخر ممكناً. إن الوضع ليس ميثوساً منه بحال من الأحوال، ولكنه يتطلب العمل بعزم وإصرار؛ كي يبلغ البلد أشده.



## عرفان وتقدير

كل مؤلف لكل كتاب يكون مدينًا لأشخاص كثيرين، اعتمدت كتابته على أفكارهم وكتاباتهم. وديني الأكثر مباشرة لروجر بيكر Rodger Baker، وبيتر زيهان Peter Zeihan، وكولين تشايمان Collin Chapman، وريفا بالا Reva Bhalla، وكمران بخاري Kamran Bokhari، ولورين جودريتش Lauren Goodrich، ويوجين تشوسوفسكي Eugene Chausovsky، ونيت هيوز Nate Hughes، وماركو پاپيك Marko Papic، ومات جيرتكين Matt Gertken، وكيفن ستيتش Kevin Stech، وإيمر دوجرو Emre Dogru، وبابلس پارسلي Bayless Parsley، ومات پاورز Matt Powers، وچاكوب شاپيرو Jacob Shapiro، وإيرا چمشيدي Ira Jamshidi؛ فكل منهم ساعد في جعل هذا الكتاب أفضل مما لو لم يحدث ذلك، كما أود شكر بن سليدج Ben Sledge وت. ج. لنسنج T.J. Lensing لإنتاجهما الخرائط، وهي ليست عملاً سهلاً كما علمت، وشكري لمكتبة نادي الجيش والبحرية في واشنطن العاصمة، على ما قدمته لي من عون.

شكري الخاص لچيم هونفيسر Jim Honfischer، وكيلي الأدبي على دعمه وتشجيعه، ولمحرري في دابلداي Doubleday چيسون كاوفمان Jason Kaufman على ثقته، التي لا تلين فيّ، وعلى نقده الذي أعانني باستمرار، ولروب بلوم Rob Bloom؛ حيث ساعد بيل پاتريك Bill Patrick في تحويل نثري الفضفاض إلى نثر أفضل بكثير، وأبقتني سوزان كوپلاند Susan Copeland على المسار ومنظماً.

وأنا ممتن لكل شخص في سترافور، بمن فيهم قراؤنا، لدعمهم الحيوي ونقدمهم.. وفوق هذا وذاك، أشكر زوجتي ميريديث Meridith، التي هي - كما هو الحال دائماً - صخرتي ومعقلي.

## قائمة ببعض المصطلحات والمفردات الواردة في الكتاب

الابتكار التكنولوجي Technological Innovation

أبناء طفرة مواليد ما بعد الحرب العالمية الثانية Baby Boom

الاتحاد الأوروبي European Union

اتصالات البث المركزي Centralized Broadcast Communications

الاتصالات الصوتية المتناظرة Analog Voice Communications

الاحترار العالمي Global Warming

احتكارات إقليمية Regional Monopolies

احتلال عسكري Military Occupation

إحياء الشعور الوطني Patriotic Resurgence

اختلال ديموغرافي Demographic Imbalance

احتلال عسكري Military Imbalance

استثمارات أجنبية Foreign Investments

استراتيجية استباق Strategy of Preemption

استراتيجية الاحتواء Strategy of Containment

Balance-of-Power Strategy استراتيجية توازن القوى

Settlement استيطان

Weapons of Mass Destruction أسلحة الدمار الشامل

Antiaircraft Weapons أسلحة مضادة للطائرات

Random Shooting إطلاق نار عشوائي

Redistribution of Wealth إعادة توزيع الثروة

Interdependence الاعتماد المتبادل

Market Economy اقتصاد السوق

Stimulated Economy الاقتصاد المحفّز

Satellites أقمار اصطناعية

Fiber Optics الألياف البصرية

Default الامتناع عن السداد

War Lords أمراء الحرب

Degenerative Diseases أمراض تنكسية

National Security الأمن القومي

Greenhouse Emissions انبعاثات الصوبة الزجاجية

Uprising انتفاضة

Popular Uprising انتفاضة شعبية

Openness الانفتاح

Multinational Bailout إنقاذ متعدد الجنسيات

انقلاب Coup

انكماش Contraction

أيلول الأسود Black September

برنامج نووي Nuclear Program

البطالة Unemployment

بلدان مارقة Rogue Countries

بناء الدولة Nation-Building

بنك الاحتياط الفيدرالي The Federal Reserve Bank

البنية التحتية Infrastructure

تبعية اقتصادية Economic Dependence

التبعية الأمريكية American Dependence

التجارة الإلكترونية E-Commerce

تحالف مصلحة Alliance of Convenience

تحالفات جيوبوليتيكية Geopolitical Alignments

التخطيط المركزي Central Planning

تخفيض سعر العملة Currency Devaluation

تدخل عسكري Military Intervention

التدمير الخلاق Creative Destruction

ترسانة نووية Nuclear Arsenal

التضخم Inflation

Economic Recovery التعافي الاقتصادي

Multiculturalism التعددية الثقافية

Climate Change تغير مناخي

Self Determination تقرير المصير

Austerity نقشف

Military Integration تكامل عسكري

Hydraulic Fracturing التكسير الهيدروليكي

Electoral Fraud تلاعب انتخابي

Tax Fraud تلاعب ضريبي

Power Projection التلويح باستخدام القوة

Terrorist Organization تنظيم إرهابي

Economic Development التنمية الاقتصادية

Enlightenment التنوير

Regional Balance توازن إقليمي

Balance of Power توازن القوى

Regional Balances of Power توازنات القوى الإقليمية

Diplomatic Tension توتر دبلوماسي

Economic Expansion توسع اقتصادي

Full Employment التوظيف الكامل

Counterbalance ثقل موازن



- Jewish Community الجالية اليهودية
- Lobbies جماعات الضغط
- Security Apparatus الجهاز الأمني
- Irish Republican Army الجيش الجمهوري الأيرلندي
- Foreclosure حبس الرهن
- Receivership الحراسة القضائية
- War of Attrition حرب استنزاف
- Civil War حرب أهلية
- War on Terror الحرب على الإرهاب
- Asymmetrical Warfare حرب غير متماثلة
- Secessionist Movements حركات انفصالية
- Environmental Movement الحركة البيئية
- Stimulus Package حزمة حوافز
- Human Rights حقوق الإنسان
- Silver Bullet حل سحري
- Air Campaign حملة جوية
- Quantum Computing الحوسبة الكمية
- Road Map خريطة طريق
- State-of-Nation Address خطاب حالة الدولة (روسيا)
- Sleeper Cells خلايا نائمة

Nation-State الدولة القومية

City-State الدولة المدينة

Multinational State دولة متعددة القوميات

Public Opinion الرأي العام

Divine Ordination الرسامة المقدسة

Recession ركود

Stagflation الركوضخم (ركود وتضخم معا)

Morale الروح المعنوية

Iron Curtain الستار الحديدي

Class Resentment السخط الطبقي

Aging Population سكان شائخون

Pax Americana السلام الأمريكي

Pax Romana السلام الروماني

Lasting Peace سلام دائم

Primary Commodities سلع أولية

National Sovereignty السيادة القومية

Preemptive Policy سياسة استباقية

Containment Policy سياسة الاحتواء

Foreign Policy السياسة الخارجية

Policy of Disengagement سياسة فك الارتباط

- Monetary Policy سياسة نقدية
- Binary Code الشفرة الثنائية
- International Monetary Fund صندوق النقد الدولي
- Booster Rockets صواريخ رافعة
- Restraint ضبط النفس
- Air Strike ضربة جوية
- Unmanned Surveillance Aircraft طائرات مراقبة بلا طيار
- Industrial World العالم الصناعي
- Developing World العالم النامي
- White Man's Burden عبء الرجل الأبيض
- Roadside Bomb عبوة ناسفة
- Social Contract العقد الاجتماعي
- Deferential Relationship علاقة تفضيلية
- Complementary Relationship علاقة تكاملية
- Semiskilled Labor عمالة شبه ماهرة
- Surplus Labor عمالة فائضة
- Common Currency العملة الموحدة
- Street Violence عنف الشوارع
- Fascism الفاشية
- Surplus of Labor فائض عمالة

Chaos الفوضى

Supply and Demand Law قانون العرض والطلب

Productivity قدرة إنتاجية

Variable-Rate Mortgage قرض عقاري متغير السعر

Mortgages قروض الرهن العقاري

Subprime Loans قروض عالية المخاطر

Regional Power قوة إقليمية

Military Might القوة العسكرية

Indigenous Power قوة محلية

Countervailing Power قوة موازنة

The Great Depression الكساد العظيم

Regional Players لاعبون إقليميون

Monroe Doctrine مبدأ مونرو

مجلس التجارة والتنمية التابع للأمم المتحدة

United Nations Council on Trade and Development

Military-Industrial Complex المجمع العسكري الصناعي

Age Cohort مجموعة عمرية

War Effort المجهود الحربي

Nuclear Power Plant محطة توليد طاقة تعمل بالطاقة النووية

Economic Advantages مزايا اقتصادية

- Foreign Aids مساعدات خارجية
- Standard of Living مستوى المعيشة
- State-Owned Enterprises مشروعات مملوكة للدولة
- Expropriation مصادرة الأملاك
- Mutual Interests مصالح مشتركة
- Reconciliation مصالحة
- Credibility المصدقية
- Vested Interest مصلحة مكتسبة
- Shared Fate المصير المشترك
- Manifest Destiny المصير الواضح
- Speculation المضاربة
- Anti-Imperialism معاداة الإمبريالية
- Data Processing معالجة البيانات
- Peace Treaty معاهدة سلام
- Nonaggression Pact معاهدة عدم اعتداء
- Concentration Camps معسكرات الاعتقال
- Back-Channel Negotiations مفاوضات القنوات الخلفية
- Waterway ممر مائي
- Free Trade Zone منطقة تجارة حرة
- Demilitarized Zone منطقة منزوعة السلاح

Criminal Organizations منظمات إجرامية

NGOs منظمات غير حكومية

Illegal Immigrants مهاجرون غير شرعيين

Lead Time مهلة الإنجاز

Natural Resources موارد طبيعية

The Elite النخبة

Ruling Elite النخبة الحاكمة

Viable Regime نظام قابل للبقاء

Turning Point نقطة تحول

Spoiling Attacks هجمات إجهاضية

Terrorist Attacks هجمات إرهابية

Preemptive Attack هجوم استباقي

Shared Identity هوية مشتركة

Realism الواقعية

Bill of Rights وثيقة الحقوق

Détente الوفاق

Abundance الوفرة

Fossil Fuel وقود أحفوري

## المؤلف في سطور

جورج فريدمان رئيس مجلس إدارة شركة ستراتفور الرائدة في مجال الاستخبارات العالمية، وهو حاصل على درجة البكالوريوس من سيتي كوليدج بجامعة سيتي بنيويورك، وعلى الدكتوراه من جامعة كورنيل.

وهو يقود رؤية ستراتفور الاستراتيجية، ويشرف على تطوير وحدة الاستخبارات في الشركة وتدريبها. وكثيرًا ما يُدعى إلى التحدث في المؤتمرات والمناسبات الخاصة بالصناعة في الشركات الكبرى، كما يلقي محاضرات في المؤسسات العسكرية، مثل: كلية الأركان الأسترالية، وكلية قيادة أركان المارينز الأمريكية، وكلية أبحاث القوات الجوية، وغيرها من الهيئات العسكرية والحكومية. كما أنه كثيرًا ما يُدعى للتحدث في محافل دولية، بما في ذلك تركيا وألمانيا وبولندا وأذربيجان وأستراليا ونيوزيلندا.

ومن كتبه:

Flashpoints: The Emerging Crisis in Europe.

The Next 100 Years: A Forecast for the 21st Century.

America's Secret War: Inside the Hidden Worldwide Struggle between America and Its Enemies.

The Future of War: Power, Technology and American World Dominance in the Twenty-First Century.

The Intelligence Edge: How to Profit in the Information Age.

The Political Philosophy of the Frankfurt School.





## المترجم في سطور

أحمد محمود عضو نقابة الصحفيين و اتحاد الكُتَّاب المصريين، ولجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، وحاصل على الليسانس في الأدب الإنجليزي، ودبلوم الدراسات العليا في الترجمة من جامعة القاهرة. يعمل حاليًا رئيسًا لقسم الترجمة بجريدة الشروق القاهرية، وحاصل على جائزة محمد بدران في الترجمة عن كتاب «طريق الحرير». من ترجماته: «الناس في صعيد مصر»، و«عالم ماك»، و«تشریح حضارة»، و«التحالف الأسود»، و«أبناء الفراغة المحدثون»، و«مصر: أصل الشجرة»، و«عصر الاضطراب»، و«حياة زوجية سعيدة»، و«الأصول الاجتماعية للدكتاتورية والديمقراطية»، و«سجلات تاريخية من مصر القديمة»، و«عندما تصادم العوالم»، و«التجارة في الزمن القديم الكلاسيكي»، و«التكالب على نطف إفريقيا» و«الاقتصاد العالمي المعاصر».

